

الشعر الجاهلي

خصائصه وفنونه

الدكتور يحيى الجبوري

الاستاذ بجامعة بغداد وجامعة قطر

مؤسسة الرسالة



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الطبعة الخامسة

١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م



مؤسسة الرسالة بيروت – شارع سوريا – بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ – ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

لقد لقي هذا الكتاب منذ صدر سنة ١٩٧٢م من ترحيب الباحثين واهتمام الدارسين ما جعله موضع عنايتهم ومرجع دراستهم ، وقد نفدت طبعته الأولى منذ سنوات ، ولم يتح لي أن أعيد النظر فيه ، فاني من الذين لا يرغبون التبديل والتغيير في شيء كتبوه ، إلا اذا جدّ جديد ، ولم أجد بعد هذه السنوات أمراً هاماً يستحق التغيير ، إلا أني رأيت أن أضيف فصلاً عن الحياة الجاهلية تكون بين يدي الكتاب لتوضح طبيعة الحياة التي عاشها الشعر ، وظروف البيئة التي احتوت هذا الشعر وأنضجته ، ولعل في هذا الفصل ما يعين على فهم الشعر وتفسير ظواهره .

وأسأل الله سبحانه أن يوفقنا دائماً إلى ما فيه الخير ويلهمنا الرشاد والسداد لنكون جنوداً في خدمة أمتنا ولغتنا وتراثنا الأصيل .



استاذ بجامعة قطر

الدوحة

٤ رجب ١٣٩٩ هـ

٣٠ مايو (ايار) ١٩٧٩ م

الباب الأول

الجاهلية

مقدمة في الحياة العربية لدراسة الأدب الجاهلي

مقدمة

الباب الأول

هذا الباب في حقيقته مقدمة لباب بعده في أدب العصر الجاهلي واتجاهاته ، وقد حاولت ان اقدم لأدب الجاهلية بدراسة موجزة بعض الايجاز عن حياة العصر ، تلقى الضوء على أهم الجوانب التي تعين على فهم الأدب وتوضح قضاياه وتفسر ظواهره . وحين مضيت في بحث هذه الجوانب ، وجدت ان الموضوعات التي علي ان اطرقها أو أرى ضرورة في بحثها قد كثرت وبرزت أهمية توكيدها وتوضيحها .

وقد توفرت أثناء البحث مادة غزيرة وصفحات طوال ، فأجريت القلم فيها حذفا وتشذيبا واختصارا ، فبقى بين يدي ما لابد من بقائه ، اذ يتعذر الاستغناء عنه والتلاعب به ، فان في ذلك ثلما للفكرة الاساسية وجورا على الموضوع الذي اريد .

وقد وجدت ان هذه الفصول التي تراها بين يديك قد اكتملت وتحددت وجمعتها وحدة فكرية وموضوعية ، وان ضمها الى دراسة اخرى سيخرجها عن وحدتها ويحملها ما لاتطيق . فكان ـ لكل ذلك ـ ان افردت هذه الدراسة في كتاب مستقل مستكمل الجوانب واضح المنهج .

ولا شك ان دراسة العصر الجاهلي على اهميتها ، تحف بها كثير

من المشكلات ، ولذلك فلا بد للباحث ان يكون حذراً من اطلاق الاحكام والفرضيات بالنسبة لطبيعة الحياة وظروف العصر ، وليس من شأن هذا البحث ان يفيض في دراسة العصر ، فان في ذلك سعة لمن يريد ان يفرغ للعصر الجاهلي فيدرس تاريخه ولغته وأحواله العامة ، وذلك أمر يخرج بي عن طبيعة المنهج الذي رسمت ، وانما همي هنا أن أدرس العصر بالقدر الذي يعين على فهم الشعر الجاهلي وحياة الشعراء ويبين نزعاتهم ويفسر كثيراً من المثل والتقاليد التي يتردد صداها - وما زال - في الشعر العربي .

ولعل من أصعب الامور وأشدها عسراً أن يحاول المرء رسم صورة للعصر صادقة وواضحة وموجزة في آن واحد ، وهذا ما حاولت ان افعله في هذه الفصول .

لقد نظرت في قضايا الجاهلية فوجدت ان لي رأيا في كثير منها قد يخالف ما تعارف الناس عليه ، وقد كان في نفسي شيء من بعض القضايا التي يظنها الناس اموراً بديهية مسلما بها ، فأردت ان اعرف وجه الحق اولا ، وأثبت ما هداني اليه البحث ثانيا ، وأبيّن ما ارتضيت من آراء كونتها الدراسة الفاحصة الممحصة ثالثا . وقد دللت على وجهة نظري بكثير من الادلة والشواهد ، معتمداً في ذلك على مصادر بحث اصيلة متقدمة .

وقد بنيت هذه الدراسة على خمسة فصول متكاملة مترابطة ، ففي فصل عرب الجاهلية وقفت عند مفهوم الجاهلية وحددت معناها وناقشت الآراء في تسميتها ودلالتها وأوضحت الرأي الذي ارتئيه . وكذلك وقفت عند اهل تلك الجاهلية وميزت بين عرب الحاضرة

وأعراب البادية وبينت الفارق بينهما وصلة هؤلاء باولئك ، و كيف نظر الاسلام و المسلمون الى العرب و الاعراب ، حتى اذا اطمأن البحث الى تحديد المفهوم وإزالة اللبس ودفع الوهم ، مضيت في دراسة العصر الجاهلي وكان أول ما يجب معرفته ان اتعرف على القبائل العربية و اثبت مواضعها و اعرف تحركاتها و أبيّن علاقاتها وصلاتها و ما يترتب على هذه الصلات من تحالف و حروب وهجرات واسفار ، و كذلك علاقة هذه القبائل بالامارات العربية التي قامت في العراق والشام ودومة الجندل ، وقد وقفت قليلا عند هذه الامارات وبيّنت طبيعة تكوينها وأثرها في حياة الجزيرة وحياة أبنائها اهل المدر منهم واهل الوبر ، لما كان بينهم وبين ملوك هذه الدول من صلات ودية حينا وحربية في اكثر الاحايين .

ونظرت في حياة العرب الاجتماعية فتعرفت على طبيعة حياتهم وعيشهم ، ونصيبهم من الحضارة ، وقد ازحت الصورة الخاطئة التي تصور العرب في البادية جفاة متبدين اصحاب رحلة ونقلة ، و اوضحت ان لكل قبيلة منازل في الصيف ومنازل في الشتاء فاذا تنقلت في الصحراء فانها تتنقل ضمن رقعة محددة مبينة ، وبينت ان البادية لم تكن منقطعة عن الحاضرة ، بل متصلة بها تأخذ منها وتعطيها ، فبينهما صلات وثيقة وتبادل وزواج ، و كثير من القبائل لها بادية وحاضرة. و اذا امعنا النظر في طبيعة المجتمع العربي نجد ثمة صلات تجمع بين القبائل وتؤلف قلوبهم على مثل عليا يحترمونها ويجلونها ، ويستوى في ذلك السادة منهم والعبيد ، البدو و الحضر ، وجماع تلك المثل : الكرم والشجاعة والمروءة وحماية الجار والوفاء و الحلم والتسامح .

ونظرت في معايش القوم فوجدتهم يختلفون في ارزاقهم سواء في الحـاضرة ام في البادية ، فنهـم الغنى الميسور ومنهم الفقير المدقع ، وكانت طبيعة حياتهم قد حددت معاشهم وابرز مـوارده في البادية الغارة والصيد والاعتماد على ما تدره حيواناتهم ، اما في الحاضرة فقد نشطت التجارة وقامت الزراعـة والصناعة ، ولـكل ذلك مواضـع معينة واناس معروفون . وكان لمكة النصيب الاكبر من التجارة ، كما كان لرجالها اليد الطولى في تنشيط التجارة وتوسيع رقعتها .

اما الناحية الحضارية والعقلية من حياة العرب فقد حاولت اولا ان افند المزاعم الباطلة حول العصر الجاهـلي ووصف اهـله بالتأخر والبدائية والانعزال، وحاولت ان اجلو الغشاوة المفتعلة عن الصورة الاصيلة لحياة العرب، فهم اولو حضارة عريقة وصلات بالعالم المجاور، وقد ساعد ذلك اتصالهم بجيرانهم من الامم التي تتجر واياها او تحضر اسواقها . فكان هنالك تبادل ثقافي بين العرب والفرس وبينهم وبين الروم والحبش والهنود وغيرهم من الامم . وقد ساعد ذلك الاسواق والتجارة وكثرة الاسفار التي يقوم بها تجار العرب، ثم وجود الجاليات الاجنبية في قلب البلاد العربية .

وظهرت عند العرب جملـة علوم كان اهمهـا معرفتهم بالنجوم ومواقعها وانوائها ، والرياح ومهابها ، وقد غنيت اللغة العربية باسماء المطر والسحاب والرياح ، وألّفوا كتبا كثيرة في ذلك . كما برعوا بالطب والبيطرة ، وان خالطت الخرافة بعض علومهم ، وكان لهـم بصر بالفراسة والقيافة ، ولهم علم واسع بالتاريخ والاخبار والايام منذ اقدم الازمنة اما الانساب فقد برعوا بمعرفتها وضبطها ، فعرفوا

اصول كل قبيلة وفروعها واخبارها وايامها وأولَوْا ذلك عناية فائقة. وقد ظهرت لديهم الحكم والامثال التي يصح ان نستدل بها على رقي عقليتهم ونضج تجاربهم ونظرتهم الصائبة الى الحياة.

ووقفت عند الحياة الدينية لعرب الجاهلية، وناقشت مفهوم الشرك الذي يطلق على اهل ذاك العصر، وتوصلت الى ان الشرك يفهم من تقديس معبودات مع الله سبحانه على انها وسائط يتخذونها لتشفع لهم عند ربهم، لا على انها شريكة في ملك الله او انها خالقة مدبرة. وان العرب كانوا على دين ابراهيم دين التوحيد، وهم بعد يؤمنون بالله الواحد القادر الخالق الرازق الذي بيده امر كل شيء. وقد دخلت الاصنام في حياتهم في عصر متأخر، وبينت سبب دخولها وكيفيته. ونظرت في مدى تمسك العرب بدينهم فوجدت ان الاعراب اقل احتفالا بالدين واهتماما بالاصنام من العرب المتحضرين.

وقد تبينت لدينا ديانات في الجزيرة كانت تنافس الوثنية الدين العام للعرب، منها الحنيفية دين ابراهيم، وقد شهدت المدن بخاصة مجموعة من هؤلاء الاحناف، الذين كانوا يترقبون الدين الجديد ويبشرون به. وهناك ديانتان اخريان موحدتان كان تأثيرهما محدودا ضيقا، هما: اليهودية والنصرانية اللتان لم تستطيعا ان تدحرا الوثنية او تقللا من شأنها. وكان الى جانب ذلك كله ديانات جاءت من الامم المجاورة، مثل المجوسية والدهرية وعبادة النجوم والكواكب وغيرها.

وبعد:

فارجو ان اكون قد قدمت في هذا البحث بعض ما اصبو اليه

من خدمة العربية وتراثها ، فلها علي يد لاتجحد وفي قلبي لها حب لا يفنى، وقد نشدت وجه الحق في كل سطر كتبته، وكل رأى ارتأيته، وقد وزعني اليقين الصادق عن الحماس الضال الكاذب ، فان اصبت فذلك حسبي ، وان اخطأت فما انا الا امرؤ ضعيف يصيب قليلا ويخطىء كثيرا ، وسبحان من له الكمال وحده ، فمنه السداد وبه التوفيق .

والحمد لله اولا وآخرا

يحيى الجبوري



تمهيد

بلاد العرب

جزيرة العرب او شبه جزيرة العرب ، اكبر شبه جزيرة في العالم، تقدر مساحتها بثلاثة ملايين كيلو متر مربع وكانت في الازمنة الغابرة الموغلة في القدم خصبة مزروعة عامرة بالسكان ، اذ تأتيها الرياح الغربية المشبعة بالغيوم والتي تمطر مرتفعات سورية وفلسطين، فتمطر الجزيرة ايضا مطرا غزيرا تجرى به السيول في الاودية الكثيرة، وقد بقيت الاودية العميقة في قلب الجزيرة وانحائها من آثار تلك السيول الجارفة والامطار الغزيرة التي هي سبب الحياة فيها .

ويتميز سطح الجزيرة بسهل منحدر من الغرب نحو الخليج العربي ومنخفضات ارض الرافدين وترتفع على هذه المهامه والبطاح الواسعة الشاسعة سلسلة جبال محاذية لساحل البحر الاحمر ، ترتفع ارتفاعا شاهقا اذ يبلغ في الشمال عند مدين تسعة آلاف قدم ، ويشمخ في الحجاز جبل السراة الذى يبلغ عشرة آلاف قدم وفي اليمن جنوبا اثنى عشر الف قدم وتنحدر الارض انحدارا تدريجيا نحو الشرق ، وانحدارا فجائيا قصيرا نحو الغرب حيث البحر الاحمر .[1] .

---

(١) انظر الهمداني ـ صفة جزيرة العرب ص ٦٧ ط ليدن وقد افدنا فى هذا الفصل من جملة مراجع حديثة اهمها : جزيرة العرب ـ حافظ وهبة وتاريخ العرب ـ =

وترتفع هضبة نجد في المنطقة الشمالية الوسطى حوالي ٢٥٠٠ قدم وفيها سلسلة جبال تعرف بجبال شمر ، واهم قممها جبل أجـأ وهو من الغرانيت الاحمر ويبلغ ارتفاعه ٥٥٥٠ قدما فوق سطح البحر ، وهناك جبال اخرى تمتد وراء السهول الساحلية من جهات الجزيرة الثلاث تتفاوت في الارتفاع اعلاها الجبل الاخضر الذي يبلغ ٩٩٠٠ قدم وهو الموضع الوحيد المرتفع من الناحية الشرقية اذ ان المنطقة الشرقية هي منطقة الانحدار .

اما بقية الارض غير الجبال والهضاب فانها في الغالب صحـارى ودارات ، والدارات سهول رملية مستديرة بين التلال تستقر تحت سطحها المياه ، منهـا بادية الشام التي يعرف قسمها الجنوبي بالحمـاد ، وكذلك بادية العراق التي تعرف ببادية السماوة .

وتتميز الصحراء العربية بثلاثة انواع من الاراضي هي :

اولا : النفود :

وهي بادية متسعة تزيد رقعتها على مائة الف كيلومتر مربع ذات رمال متموجة بيضاء تضرب الى الحمرة تسفيها الرياح فتجعل منهـا كثبانا او تلالا تغطي الجزء الشمالي من الجزيرة بين نجـد وبادية الشام وبين نجد والاحساء وفي جنوب الجزيرة في الربـع الخالي ، ويمكن تحديد النفود[1] بوادي السرحان شمالا ، وجبلي أجـأ وسلمى (جبل شمّر) جنوبا وتقع واحـة تيماء في الجنوب الغربي من صحراء النفـود

= جواد علي الجـزء الاول . وتاريخ العرب فيليب حتى وجرجى وجبور ١/١٥-٢٧ ومحاضرات في تاريخ العرب ـ صالح احمـد العلي ١/١٣-١٥ وتاريخ الجاهلية ـ عمر فروخ ص ٢٦-٣٦ .

(١) النفود او النفوذ بالذال المعجمة : التي يصعب اجتيازها والطريق النافذ هو الطريق السالك . انظر اللسان والقاموس : نفذ .

ومدينة حائـل في الجنوب الشرقي . وهي على العموم جافـة الا في مناطق قليلة هي الواحات التي تصيبها الامطار احيانا فتنبت فيها المروج الخضر فيكثر خيرها وترعاها ابل البادية وانعامها .

ثانيا - الدهناء :

وهي ارض ذات رمل ناعم لا تصلح للنبات ولو سقطت عليها الامطار ، تحتل وسط الجزيرة على شكل قوس كبير يمتد من الشرق حتى الغرب ، وتنحصر الدهناء بين النفود شمالا والربع الخالي جنوبا ، والربع الخالي جزء من الدهناء منحصر بين عمان شرقا واليمن غربا ، وقد عرف الجانب الغربي من الدهناء باسم الاحقاف[1] .

وتصيب الامطار هذه المنطقة في الشتاء ، فتنتشر فيها الخضرة وترعاها الماشية ، اما في الصيف فتقفر الارض ويصيبها الجدب فلا تصلح للحياة . اما الربع الخالي فما زال مجهولا والمعلومات عنه قليلة ، وقد قام برترام توماس بمحاولة - سنة ١٩٣١ - لقطعه واجتيازه من البحر العربي نحو الخليج واستغرقت رحلته ثمانية وخمسين يوما ، ووصف رحلته هذه في كتابه (العربية السعيدة)[2] فذكر الرمال المغردة التي كان العرب يظنونها اصوات الجن ، واكتشف

---

(١) الحقف : المعوج من الرمل او الرمل العظيم المستدير أو المستطيل المشرف . انظر اللسان والقاموس والتاج مادة (حقف) وهو منطقة الشحر قرب حضرموت اليمن ، وفي الاحقاف منازل عاد وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم وباسم (الاحقاف) سميت السورة قال تعالى : (واذكر اخا عاد اذ انذر قومه بالاحقاف) سورة الاحقاف ٢١ وأخو عاد هو هود عليه السلام .

(٢) Bertram Thomas :
Arabia Felix Across The Empty Quarter of
Arabia (New York 1932)

بحيرة من المياه المالحة عرفت فيما بعد انها من متفرعات خليج العرب جنوبي قطر .

ثالثا - الحرار :

الحرار جمع حرة وتسمى اللوبة او اللابـه ، ارض ذات حجارة نخرة سود تتكون من الحجارة والمعادن المصهورة التي تسيل من البراكين[1] ،وتكثر الحرار في المناطق الغربية والوسطى من الجزيرة وتتجه نحو الشمال حتى حوران الشرقية ، وفي معجم البلدان ذكر لحرار كثيرة تبلغ الثلاثين واشهرها حرة المدينة التي نشبت فيها وقعة الحرة المشهورة سنة ٦٣هـ وتعرف بحرة النار قرب خيبر ، ويقال بل حرة واقم التي تنسب اليها وقعة الحرة[2] . ومن الحرار المشهورة في الجزيرة : الخدرية حرة لبني سليم ، وحرة واقم في المدينة وحرة ليلى بديار قيس وحرة الحوض بين المدينة والعقيق وحرة شوران وغيرها[3] وهناك حرار كثيرة منبثة في وسط الجزيرة وغربيها تصعد الى الشمال حينا وتهبط الى الجنوب في حين آخر ، ويقال ان البراكين التي قذفت هذه الحمم والحجارة كانت تثور بين آونة واخرى فتقذف بنيرانها ، وكان آخرها في الاسلام في عهد عمر سنة ١٩هـ فأمر عمر بالصدقة فتصدق الناس فانطفأت[4] .

هذه انواع الصحاري في بلاد العرب ،وفي وسط هذه الصحاري

---

(١) لسان العرب والقاموس المحيط (حرر)

(٢) ياقوت ـ معجم البلدان (حرر)

(٣) المصدر السابق ومعجم ما استعجم ـ البكري ٢/٤٣٠-٤٣٨ والقاموس واللسان (حرر)

(٤) ابن الاثير ـ الكامل في التاريخ ٢/٢٣٨ ط القاهرة ١٢٩٢هـ

والدارات تنفسح هضبة نجـد التي تتكون من طبقـة من الحجارة الكلسية تتخللها بعض البقع الرملية[1] .

هذا التقسيم الذي شهدناه من حيث طبيعة الارض، اماالتقسيم الذي اصطلـح عليه الجغرافيون من حيث اثر البيئة الجغرافيـة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، فانهم يقسمون بـلاد العرب الى المناطق او الاقاليم الخمس التي هي :

١ - الحجاز :

وارضه جبلية خصبة كثيرة المياه ، وبها وديان كثيرة اشهرهـا وادي القرى بين العلاء والمدينة . والقسم الشمالي من الحجاز يسمى ارض مدين وكانت تسكنها جذام[2] وارض حسمى وبها آثار لامم بادت ومن جبالها ارم الذي ورد ذكره في القرآن كما يرجح[3] وتكثر في الحجاز المواضع البركانية والحرات ، وتنتشر فيه الآبار والعيون وبخاصة في القرى والمدن حيث يحدث الخصب والزرع ، مثل يثرب او المدينة كما سميت حين دخلهـا الرسول الكريم ، ووادى القرى شمالي يثرب ، ومثل مدينة قرح التي كانت تقوم فيها سوق عظيمة في الجاهلية ، وكذلك مدينـة الحجر او مدائن صالح وقومه ثمود ، وحول المدينة قرى ذات زرع سكن اكثرها اليهود مثل خيبر وفدك، وقد سكنت هذه المنطقة بعض القبائـل العربية قبل الاسلام مثل عذرة وبلي وجهينة ، اما قضاعه فكانت عشائرها منتشرة نحو الشمال حتى شبه جزيرة سيناء . ومن مدن الحجاز المهمة مكة ذات المركز

---

(١) تاريخ العرب فيليب حتي ١/١٩

(٢) اللسان (جذم)

(٣) ياقوت ـ معجم البلدان ٣/٢٧٧

التجاري والديني ، وفي جنوبي مكة الطائف وهي مصيف المكيين منذ القديم وتبعد عن مكة حوالي خمسة وسبعين ميلا ، والطائف عند جبل غزوان وتحيط بها اودية وآبار كثيرة .

٢ - تهامة :

وهي المنطقة الساحلية الممتدة على البحر الاحمر او بحر (القلزم)، وتسمى الغور او السافلة لانحدارها[١] وتعرف في الجنوب بـ (تهامة اليمن) وهي ارض رملية شديدة الحرارة ، وفي تهامة بعض الثغور والمرافئ، مثل الحديدة في اليمن، وجدة وينبع في الحجاز، وشمالي الحجاز ثغر صغير يعرف بالوجه ويقال انه ثغر مدينة الحجر المعروفة الآن بمدائن صالح ، وفي جنوبي الوجه قرية الحوراء . وتمتد جبال السراة شرقي تهامة من الشمال الى الجنوب فاصلة بينها وبين هضبة نجد ومؤلفة اقليم الحجاز .

٣ - اليمن :

وتشمل اليمن مدنا كثيرة منها حضرموت ومهرة والشحر وظفار وعمان ، وبهذا كان الجنوب كله يدعى اليمن ، وقد يخصص بالزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة وهي بلاد اليمن المعروفة الان، ويعرف القسم الساحلي بتهامة اليمن ، تفصل بينها وبين هضبة اليمن جبال هي امتداد لسلسلة جبال السراة ، وفي اليمن كثير من الاودية والسهول والاراضي الخصبة التي ترويها الامطار الموسمية ، وبذلك عمّ فيها الخير وقامت حضارتها منذ القديم حتى جاء وصفها في القرآن الكريم : (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال

(١) معجم البلدان ٢/٤٣٧ و ٦/٢١١

كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدةً طيبة ورب غفور)[1] ، ومن أشهر أودية اليمن الخصبة تبالة ، وبيشة المشهورة بالاسود والمنسوبة اليها فقالوا : (أسد بيشة) . وتعرف المنطقة الشمالية من اليمن المجاورة للحجاز باسم عسير وفيها منازل بجيلة في الجاهلية ، ومن مدن اليمن المشهورة صنعاء وعدن ونجران وظفار وزبيد .

٤ - العروض :

وهي صحار وسهول ساحلية وتشمل اليمامة[2] والبحرين وما والاها وقطر ومنطقة الاحساء والقطيف وفيها كثير من العيون[3] وفي الجنوب الغربي من القطيف تقع (العقير) وهي ميناء صغير[4] وعلى مقربة منها تقع (الجرعاء) وهي مدينة تجارية قديمة وسدوس ومنفوحة ويظن ان موطن قبيلتي طسم وجديس البائدتين في هذه المنطقة ،وتمتد البحرين من البصرة الى عمان وبها منازل قبيلة عبدالقيس في الجاهلية . ومن اعمال عمان صحار ودبا وكانت تقام فيها سوق مشهورة في الجاهلية، وتشمل العروض منطقة الكويت الحاضرة وكانت تعرف بكاظمة، ومن المدن القديمة هجر المشهورة بكثرة تمرها حتى قالوا في الامثال: (كجالب التمر الى هجر) اما الخط التي تنسب اليها الرماح الخطية فهي القطيف نفسها .

٥ - نجد :

تقع نجد وسط الجزيرة وتشمل وادي الرمة ، وما حاذى الحجاز

---

(١) سورة سبأ ١٥.

(٢) وقد عدها ياقوت في نجد كما سيأتي انظر معجم البلدان ٨/٥١٦ .

(٣) جزيرة العرب في القرن العشرين ــ حافظ وهبة ص ٦٨ ط لجنة التأليف ١٩٤٦م

(٤) المصدر السابق ص ٧٢ ــ ٧٣

وتهامة من نجد يعرف بنجد العالية ، وما جاور العراق منها يعرف بنجد السافلة ، والمنطقة الشرقية منها عند اليمامة تعرف باسم الوشوم اما شماليها الى جبلي طيء (أجأ وسلمى) فيعرف باسم القصيم وهو الرمل الذي ينبت فيه الغضا ، والغضا ضرب من الأثل واليه ينسب اهل نجد فيسمون اهل الغضا ، وتشمل نجد اليمامة عند ياقوت[1] وتسمى بـ (جوّ) ومركزها حجر وهي موطن طسم وجديس ومن مدنها منفوحة وبها قبر الأعشى الشاعر، وسدوس وهي مدينة قديمة.

وتنفسح ارض نجد من الشمال على بادية الشام التي تكثر فيها الاودية والواحات ، وبادية العراق او بادية السماوة ، وتفصل بينهما وبين نجد صحراء النفود الواسعة ، اما من الناحية الشرقية فتكون صحراء النفود فاصلا بين نجد وبين البحرين وتسمى هنا الدهناء او (رملة عالج) وهي منازل تميم وضبّة في الجاهلية والاسلام.

المناخ :

مناخ الجزيرة بعامة جاف حار قليل المطر صيفا ، وبارد شديد البرودة شتاء ، وعلى الرغم من ان البحار تحيط بالجزيرة من جوانبها الثلاث ، فان جو الجزيرة بقي جافا حارا ، فرياح السموم التي تهب صيفا تمتص الرطوبة قبل ان تتمكن من التوغل داخل الجزيرة ، فلذلك لم تستطع هذه البحار تلطيف جو الجزيرة ، اللهم الا سواحل المحيط الهندي التي تسقط عليها الامطار التي تحملها الرياح الموسمية في الصيف وخاصة في اليمن. اما الحجاز فالأمطار فيه قليلة ، وقد

(١) معجم البلدان ٥١٦/٨

يستمر الجفاف اكثر من موسم، واذا جاءت الأمطار في بعض المواسم فقد تأتي غزيرة تنشأ منها السيول، ويتحدث البلاذري عن سيول مكة فيخصص لها فصلا في كتابه فتوح البلدان[1]، وامطار الحجاز تحملها الرياح الغربية التي تهب من الناحية الغربية الشمالية وهي أمطار شتوية، اما المناطق الداخلية الوسطى فأمطارها قليلة ولذلك صارت أمطار نجد عزيزة يتمناها الناس فأسموها غيثا.[2]

واهم المناطق التي ينزل عليها المطر مدرارا، اليمن وعسير، فاكتست لذلك ارضها بالخضرة وانتظمت الزراعة فيها وامتلأت اوديتها بالمياه. اما اقاليم الجزيرة الوسطى وجبل شمّر فتسقيها الامطار المتأتية من مياه الخليج العربي وكذلك عُمان في الجنوب الشرقي من الجزيرة فان الامطار تسقط فتسقى الارض الزراعية الخصبة.

وحين ينقطع مدد السماء عن الجزيرة وتحتبس الامطار، يعم الجدب والجفاف ويحل المحل والهلاك ولذلك سمى الجدب سنة بالنسبة للموسم فيقولون (اصابتنا سنة اتت على الأخضر واليابس). وقد دفعتهم قلة الامطار الى النقلة ـ وخاصة في نجد ـ في طلب العشب والكلأ والماء.

ومن هنا نجد ان الزراعة المنتظمة التي تعتمد على الامطار الموسمية هي في المناطق الساحلية الجنوبية والشرقية، وهي في مناطق الحضر المستقرين، على نقيض المناطق الشمالية التي تعتمد على المراعي، وقد

---

(١) ص ٥٣ ـ ٥٥ ط ليدن ١٨٦٦ م

(٢) واسموها جودا وحياً لما في ذلك من معنى العون والنصرة والخير والكرم والحياة،

قام الاستقرار في المناطق الشمالية في الواحات المنتشرة في انحاء من الجزيرة[1] وبعض المدن التي تكثر فيها الآبار والمياه الجوفية، ويمكننا أن نعزو سكن كثير من القبائل الكبيرة في نجد الى هذه الواحات والمياه الجوفية، حيث يمتد وادي الرمة ذو المياه الجوفية في قلب نجد. وكذلك يعود الفضل في خصوبة حضرموت وزراعتها الى الاودية العميقة التي تحوي المياه في باطنها. فالجزيرة وان حرمت من الانهار الجارية، فانها تسقى من العيون الثرة والمياه الجوفية والوديان التي تملؤها السيول شتاء، وما تجود عليها السماء من مطر غزير في السواحل، عزيز قليل في نجد والحجاز. ولم تعدم قمم الجبال من الاجواء الباردة التي ربما جمد الماء فيها كما هو معروف عن جبل غزوان بجوار الطائف[2]، وقد تسقط الثلوج في صنعاء شتاء، كما تسقط على قمة جبل حضور الشيخ في اليمن[3].

وقد رسمت هذه الوديان[4] والآبار ومواقع الواحات اتجاه الطرق لقوافل التجارة والمواصلات، فالقوافل عادة تتبع طرق المياه وتحاذيها وبذلك كان طريق العراق محاذيا وادي الرمة مارا ببريدة في نجد،

---

(١) الواحات هي الدارات التي يكثر ذكرها في الشعر الجاهلي كدارة جلجل ودارة الارام والابرق وغيرها والدارة كل ارض واسعة بين جبال، ويصف الشعراء الدارات على ان فيها مياها غامرة يقصدونها للهو والشرب كما نعرف من وصف امرىء القيس لدارة جلجل ودمون ودارات العرب كثيرة احصى الفيروز ابادي اكثر من مائة وعشر. انظر القاموس المحيط (دارة) ٣١/٢ .

(٢) مسالك الممالك ص ١٩ ط ليدن ١٨٧٠م

(٣) تاريخ العرب – فيليب حتي ٢١/١

(٤) يرجح الدكتور صالح العلي ان هذه الوديان كانت في الازمنة القديمة مجاري انهار . محاضرات في تاريخ العرب ١٤/١ ط ٣

أما طريق الشام فيمر بوادي سرحان متاخما لساحل البحر الاحمر ، وهناك خطوط اخرى معظمها ساحلية حول الجزيرة ، وبعضها داخلية تخترق الجزيرة من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي متابعة الواحات الوسطى ومبتعدة عن مناطق الجفاف والربع الخالي على الخصوص[1].

نبات الجزيرة :

ان طبيعة المناخ هذه بما فيها من جفاف الهواء وقلة المياه وملوحة التربة ، لم تساعد النباتات على النماء والازدهار والانتشار ، ولذلك توزعت النباتات في الاماكن الخصبة ذات العيون والامطار . وأهم نبات الجزيرة هو النخل الذي يكثر في الحجاز ، وتمر النخيل أو البلح هو أهم طعام البدوي واكثره ، فان قوام الحياة في البادية هو التمر واللبن وفي القليل لحم الابل ، فالتمر هو الطعام الصلب الوحيد الذي يتناوله ابناء الجزيرة[2] ، وبحسب البدوي الاسودان : الماء والتمر ، ونوى التمر يسحق ويصنع منه اقراص لعلف الابل ، ومنه يصنع النبيذ وخاصة في الطائف .

اما الحبوب فيزرع الشعير في وادي القرى وفدك وخيبر والمدينة ، وتكثر الحنطة في اليمن واليمامة وبعض الواحات ، وتزرع الذرة في عسير ، والارز في عمان والحسا .

وموطن الافاوية في اليمن ، كالمر والمر المكاوي وأنواع البخور والطيب . وينمو شجر اللبان على الهضاب المحاذية للساحل الجنوبي ولا سيما في مهرة . ويكثر الصمغ في عسير ، اما شجرة البن فقد

---

(١) تاريخ العرب ـ فيليب حتي ٢١/١

(٢) عيون الاخبار ـ ابن قتيبة ٢٠٩/٣ـ٢١٣ ط القاهرة ١٩٣٠ .

دخلت اليمن من الحبشة في القـرن الثامن الهجري وتسمى خمـر الاسلام[1] .

وتنمو في الجزيرة انواع اخرى من النباتات منها الطلح الذي ينتج الصمغ العربي ، والغضا الذي منه الفحم الجيد، والسمح الذي تطحن حبوبه فتصنع منه العصيدة . أما الكروم فموطنها المشهور الطائف حيث اشتهرت بالنبيذ المعروف بنبيذ الزبيب . وفي المدن الساحلية وبعض الواحات تنمو الفواكه كالرمان والتفاح والمشمش والمـوز والبرتقال والليمون الحامض والبطيخ وكذلك قصب السكر[2] .

وتنمو الاشجار الصحراوية في بادية نجد كالطلح وهو شجر عظام ترعاه الابل ، والدوم وهو شجر المقـل ، والسدر البري أو الضال ، والسلم والأرطى ، وهناك اشجار ضخمة من الأثل وهي الطـرفاء والشوحط والشريان والنبع والغرب، ويتخذ من هذه الاشجار القسي والسهام ، اما الأراك فهـو شجر من الحمض تتخـذ منه المساويك وتتفكه به الابل بعد أن تشبع لما فيه من ملوحة ومرارة وللأراك ثمـر يدعى الكباث . ومن نبات البـادية ايضـا الشيح والقيصوم والعرمض وهو صغـار شجر الاراك والسدر ، ومن مراعي الابل اللذيذة السعدان والبرسيم وهو حب القـرظ وهو نوع من كراث المائدة وكذلك الفقع وهو نوع من الكمأة[3] ومن الاصباغ النيل

(١) الكواكب السائرة ـ نجم الدين الغزي ١/١١٤ ط بيروت ١٩٤٥

(٢) تاريخ العرب ـ فيليب حتى ١/٢٢ـ٢٣

(٣) تاريخ الجاهلية ـ عمر فروخ ص ٣٣ ط بيروت ١٩٦٤

والورس والحنـاء . ويستعمل الحنظـل وهو نبات صغير مرّ يشبه البطيخ، لدبغ الجلد وكذلك القرظ وهو ورق شجر السلم، ويستعمل الاشنان في التنظيف كالصابون ، ويستعمل نبات السنا دواء مسهلا. ومن النباتات الطيبة الرائحة الآس والعرار وهو بهار البر - زهر بري أصفر - والخزامى وشقائق النعمان وغيرها .

الفصل الأوّل

عرب الجاهلية

أريد هنا أن أقف عند نقطتين اراهما على قدر كبير من الاهمية ، اولاهما : الجاهلية حدها ومفهومها . والثانية: أهل هذه الجاهلية من عرب وأعراب والفرق بينهما ، فقد اضطرب مفهوم الجاهلية في كثير من كتابات الكتاب والباحثين ، وراح فريق من النـاس يخلط في هذا المفهوم ويضيف اليه ماليس له ، ويصمه بما ليس فيه، حتى غدت صورة الجاهلية في الاذهان صفة للجهل والجور والبدائية . ولا شك ان ثمة كثيرا من الدوافع املت على الناس ان يفسروا الجاهلية هذا التفسير ، من ذلك العصبية الدينية والعصبية العرقية .

وكذلك اضطرب الناس وخلطوا بين معنى العرب والأعراب، فنجد أن اسم الاعراب ومدلوله يطلقان على العرب ، ومعنى العرب ينصرف الى الاعراب والبدو الجفاة . وهذا الخلط قديم ، تجده عند ابن خلدون وغير ابن خلدون ممن كتبوا عن العرب وبحثوا في حياتهم ، سواء في ذلك عرب الجاهلية أم عرب الاسلام .

وأحاول هنا أن احدد هذه المفاهيم واوضح دلالاتها على ضوء النظرة الاسلامية مستأنسا بآراء الكتاب القدامى والمحدثين :

(١)

الجاهلية :

يطلق لفظ الجاهلية على عهد ما قبل الاسلام، وقد افتن المتعصبون من المسلمين وغير المسلمين في ذمها واطلاق شتى النعوت التي يراد بها الانتقاص والتهوين من امر ذلك العهد حتى ليخيّل للناظر في اقوالهم ان الباطل كان سمة العصر والضلال طابعه فقالوا: انه الزمان الذي كثر فيه الجهال[1]، وهو عهد الجهل الذي لا علم فيه أو حرم اهله من أن يجيدوا ضربا منه وان قل شأنه، وقد قسم الالوسي ذلك الجهل الى جهل بسيط وجهل مركب فقال : (فأما من لم يعلم الحق فهو جاهل جهلا بسيطا فأن اعتقد خلافه فهو جاهل جهلا مركبا، فان قال خلاف الحق عالما بالحق أو غير عالم فهو جاهل ايضا كما قال تعالى : « واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » وقال النبي صلى الله عليه وسلم (اذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل)[2] ومن هذا قول عمرو ابن كلثوم في قصيدته :

ألا لا يجهلن احد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

أي لا يسفه احد علينا فنسفه عليهم فوق سفههم اي نجازيهم بسفههم جزاء يربى عليه ... وكذلك من عمل الحق فهو جاهل وان علم انه مخالف للحق، كما قال سبحانه : « انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ».

فعنده ان الجاهلية العهد الذي فيه الجهل وفيه الضلال الذي هو

(١) محمود شكري الآلوسي ـ بلوغ الارب ١/١٥
(٢) المصدر السابق ١/١٦

عدم الحق وعدم معرفة الحق ، ولذلك يفسر وفق هذا الفهم قول الله تعالى في الجاهلين وقوله في الجهالة وان كانت الآيتان لا يراد بهما المعنى الذي ذهب اليه الالوسي ، وكذلك توجيهه لبيت عمرو ابن كلثوم الى السفه مع ان البيت ينصرف الى الظلم . وقد افتن كذلك الاستاذ احمد امين في اختيار اقسى الالفاظ وأوحشها لرجم الجاهليين : بالسفه والغضب والأنفة فيفسر الآية الكريمة : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما »[1] وفق معناه الذي يريد ، ولا يفوته ان يستفيد من قول عمرو ابن كلثوم :

ألا لا يجهلن احد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ليصف حياة العرب في ذلك العهد بانها مصداق للكلمة (جاهلية) فهي انفة وخفة وحمية ومفاخرة وسفه .[2]

وكذلك ذهب كاتب مقال مادة جاهلية في دائرة المعارف الاسلامية فيزعم ان المعنى الدقيق لكلمة (جاهلية) هو زمن الجهل ... اما الاسلام فهو زمن النور والمعرفة ، وجهل ضد علم ووردت بهذا المعنى كثيرا في اللغة القديمة ووردت اكثر في الازمنة القريبة من الاسلام من ذلك قول عنترة في معلقته :

هلاّ سألت الخيل يا ابنة مالك

ان كنت جاهلة بما لم تعلمي

على ان واقع حال العرب قبل الاسلام يفنّد ما ذهب اليه اولئك

---

(١) سورة الفرقان ٦٣

(٢) احمد أمين ـ فجر الاسلام ص ٦٩

جميعا ، فليس من المعقول ان يقصد بالجاهلية معناها اللفظى الذي هو الجهل ضد العلم والفهم ، فيذهب اولئك يتصيدون كل ما ورد من مادة جهل في الشعر والقرآن والحديث وكلام العرب، لأن من كانت صفاتهم صفات العرب قبل الاسلام، لايصح ان يكونوا ابناء جاهلية جهلاء. وعندهم الحضارة العريقة الممتدة فى اعماق الزمان ، ولهم ذلك الفن القولي الممتاز متمثلا في الشعر والخطابة والامثال والرسائل والحكم المأثورة . وفي اكبر الظن ان الكلمة حين اطلقت في اول الامر اريد بها الدلالة على شيوع عبادة الأوثان بينهم ، فلا شك ان من العرب من كان يركع لصنم وينحر لنصب ، ومنهم من عبد كوكبا او اعتنق المجوسية والصابئية دينا ، او كانوا من اصحاب الدهر ، وقد اشار القرآن الكريم في عدة مواطن لذلك ، فالجاهلية على هذا اذا قصدت فان معناها ينصرف الى تلك الوثنية السائدة قبل شريعة الاسلام .

ويذهب معنى الجاهلية من جهة اخرى - غير الدين - الى تلك الحالة الخلقية التي كانت حاضرة في نفوس العرب ، والاعراب منهم بصورة خاصة ، جماعها الغلو في تقدير الامور والاسراف وسرعة الغضب ، فقد كان من العرب من يفرط في الكرم حتى يغدو سرفا وتبذيرا ، ويغلو في الشجاعة حتى تعود حماقة وتهورا ، ويجاوز معنى النجدة الى الظلم . فالكلمة اذن تنصرف الى معنى الجهل الذي هو مقابل الحلم وليس ضد العلم ، ومن هذا قول الشنفرى في لامية العرب :[1]

(١) اعجب العجب فى شرح لامية العرب ـ الزمخشري ص ٤٨

ولا تزدهى الأجهال حلمي ولا أرى

سؤولا باعقاب الاقاويل أنمل

والى هذا المعنى يذهب عمرو بن كلثوم في معلقته في البيت المقدم ذكره :

الا لايجهلن احد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقد يتضمن معنى الظلم ايضا . ويعزز هذا المعنى الذي نريد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من استجهل مؤمنا فعليه اثمه) قال ابن الاثير يبيّنه : (اي من حُمل على شيء ليس من خلقه فيغضبه فانما اثمه على من احوجه الى ذلك)[1] .

وقد غدت الجاهلية تثير في نفوس المسلمين شعورا بكراهية عهد وثني مملوء بالظلم والآثام ، فهذا الرسول الكريم يسمع ابا ذرّ يعير رجلا بأمه فيقول مؤنبا ومعاتبا : (انك امرؤ فيك جاهلية)[2] اي فيك روح الجاهلية وطيشها، تغضب فلا تحلم ولا تصبر ولا تسامح، على انه من الحق ان نذكر ان العهد الجاهلي عرف كثيرا من الناس وُصِفوا بالحلم والصبر والتسامح والحكمة، ولا يبعد عنا ذكر قيس ابن عاصم وحلمه، وهرم بن سنان وطيبته وزهير بن ابي سلمى وحكمته وغيرهم كثير، حتى ان الرسول عليه الصلاة والسلام ليذكر السجايا النبيلة والحياء والمروءة التي تمثلت باعرابي جاهلي مثل عنترة ، فيقول: (ما وصف لي اعرابي قط فاحببت ان اراه الا عنترة) وكان الرسول الكريم قد انشد قول عنترة :

---

(١) النهاية في غريب الحديث ١٩٢/١

(٢) المصدر السابق

ولقد ابيت على الطوى واظله   حتى انال به كريم المأكل[1]

وفي عموم القول ان المراد من معنى الجاهلية ما يتمثل في الذهن من مفهوم ديني ، فعهد الجاهلية كان قائما على الشرك والوثنية وفيه ضلال وظلم وظلمات ، واما العهد الاسلامي فعلى نقيضه ، هو هداية ونور ، ومصداق ذلك قول الله تعالى : (ليخرجكم من الظلمات الى النور)[2] وقد وردت (الجاهلية) في القرآن الكريم ويراد بها الحط من القيم الخلقية والاعتقادية لذلك العهد ، قال سبحانه : (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية)[3] وقوله : (أفحكم الجاهلية يبغون ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون)[4] وقوله : (وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى)[5] وقوله : (إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية)[6] وقريب من هذا قول الرسول في حديث الافك : (ولكن اجتهلته الحمية)[7] .

اما فترة الجاهلية فيحددها بعض المستشرقين بانها : (الاسم الذي يطلق على ما كانت عليه جزيرة العرب قبل ظهور الاسلام ، او بعبارة اخص ، الاسم الذي يطلق على الفترة التي خلت من الرسل بين عيسى ومحمد)[8] وقد اخذ الكاتب هذا القول من الآلوسي[9] دون اشارة

---

(١) الاغاني ٢٤٣/٨

(٢) الحديد ٩

(٣) سورة آل عمران ١٥٤

(٤) المائدة ٥٠

(٥) الاحزاب ٣٣

(٦) الفتح ٢٦

(٧) النهاية في غريب الحديث ـ ابن الاثير ١٩٢/١

(٨) فير ـ دائرة المعارف الاسلامية مادة جاهلية

(٩) الآلوسي ـ بلوغ الارب ١٥/١

لذلك ويزيد الآلوسي بانها ايام الفترة (وهي الزمن بين الرسولين وقد تطلق على زمن الكفر مطلقا ، وعلى ماقبل الفتح ، وعلى ما كان بين مولد النبي والبعث) وفي قول عن ابن خالويه : ان هذا اللفظ حدث في الاسلام للزمن الذي كان قبل البعثة . ويحدد نهايـة هذا العهد فتح مكة لا البعثة[1] .

على اننا اذا اخذنا الجاهلية على انها نزعات ومثل وتقاليد، فانها قد استمرت في نفوس كثير من المسلمين بعد فتح مكة ، وقد عادت جذعة فتمثلت في الردة وفي العهد الاموي وما وليه من عهود ، بل نستطيع القول ان كثيرا من عاداتنا ومآتينا الحاضرة إنْ هي الا من آثار الجاهلية ، اما ضابط آخر العهـد فتح مكة فيعنى ان الاسلام قد تمكن من القضاء على اقوى خصومـه وأعظم خطر يهـدد الدين ومثله العليا .

(٢)

العرب والاعراب :

جاء الاسلام دين بشرى وهدى وايمان ، جاء رحمة للناس وأمنا ، فقد ايقـظ الجزيرة العربية من غفوة المت بهـا ، فنهضت بالاسلام لتلبس - وتلبس الناس معها - ثوب العدل والخير والايمان ، يجدد لها عمرها ورسم لها طريقها و كتب لها عهدا مجيدا . وعلينا هنا ان نتبين اهل ذلك العهد الذين ضمهم الاسلام وهداهم سواء السبيل، ونجلو لبسا

(١) الآلوسي - بلوغ الارب ١/١٥

حاصلا وغشاوة مربكة ، ان نفرق بين كلمتين كثيرا ما يقع الخلط بينهما والوهم في استعمالهما ، والكلمتان هما : العرب والاعراب ، فما حد كل منهما ؟

يستعمل القدماء احيانا كلتي العرب والاعراب في حالة ترادف ، وترد الواحدة مكان الاخرى ، وقد تعمم كلمة العرب فيراد بها الاعراب ايضا ، قال الجوهري : (العرب جيل من الناس وهم اهل الامصار ، والنسبة الى العرب عربي والى الاعراب اعرابي ، والذي عليه العرف العام اطلاق لفظ العرب على الجميع)[1] ويقول الآلوسي عن ابي العباس احمد بن عبدالله : (ان العرب اهل الامصار والاعراب سكان البادية وفي العادة يطلق لفظ العرب على الجميع)[2] .

ويكاد الاجماع ينعقد على ان العرب هم سكان الحاضرة والاعراب هم سكان البادية ، فيذكر الآلوسي ان شيخ الاسلام احمد بن تيمية فى كتاب (الاقتضاء) يقول : (ان لفظ الاعراب هو في الاصل اسم لبادية العرب ، فان كل امة لها حاضرة وبادية ، فبادية العرب الاعراب ، وقد يقال : ان بادية الروم الأرمن ، وبادية الفرس الاكراد ، وبادية الترك التتر ونحوهم[3] . ويذكر ايضا قول اهل التفسير بأن العرب سكان المدن والقرى ، والاعراب سكان البادية من هذا الجيل أو مواليهم . ويوضح هذا ويحدده ما جاء في التنزيل قوله تعالى : (وجاء المعذرون من الاعراب

---

(١) الصحاح مادة عرب وكذلك القاموس المحيط للفيروزابادي

(٢) بلوغ الارب ١/١٢

(٣) نفس المصدر والصفحة

ليؤذن لهم)[1] وفي قوله تعالى: (وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن اهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم)[2] فبدوية الاعراب واضحة بانهم (حولكم) ومقابلتها بـ (اهل المدينة) تعين ذلك .

ومن الطبيعي ان العقلية البدوية لا يمكن ان تدرك وتستوعب الدين الجديد بسهولة ويسر ، لطبيعة الحياة القاسية التي يحياها الاعراب ، ولذلك كان موقفهم من الدعوة موقف المستخف غير الملتزم بتعاليم الاسلام . ولذلك كثر المرتدون بينهم والناكثون بالعهود والذين يتربصون بالمسلمين الدوائر ، والقرآن يحكم فيهم بقوله : (الاعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم ، ومن الاعراب من يتخذ ماينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم)[3] .

هؤلاء الاعراب وقفوا من الدين الاسلامي بالذهنية المتعصبة المغلقة التي لا تدرك معنى الدين وامر الرسالة وقد لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيلهم الجهد والعناء ، فكانوا يمنون عليه اسلامهم ، قيل : قدم عشرة رهط من بني اسد على رسول الله صلى الله عليه وسلم في اول سنة تسع للهجرة فيهم حضرمي بن عامر وضرار ابن الازور ، فقال حضرمي : (يا رسول الله أتيناك نتدرّع الليل البهيم في سنة شهباء ولم تبعث الينا بعثا) فنزل فيهم قوله تعالى : (يمنّون عليك ان اسلموا قل لا تمنّوا عليّ اسلامكم بل الله يمن

(١) سورة التوبة ٩٠
(٢) التوبة ١٠١-١٠٢
(٣) التوبة ٩٧-٩٨

عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين)[1] ، وقد دخل كثير من الاعراب في الاسلام لحاجتهم الى العطاء لارغبة في الايمان، فقد جاء في الاخبار: أن نفرا من بني اسد ثم من بني الحلاف بن الحارث قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة في سنة جدبة ، فاظهروا شهادة ان لا الـه الا الله ، ولم يكونوا مؤمنين في السر ، وافسدوا طريق المدينة بالعذرات ، واغلوا اسعارها ، وكانوا يغدون ويروحون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقولون : (اتتك العرب بانفسها على ظهـور رواحلهـا ، وجئناك بالاثقال والعيـال والذراري - يمنون على رسول الله صلى الله عليه وسلم - ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فـلان ...) ويريدون الصدقة ويقولون : اعطنا . فأنزل الله سبحانه فيهم : (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا) الآيات[2] وقد كانت الاعراب تبطىء على الرسول ولا تجيبه اذا دعاها الى الجهاد ، فكان قد استنفرهم الى الحديبية فتخلفوا عنه ، وخرج مع رسول الله المهاجرون والانصار ومن لحق به من العرب[3] .

وما كانت الاعراب - الا القليل - تنظر الى الرسـول النظرة الدينية التي تراها العرب ، بل كانوا يعدونه رجلا اوتي السلطان على العرب ، فيطيعونه على انه رئيس مقتدر لا نبي مرسل .

وفي هؤلاء الاعراب كان المتعصبون من الكتاب ومن المستشرقين

(١) الحجرات ١٧ وانظر النويري - نهاية الارب ١٨/ ٣٠

(٢) الحجرات ١٤ ونهاية الارب ١٨/ ٣١

(٣) المصدر السابق

يوسعون القول والتقوّل حتى يسحبوا مفهوم الاعراب على كل العرب ، وهؤلاء غير اولئك . ومن هنا كان غلوّ أوليري[1] وابن خلدون[2] وغيرهم ممن اعتبروا الاعرابي بوصفه الذي جاء في القرآن ممثلا لمواطن الجزيرة العربية كلها ، غير ملتفتين الى سكان الامصار والقرى ، واهل الدعوة والحضارة ، وحملة العلم والعمران من العرب .

على انه حتى في اولئك الاعراب من يؤمن بالله خالص الايمان وينفق في سبيله مبتغيا رحمته ورضوانه ، وفي هؤلاء كان قول الله تعالى : (ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ماينفق قربات عند الله وصلوات الرسول الا انها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته ان الله غفور رحيم)[3] .

ومهما يكن من شيء فقد كان العرب المسلمون ينظرون الى الاعراب المتبدين نظرة حذر وارتياب ، وكانوا لا يرتضون لاعرابي تحضّر ان يتبدى ، من ذلك ما روى عن النابغة الجعدي حيث اشتاق الى قومه فدخل على عثمان بن عفان فقال : (استودعك الله يا امير المؤمنين ، قال : واين تريد يا ابا ليلى ؟ قال : الحق بأبلي فاشرب من البانها ، فانى منكر لنفسي ، قال عثمان : أتعربا بعد الهجرة ياابا ليلى ؟ أما علمت ان ذلك مكروه؟ قال : ما علمته ،وما كنت لأخرج حتى اعلمك)[4] . هذه النظرة غير المطمئنة الى الاعراب فسحت مجال

(١) انظر تفصيل رأيه فى فجر الاسلام ص ٣٣
(٢) المقدمة ص ١٢١-١٢٢
(٣) التوبة ٩٩
(٤) الاغاني ٥/١٠ ط الدار وطبقات الشعراء ص ١٠٦-١٠٧

القالة حول الاعراب وعليهم فهوّن اناس من شأنهم ، واسرف آخرون في وصفهم بكل منقصة وتوحش وطيش وسفه ، وهذا ضرب من التجني لا يتفق والنظرة العلمية الممحصة ، واذا صدق بعض ذلك الوصف على قسم من القبائل ، فان التعميم لا يصح ولا يصدق ، وخاصة اذا عرفنا ان كثيرا من اولئك الاعراب من سكن الحواضر والقرى ، وكان للقبيلة الواحدة حاضرة وباديـة ، والتمازج حاصل بين سكنة الحواضر وسكنة البوادي ، وكثيرا ماتحيا القبيلة الواحدة حياتين: يستقر بعضها المدر فيتحضر ويسكن بعضها ظواهر القرى فيكون في اهل الوبر متبديا ، مثـال ذلـك قريش حيث يذكر عنهـا صاحب اللسان : (قريش الاباطح اشرف واكرم من قريش الظواهر ، لأن البطحاويين من قريش حاضرة وهم قطان الحرم ، والظواهر اعراب بادية ، وضاحية كل بـلد ناحيتها البارزة)[1] . وكذلك جُهينة كان منها من يسكن في الوبر دون المدر ، في نواحي جبلي رضوى وعزور[2] ، بينما يسكن قسم آخر منها المدر في ينبع : (وهي قرية كبيرة غناء ... فيها عيون غزيرة الماء) ويسكن قسـم ثالث منها الصفراء : (قرية كثيرة النخل والمزارع وماؤها عيون كلها)[3] .

واولئك الذين سكنوا الباديـة لم يكونوا كلهم اعرابا بعيدين عن الايمان موغلين في الصحراء قست قلوبهم وغلظت اكبادهم ، بل منهم من كانوا قريبين من المدن ، مطيفين بها متأثرين بعاداتها آخذين

---

(١) لسان العرب ـ ابن منظور مادة (ضحا)

(٢) عرام بن الاصبغ ـ اسماء جبال تهامة وسكانها ص ٧

(٣) المصدر السابق ص ٨

من حضارتها بسبب، فقد ذكر عرام بن الاصبغ في حديثه عن السوارقية قال : (قرية غناء كثيرة الاهل ... كان لبني سُليم فيها مزارع ونخل وفواكه كثيرة ... وهم بادية الامن ولد بها فانهم ثابتون بها والآخرون بادون حواليها ويميرون طريق الحجاز ونجد في طريق الحجاج)[1] .

وكان الرسول الكريم يفرق بين الاعراب الموغلين في الصحراء والاعراب المقيمين في الضواحي والمستجيبين لدعوة الاسلام ، فقد روى عن ام المؤمنين عائشة انها قالت : (لما قدمنا المدينة نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان نقبل هدية من اعرابي ، فجاءت ام سنبلة الاسلمية بلبن فدخلت به علينا فأبينا نقبله ، فنحن على ذلك الى ان جاء رسول الله ومعه ابو بكر فقال : ما هذا ؟ فقلت : يا رسول الله هذه ام سنبلة اهدت لنا لبنا وكنت نهيتنا ان نقبل من احد من الاعراب شيئا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خذوها فان اسلم ليسوا بأعراب هم أهل باديتنا ونحن اهل قاريتهم ، اذا دعوناهم اجابوا ، وان استنصرناهم نصرونا)[2] .

يتعين من هذه النصوص ان المقصود بالبادية انما هو ظاهر القرية او ضاحيتها وما احاط بها، وان كثيرا من القبائل كانوا يقطنون في هذه البوادي قريبين من الحواضر متصلين بها مختلطين بسكانها ، وهم غير تلك القبائل الموغلة في الصحراء البعيدة عن العمران الذين قست قلوبهم فوصفهم القرآن الكريم بشدة الكفر والنفاق .

---

(١) نفس المصدر ص ٦٥

(٢) ابن سعد ـ الطبقات الكبير ٨/٢١٥ ط ليدن

ومن كل ذلك يزداد حذرنا وارتيابنا من الاحكام الـتي تطلق على العهد الجاهلي، والتي تصوره على انه عهد جهالة وبداوة واعرابية بعيدة عن الحضارة والارتقاء، من غير مراعاة للفروق الواسعة بين البيئات الصحراوية وبيئات البادية القريبة من المدن او القرى، والتي كانت متصلة بمعالم المدنية لذلك العهد، مواكبة لركب الحضارة، مستجيبة لداعي الإسلام .

الفصل الثاني

الحياة السياسية

(١)

القرن السادس هو الزمن الذي مرت به احداث العصر، وان لم تقف عنده او تبدأ به. وبادية نجد هي مسرح الاحداث التي تدور حولها سياسة العصر وتتأثر بها كثرة القبائل التي سكنت هذه المنطقة، وان كان اثر الاحداث يتجاوز هذه البقعة ويمتد منها الى الجوانب المحيطة بهذا الاقليم، حيث الحجاز، وبلاد الشام، والعراق، والبحرين، واليمن.

واذا ألقينا نظرة على مصور هذا العصر وتوزيع القبائل فيه فماذا نجد:

ان جغرافيي العرب يتفقون على تقسيم الجزيرة العربية الى اقسام خمسة: تهامة، والحجاز، ونجد، والعروض، واليمن. وان اختلفوا في ضبط وتحديد هذه المناطق.[1] وقد توزعت القبائل - بعد

(١) ينظر تفصيل ذلك في صفة جزيرة العرب ـ الهمداني ٤٨ وما بعدها، ومعجم ما استعجم للبكري ١/٧ وما بعدها (السقا ١٩٤٥) ومعجم البلدان ـ ياقوت ٢/٧٦ ومن الكتب الحديثة الجيدة تاريخ العرب قبل الاسلام جواد علي ١/٨٦ ـ ١٤٧.

الهجرات القديمة[1] - على هذا الشكل :

١ - القبائل العدنانية :

نزلت قريش في مكة وما جاورها[2] . ومزينة في جبال رضوى وقدس وآرة وما حولها من ارض الحجاز[3] وسكنت فهم وعدوان جبال السراة في الحجاز ايضا ، وتجاورهم قبيلة هذيل[4] . واستقرت ثقيف في الطائف بعد اجلاء بني عدوان وبني عامر منها[5] . اما ديار هوازن فكانت بين غور تهامة الى ما والى بيشة وناحية السراة وحنين واوطاس[6] ، ونزل الحجاز من القبائل القيسية ايضا ، بنو هلال واكثر بني سليم[7] وكان منزل كنانة في أرض تهامة[8] .

اما في نجد : فبنو عامر بن صعصعة قبيلة لبيد ، وديارهم غربي نجد مما يلي الحجاز[9] ، وكانوا اول امرهم يشتون في نجد ويصيفون في الطائف ، فلما قوى امر ثقيف اجلتهم عن الطائف[10] ، وديار بني كعب ابن ربيعة بالفلج وباديتها[11] ، وغطفان موضعها بالحاجر[12] ، ومنازل

(١) ذكر المؤرخون هجرات قديمة للعدنانيين على اثر غزو ملك آشور بلاد العرب وهجرة القحطانيين المعروفة في اليمن . الاغاني ١٣/ ٧٨ ط الدار ومعجم البكري ١/ ١٩

(٢) السيرة النبوية - ابن هشام ١/ ١٢٤ ط القاهرة ١٩٥٥

(٣) معجم البكري ١/ ٨٨ ط السقا ١٩٤٥ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر

(٤) معجم البكري ١/ ٨٨

(٥) نفس المصدر ١/ ٧٧

(٦) معجم البكري ١/ ٨٧

(٧) معجم البلدان - ياقوت ٢/ ٢٥٠

(٨) معجم البكري ١/ ٨٨

(٩) معجم البكري ١/ ٩٠ وان كانوا قد تنقلوا في اكثر من موضع

(١٠) نفس المصدر ١/ ٧٧

(١١) نفس المصدر ١/ ٩٠

(١٢) شرح ديوان زهير ص ٣٢٦ ط دار الكتب

بني اسد مجاورة لمنازل طيء القحطانيين[1] ، وهؤلاء الاخيرون بين جبلي أجأ وسلمى ، ونزلت ضبة وتميم[2] بلاد نجد ، ثم انحدروا حتى خالطوا اطراف هجر ، ونزلوا ما بين اليمامة وهجر ، ومضى بنو سعد ابن تميم فحلوا رمل يبرين وخالطوا عبد القيس في بلاد قطر، وذهبت طائفة منهم الى عُمان[3] .

اما في اليمامة ،فقد نزل بنو باهلة بن اعصر ،وبنو نمير[4] ،وكذلك بنو تميم[5] ، اما حاضـرة اليمامة (الحجر) فهي لبني حنيفة[6] ، وبعد حرب بكر وتغلب انتشرت بكر وعنزة وضبيعة باليمامة فيما بينها وبين البحرين حتى اطراف العراق[7]. اما قبائل ربيعة: فقد نزلت عبدالقيس البحرين بعد ان اجلت قبيلة اياد عنها ، وسار فريق من عبدالقيس الى عمان وجاوروا الأزد في بلادهم[8] . ونزلت قبيلتا تغلب والنمر بن قاسط حول نهر الفرات من أرض الجزيرة (جزيرة أقور)[9] ، ونزلت اياد ـ بعد أن اجلتهم عبد القيس عن موطنهم ـ العـراق في سنداد وعين أباغ ، واصطدموا بالفرس في معارك كان من نتائجها أن تشتت شملهم ، فلحق فريق منهم بالشام ودانوا للغساسنة ، ودخل فريق آخر بلاد الروم[10] .

---

(١) ديوان عبيد بن الابرص ص ٨

(٢) ، (٣) معجم البكري ١/ ٩٠ والاغاني ١٠/١٩ ساسي حول وثوب تميم على البيت الحرام

(٤) معجم البكري ١/ ٩٠ (٥) معجم البكري ١/ ٨٨

(٦) معجم البكري ١/ ٨٥ ومختصر كتاب البلدان ص ٢٨ ط ليدن سنة ٨٨٥ م

(٧) معجم البكري ١/ ٨٦

(٨) البيان والتبيين ١/ ١٢١ والبكري ١/ ٨٢

(٩) البكري ١/ ٨٦

(١٠) الاغاني ٢٠/ ٢٣ ط ساسي ، انساب الاشراف ١/ ٢٥ ، البكري ١/ ٦٧ .

٢- القبائل القحطانية :

أما القحطانيون فأصلهم من الجنوب ، وهاجر أكثرهم الى الشمال، الا بقية منهم بقيت في اليمن وما حولها . فأما الذين هاجروا الى الشمال واستوطنوا هناك فمنهم : كندة التي رحلت الى نجد وأسست لها امارة في شمالي نجد وبادية الشام ودومة الجندل[١] . والازد التي تفرقت من اليمن فنزل فريق منها البحرين . وعرفت بـ (تنوخ) ، وصعدت الى جنوبي العراق وأسست ـ لخم أهم عشائرها ـ دولة المناذرة في الحيرة[٢] .

واستوطن فريق منها بلاد الشام ـ وهم آل جفنة بن عمرو بن عامر ـ فغلبوا الضجاعمة وأقاموا دولة الغساسنة[٣] . أما قبائل الأوس والخزرج – وهم بنو ثعلبة بن عمرو مزيقياء ـ فنزلوا يثرب . وسكن بنو حارثة بن عمرو بِمَرّ الظهران بمكة وهم خزاعة . ونزل فريق من الازد عُمان فعرفوا بأزد عُمان ، وفريق آخر استوطن السَّراة ، فعرفوا بأزد السراة أو ازد شنوءة[٤] . وحلت طيء في سُمَيْر و فَيْد في جوار بني أسد ، ثم غلبتهم على جبلي اجأ وسلمى[٥] . وتفرعت لخم الى فرعين الاول نزل العراق ، وهم آل نصر بن ربيعة الذين آل الامر اليهم بعد جذيمة الابرش ، ومنهم كان امراء المناذرة في الحيرة[٦] .

(١) تاريخ ابن خلدون ٢/٣٨ ، ديوان عبيد بن الابرص ص ٨ .
(٢) تاريخ الطبري ١/٤٣٧ ، تاريخ سني ملوك الارض ص ٩٤
(٣) السيرة النبوية ١ ١٣
(٤) السيرة ١/١٣ وفتوح البلدان ١/١٥ وتاريخ ابن خلدون ٢/٣
(٥) تاريخ ابن خلدون ٢ ـ ٢٣
(٦) تاريخ ابن خلدون ٢ـ ٣٦

والفرع الثاني من لخم نزل جنوبي بلاد الشام في فلسطين[1]. وكذلك نزلت جذام جنوبي الشام في الارض الممتدة من حدود ايلة ـ العقبة ـ الى ينبُع محاذية لساحل البحر الاحمر[2]، ونزلت الشام ايضا عاملة (اخت لخم وجذام) جنوبي البحر الميت[3].

وفي الحجاز نزلت قبيلة خثعم ما بين وادي بيشة وتربة وما والاها، وجاورتها قبيلة بجيلة[4]. وسكنت قبائل سعد هذيم - عذرة وحوتكة وجهينة - في وادي القرى[5]. وانتشرت قبيلة بَليّ بين شمالي يثرب الى تيماء فالعقبة[6]، وسكن بنو كلب دومة الجندل وبادية السماوة[7]. اما بهراء، فنزلت بأعالي الشام بين حلب وحماة[8].

أما القبائل القحطانية التي بقيت مقيمة في مواطنها، فأهمها: همدان ومنزلها شرقي بلاد اليمن شمالي صنعاء[9]. ومذحج ومنزلها في تثليث ونجران ونواحيها[10]. والاشعرون شمالي زبيد، وكذلك قرب عك[11]، ومنزل مهرة بالشحر من بلاد اليمن[12]. وكانت قبائل حمير تنزل المنطقة الغربية لظفار حتى عدن وصنعاء[13].

(١) صفة جزيرة العرب ١٢٩ (٢) تاريخ ابن خلدون ٢/٣٧
(٣) المصدر السابق والصفحة وصفة جزيرة العرب ص ١٢٩
(٤) معجم البكري ١/١٠
(٥) المصدر السابق ١/٣٨ وتاريخ ابن خلدون ٢/٢١
(٦) معجم البكري ١/٩٠ وابن خلدون ٢/٢١
(٧) معجم البكري ١/٥٠ وابن خلدون ٢/٢٥
(٨) الاغاني ١٥/٩١ ط ساسي
(٩) صفة جزيرة العرب ص ١٠٩ وابن خلدون ٢/٢٩
(١٠) معجم البلدان ـ ياقوت ٢/٧٦ وابن خلدون ٢/٣٢
(١١) ياقوت ٢/٧٦ وابن خلدون ٢/٣٢
(١٢) معجم البكري ١/٢٧
(١٣) ابن خلدون ٢/١٥ أما قبيلة قضاعة من حمير فكانت في الشام ومنهم كان الضجاعمة الذين ملكوا الشام قبل الغساسنة. تاريخ ابن خلدون ٢/٢٤

(٢)

على هذا الشكل استقرت القبائل العربية في الجزيرة وتجاور العدنانيون والقحطانيون ، ولم يكن لهذه القبائل دولة تضمهم ، ولا نظام موحد يسودهم ، بل كانت كل قبيلة تكون وحدة اجتماعية وسياسية مستقلة،وقد تجوز أو ليري فأعطى القبيلة مفهوم الدولة[1] . وقوام القبيلة الاسرة ،وما القبيلة الا اسرة كبيرة تتضخم فتكون قبيلة ،وتنشطر القبيلة الى شطرين أو أكثر ، ويشمل كل شطر سلالة احد ابناء الجد الاكبر وتتسمى باسمه ، وهكذا تستمر القبيلة في التضخم والانقسام على هذا المنوال[2] . فرابطة القبيلة هي رابطة النسب والدم رابطة الاب الكبير الذي ينتمون اليه ويعرفون باسمه، وقد تكون القبيلة منسوبة الى الام ـ وهذا في القليل ـ مثل مزينة وبجيلة وخندف .

وهذه القبائل متشابهة في تكوينها ونظامها ، فكل قبيلة تقوم على اساس اشتراك ابنائها في الاصل الواحد والموطن الواحد ، وقد يكون هذا الموطن غير مستقر متنقلا مع المراعى ، وتجمع افراد القبيلة تقاليد واعراف تتمسك بها وتحترمها ، والرباط الاقوى في القبيلة هو العصبية ، والعصبية كما يعرفها ابن خلدون (النصرة على ذوى القربى واهل الارحام ، ان ينالهم ضيم او تصيبهم هلكة)[3] .

(١) أسماها اوليري : Patriarchal State
Oleary : Arabia before Mohammad . P. 8.

(٢) Smith : Kinship and Marriage in Early Arabia . P. 3-4 .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٣٨

فالفرد في القبيلة حريص على هذه الرابطة ، عامل من اجلها، باذل في سبيلها ما يملك حتى دمه .وافراد القبيلة متضامنون كلهم في المصائب والمسرات ، والجريرة التي يجنيها الفرد يتحملها المجموع ، وقد آمنو بهذه الفكرة التضامنية في الخير والشر حتى ظهرت في امثالهم فقالوا: « في الجريرة تشترك العشيرة »[1] .

وللقبيلة رئيس او شيخ يتزعمها ،ويكون عادة من ذوى السن، والخبرة ، والحكمة والحلم ، وسداد الرأي وبعد النظر ، والثروة ، والشجاعة ، والكرم ، وطلاقة اللسان بحيث يحوز رضا القبيلة واعجابها ، وينال احترامها ، فالقبيلة ترتضى لها رئيسا او شيخا تتوافر فيه صفات الرجولة والبطولة ، والنجدة، والكرم ، وعراقة الاصل، وصفاء النسب . وهذه الخصال هي التي تؤهله للقيادة والزعامة، ولم يكن من المستساغ في نظر العربي نظام الوراثة الذي عرف عند الملوك . وفي ذلك يقول عامر بن الطفيل :[2]

انى وان كنت ابن سيد عامر
وفارسها المشهود في كل موكب
فما سودتني عامر عن وراثة
ابى الله ان اسمو بأم ولا أب
ولكنني احمى حماها وأتقى
اذاها وارمى من رماها بمنكب

(١) مجمع الامثال ـ الميداني ١٤/٢

(٢) انساب الاشراف البلاذري ١٧٩/٢ والشعر والشعراء ص ١٩٢ ط ليدن وفيها خلاف .

والرئيس هو الذي يقود القبيلة في حروبها، ويقسم غنائمها، ويستقبل وفود القبائل، ويقوم بواجب الضيافة، ويعين المحتاج، ويقيل العاثر، ويفك اسرى قبيلته، ويتحمل القسط الاكبر من جرائر القبيلة وما تدفعه من ديات، فكل عظيمة يعصبونها برأسه، ومن ذلك قالوا: (سيد معمم) يريدون ان كل جناية يجنيها احد في العشيرة معصوبة برأسه[1]. ولم يكن شيخ القبيلة مستبداً برأيه، بل يستعين بشيوخ القبيلة وذوي الرأي والشرف فيها، يستشيرهم اذا حزب الامر.

وكان افراد القبيلة يتمتعون بحرية في ظل النظام القبلي، ولهم حقوق متساوية لا يتميز بعضهم على بعض، وفي مقابل هذا كان على الفرد في القبيلة أن يخضع لرأيها ولا يخرج عليه، ولا يكون سببا في تفريق كلمتها، وتشتيت وحدتها، أو الاساءة الى سمعتها فانه اذا غلا في ذلك وكثرت جرائره عرض نفسه للخلع، والخلع أشد عقوبة توجه للفرد في المجتمع البدوي، وفي اللسان «والخليع الرجل يجني الجنايات يؤخذ بها اولياؤه، فيتبرأون منه ومن جنايته»[2]. ولذلك نجد أن أفراد القبيلة جميعا يحرصون على سمعة القبيلة ومصالحها وصيانة حقوقها، وان أحدهم ليضحي لها بماله ونفسه، فهي حياته وكيانه، وهو مع اعتزازه بفرديته وحريته، يجد أن تحقيق تلك الحرية في نطاق القبيلة وعصبيته لها.

على أن هذه العصبية لم تكن واسعة الحدود بحيث تشمل فكرة الامة والجنس العربي، بل كانت على الغالب ضيقة الحدود، لاتكاد

(١) عيون الاخبار - ابن قتيبة ٢٢٦/١

(٢) اللسان مادة (خلع)

تتجاوز حدود البطن ، أو القبيلة في مفهومها الضيق ، ولذلك نجد كثيراً من بطون القبيلة الواحدة في صراع وقتال[1] . على الرغم من شعورها بوحدة نسبها . فكانت العصبية للرهط أو البطن، تطغى على العصبية الجامعة للقبيلة ، فما قولك بالشعب أو الامة .

ومصلحة القبيلة هي وحدها التي تحدد صلاتها بالقبائل المجاورة لها ، سواء ربطتها بها رابطة النسب، أم لم تربطها . وربما آثرت القبيلة بدافع المصلحة أو الجوار أو الضعف محالفة قبيلة اخرى ، وتنضم القبيلة الضعيفة عادة الى قبيلة قوية ، تحميها وترد عنها العدوان[2] . والحلف - كما هو ظاهر من اسمه - بمعنى اليمين الذي كانوا يقسمونه في عهودهم ، فكانت المحالفات تتم بمظاهر دينية ، ليشعر المتحالفون بخطر هذا التحالف ، فهم ينحرون هديا ، ويغمسون أيديهم في دمه ، ولذلك سميت اليمين المغلظة (غموسا) أو كانوا يغمسون أيديهم بطيب ، وقد عرف من ذلك حلف المطيبين الذي تعاقد فيه بنو عبد مناف ، وبنو زهرة ، وبنو تميم ، وبنو أسد ، ضد بني عبدالدار وأحلافهم ، أو كانوا يوقدون ناراً - فعل المجوس - كما فعلت قبائل مرة بن عوف الذبيانيين حين تحالفت عند نار ودنوا منها حتى محشتهم فسمي حلفهم باسم (المحاش) وغير ذلك[3] . وحين تدخل القبيلة في

---

(١) كما اقتتل فرعا بني عامر - بنو جعفر بن كلاب، وبنو أبي بكر بن كلاب بسبب ابن ضبا الاسدي - النقائض ص ٥٣٣ ط أوربا وكذلك قتال بني جعفر والضباب في يوم هراميت. النقائض ص ٩٣٧ ومعجم البلدان ٨/٤٠٠ وكحرب الفساد بين بطون طيء . ابن الاثير ١/٣٨٨

(٢) معجم البكري ١/٥٣ ط السقا

(٣) تاج العروس (محش)

حلف يصبح لها على أحلافها كل الحقوق، فهم ينصرونها على أعدائها ويردون الكيد عنها ، وللقبيلة الحق في أن تنفصل عن الحلف متى شاءت ، لتنضم الى قبائل أخرى في أحلاف غيرها ، ولذلك كثيراً ما تضعف بعض الاحلاف وتحل محلها أحلاف أخرى . وكانت بعض القبائل - وهي قليلة - تجد في نفسها القوة والعزة فلا تدخل في حلف من الاحلاف . وأولئك يعرفون بـ (جمرات العرب)[1] .

كانت القبائل تسعى الى المحالفات طلبا للامن ، ودفعا للعدوان ، وايثارا للعافية ومع ذلك لم تستطع هذه المحالفات حقن الدماء التي كانت تسفك لاتفه الاسباب، بل ربما كان الحلف من اسباب الحرب، تسعى اليه القبيلة اذا هي طلبت ثأرا عجزت عنه، او نزلت بها مصيبة قعدت دون دفعها .

وحياة القبائل بعد ذلك سلسلة حروب ومنازعات ، تنشب لاسباب ذات خطر أو ليست بذات خطر، واهم خصوماتهم تقوم على مراعى السوام ومواقع المياه ،والغزو الذي اتخذوه وسيلة من وسائل العيش ، والثأر الذي لا يغسل عاره الا الدم ، وبذلك كانت حياتهم عمادها الحرب والغارة. والاستعداد توقعا للخطر، فهم شاكو السلاح، حاضرو العدة ، معتصمون بصهوات جيادهم ، يجدون في قعقعة السيوف ووقع الاسنة وصهيل الخيل، استجابة لمعاني البطولة والقوة في نفوسهم . وقد سميت حروبهم ووقائعهم اياما لانهم يتقاتلون نهارا فاذا جاء الليل حجزهم وفرقهم ، فاذا حل اليوم الثاني عادوا للقتال .

(١) زهر الاداب - الحصري ١/٢٥ ط السعادة ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م

وايام العرب كثيرة بحيث يقال ان ابا عبيدة (معمر بن المثنى ـ ٢١١ هـ) الف كتاباً[1] جاء فيه ذكر مائتين والف يوم ، ولم يصل الينا هذا الكتاب . ولكن كتابه شرح النقائض ، حفظ طائفة كبيرة من تلك الايام . وقد ذكر الميداني في كتابه (مجمع الامثال) اثنين وثلاثين ومائة يوم ضبط اسماءها وبين احداثها والقبائل التي اشتركت فيها .

وقد كانت الايام هذه مادة غنية للشعراء . فكان الشعر صدى واضحا لها ، حكى وقائعها ووصف هولها وبكى قتلاها ، وتوعد الخصوم ، وطالب بالثأر ، وافتخر بالنصر وعيّر بالهزيمة .

وقد كانت الكتب التي عنيت بالايام[2] دواوين وملاحم رائعة صادقة ، حفظت ذلك الشعر ، الذي ما زالت روعته وفخامته تهز سامعيه ، وتبعث فيهم روح البطولة والبسالة والحماسة .

(٣)

وحياة العرب في الجاهلية لم تكن مقتصرة على هذا الشكل القبلي العصبي الضيق ، الذي تتحكم فيه الحمية ، وتعبث به العصبية والنزعات الفردية ، فقد انشأ العرب في قلب الجزيرة وأطرافها دولا وممالك واذا شئت الدقة ، امارات ، ونعرف منها ـ في هذه الفترة التي سبقت الاسلام ـ ثلاث امارات : امارة المناذرة في العراق . والغساسنة في الشام ، وكندة في شمالي نجد عند دومة الجندل . وقد

(١) الفهرست ـ ابن النديم ص ٨٩ ط أوربا .

(٢) ام الكتب التي اعتنت بالايام : نقائض ابي عبيدة ، والاغاني ، وتاريخ الطبري وتاريخ ابن الاثير ، والعقد الفريد ، ونهاية الارب للنويري ، ومجمع الامثال للميداني وغيرها .

كان حظ الامارتين الاوليين عظيما، من الترف والرخاء، والحضارة، وقوة السلطان.

فاما المناذرة: فقد اتخذوا الحيرة مستقرا لهم وعاصمة[1]. وهم من قبيلة لخم اليمنية. وقد جاءوا العراق هم وبعض قبائل عربية - عرفوا باسم تنوخ - في حوالي القرن الثالث الميلادي[2] ونشأت امارة المناذرة في كنف الدولة الساسانية، التي رأت ان تستفيد من استقرار العرب على حدودهم الغربية، ليقوموا بحماية هذه الحدود ضد من يعتدي عليهم من الروم، او عرب البادية، وكان ذلك في عهد سابور الاول (حوالي ٢٤١ - ٢٧٢ م). واول ملك للمناذرة هو عمرو ابن عدي اللخمي ثم ولي بعده ملوك من اسرته، كان اهمهم واشهرهم (النعمان الاعور)[3] او السائح. صاحب قصري الخورنق والسدير، وكتيبتي الشهباء والدوسر. وكان معاصرا لـ (يزد جرد الاول) (٣٩٩ - ٤٢٠) الذي ارسل اكبر ابنائه (بهرام جور) الى النعمان في الحيرة لينشأ في بيئة عربية، ويتعلم الفروسية وفنون الصيد، وينعم بصحة البادية، وقد اتقن بهرام اللغة العربية واحب اهلها، فلما تولى الحكم بعد ابيه قرب عرب الحيرة اليه، وذكر لهم نصرتهم اياه حين شب النزاع بينه وبين اخيه حول العرش بعد موت ابيهما يزد جرد[4].

ومن ملوك المناذرة اللامعين: المنذر بن ماء السماء (حوالي

---

(١) تقع الحيرة على ضفة الفرات الغربية على بعد ثلاثة أميال من المكان الذي بنيت فيه الكوفة. والحيرة لفظ سرياني معناه الحصن المنتظم - ابن الجوزي ٢/١٧١.

(٢) تاريخ الطبري ٢/٢٦

(٣) سمي السائح لأنه كان تزهد وهجر الملك في زمن بهرام جور. أبو الفداء ١/٧٠

(٤) مروج الذهب - المسعودي ٢/٤٠٢ ط اوربا

٥١٤ - ٥٥٤) صاحب الغريين المشهورين ، ويومي النعيم والبؤس[١] .
وكان المنذر معاصرا لـ (قُباذ) ملك الفرس، وكان قباذ قد اعتنق المزدكية واتخذها دينا رسمياً للدولة . وأراد ان يغري المنذر بها . فلما رفضها المنذر عزله وولى الحارث بن عمرو امير كندة مكانه . الا ان الايام لم تمهل قباذ ،فسرعان ما هلك وخلفه كسرى انو شروان ،الذي كان يبغض المزدكية ، فاعاد المنذر الى حكم الحيرة[٢] . وقد عرف المنذر بغاراته الشديدة ضد الغساسنة حتى قتل في يوم (أُباغ)[٣] .

وخلف المنذر ابنه عمرو بن هند (٥٥٤ - ٥٦٩ م)[٤] الذي عرف بالمحرق ، لانه قتل مائة رجل من تميم حرقا بالنار يوم أوارة باليمامة ، وكان طاغية مستبدا كرهه الناس والشعراء فهجوه ، وهوصاحب طرفة والمتلمس ، وقصته معهما مشهورة ، وفيه يقول الشاعر :[٥] .

ابى القلب ان يهوى السدير وأهله
وان قيـل عيش بالسدير غـرير
بـه البق والحمى وأسْد خفية
وعمرو بن هند يعتدي ويجـور

وقد قيل ان عمرو بن كلثوم التغلبي قتـل عمرو بن هند ثأرا

---

(١) الاغاني ١/٨٦-٨٨

(٢) المختصر في أخبار البَشر ١/٧١

(٣) ابن الاثير - تاريخ الكامل ١/٣٢٦

(٤) الطبري ٢/٩٤ ط الحسيلية - ويحدد جرجي زيدان تاريخ حكمه بسنة ٥٦٣م العرب قبل الاسلام ص ١٨٥-١٨٦ .

(٥) الاغاني ٢١/١٢٦ ط ساسي .

لكرامة امه ليلى ، حين أرادت هند ان تذلها بأن تستخدمها[1].

وكان اخر ملوك المناذرة النعمان الثالث بن المنذر الرابع (٥٨٠ ـ ٦٠٢) المكني بابى قابوس ، الذي امتد سلطانه الى البحرين وعمان ، وشهرت لطائمه التي كانت اجارتها سببا في حروب شغلت قبائل قيس ردحا من الزمان. وكان الشعراء يؤمون بلاطه ، ويحظون برعايته ، فقد ذكرت كتب الادب اخبارا عن جملة من الشعراء منهم: النابغة الذبياني (وفي النعمان قال اعتذارياته المشهورة) والمنخل اليشكري ، ولبيد ، والمثقب العبدي ، وغيرهم[2].

وكانت نهاية النعمان في سجن كسرى الثاني الذي نكل به ورماه تحت ارجل الفيلة فحطمته. لأنه قتل عدي بن زيد العبادي. وبسببه كانت وقعة ذي قار ، حيث انتصرت قبيلة بكر ـ حمية للنعمان ـ على الفرس وعلى اياس بن قبيصة الطائي. الذي نصبه الفرس خلفا للنعمان. وبقى أمر الحيرة مضطربا حتى فتح المسلمون العراق عام ٦٣٣ م. واذعنت الحيرة لخالد بن الوليد[3].

* * *

واما امارة الشام ، فقد اسسها الغساسنة ، وهم ـ كالمناذرة ـ

---

(١) الاغاني ٥٢/١١ ط الدار والشعر والشعراء ١١٨-١١٩ ط ليدن. ويشير عمرو بن كلثوم الى ذلك في قوله من المعلقة:

تهددنا وأوعدنا رويدا　　　متى كنا لامك مقتوينا

(البيت في شرح المعلقات للتبريزي ص ١١٧ ط لايل)

(٢) الاغاني ٣/١١ ط الدار

(٣) المختصر في اخبار البشر ٧٢/١ وتجاوب الامم ـ ابن مسكويه ص ٢٠٠-٢٠٢ ط ليدن.

من عرب الجنوب نزحوا الى الشمال . مع قبائل كثيرة اهمها جذام ، وعاملة ، وكلب ، وقضاعة . وقد اقاموا امارتهم في شرقي الاردن، ولم يتخذوا لهم حاضرة بعينها . وان كانت منطقة الجولان اشهر مناطقهم، واشتهرت الجابية كذلك بانها كانت مقراً لملوكهم فعرفت بجابية الملوك[1]. كما عرفت جلّق - بالقرب من دمشق - من ضمن منازلهم .

وتاريخ الغساسنة غامض على خلاف تاريخ المناذرة الذي كان مكتوبا ومحفوظا في بيع الحيرة . قال ابن الكلبي : « إني كنت استخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة الحيريين ومبالغ أعمال من عمل منهم لآل كسرى ، وتاريخ نسبهم ، من بيع الحيرة ، وفيها ملكهم وأمورهم كلها »[2] . أما تاريخ الغساسنة فقد كتب باليونانية ولم تكن صلة العرب باليونانيين مثل صلتهم بالفرس ، وندر منهم من كان يتقن اليونانية ، ولهذا كثر الاضطراب في تاريخ الغساسنة عند مؤرخي المسلمين .

لقد قامت دولة الغساسنة في أواخر القرن الخامس الميلادي ، (حوالي ٤٩٢م)[3] بعد أن تغلبوا على الضجاعمة ، فقربهم الرومان منهم وجعلوهم درعا واقيا لهم ولحدودهم ضد غارات الفرس والمناذرة.

وأول مؤسس لدولتهم هو جفنة بن عمرو مزيقيا.، لذلك يسمون آل جفنة . وأشهر ملوكهم وأقواهم الحارث بن جبلة (٥٢٨-٥٦٩م)

---

(١) تاريخ العرب - جواد علي ٤/١٠٢-١٠٤

(٢) تاريخ الطبري ٢/٣٧ ط اوربا

(٣) يحدد دوبرسيفال تاريخ اقامة دولة الغساسنة بالشام بحوالي سنة ٤٩٢م :
C. De Perceval : Essai Sur L'histoire des Arabes. V. 2. P. 189.

المعروف بالحارث بن أبي شمّر الذي عرفت حروبه ضد الفرس وضد المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة ، الذي قتله الحارث في يوم حليمة . وقد كان ذلك على عهد الامبراطور (جستنيان) الذي انعم على الحارث بالاكليل ، واعترف بسيادته المطلقة على جميع عرب الشام ، ومنحه لقب فيلارك ، أي شيخ القبائل ، وبطريق ، وهو أعلى لقب بعد الامبراطور ، وكان الحارث نصرانيا على مذهب اليعاقبة[1] . وخلفه ابنه المنذر بن الحارث (٥٦٩ـ٥٨١م) الذي هزم أبا قابوس ملك الحيرة سنة ٥٧٠م في معركة عين أباغ[2] . وكان آخر ملوك الغساسنة جبلة بن الايهم الذي حارب المسلمين في صفوف الروم ، ثم أسلم في عهد عمر بن الخطاب ثم ارتد الى النصرانية . قال ابن خلدون : « ولما فتح المسلمون الشام وأسلم جبلة ، واستشرف أهل المدينة لمقدمه حتى تطاولت النساء من خدورهن لرؤيته لكرم وفادته ، وأحسن عمر نزله وأحله أرفع رتب المهاجرين ، ثم غلب عليه الشقاء ولطم رجلا من بني فزازة ، وطيء فضل ازاره وهو يسحبه في الارض ، ونابذه الى عمر في القصاص ، فاخذته العزة بالاثم ، فقال له عمر : لا بد أن أقيده منك ، فهرب الى قيصر ولم يزل بالقسطنطينية حتى مات سنة ٢٠هـ »[3] على أن الاخبار تصور جبلة وهو نادم على ردته ، أسف على فعلته في عصيان عمر ، وتروى له في ذلك هذه الابيات :[4]

---

(١) O'Leary : Arabia before Mohammad. P. 21.

(٢) تاريخ العرب قبل الاسلام ـ جواد علي ٤/١٣٥

(٣) تاريخ ابن خلدون ٢/١١٢ ط بيروت

(٤) الاغاني ١٥/١٦ ط بولاق

تنصرت الأشراف من عار لطمة
وما كان فيها لو صبرت لها ضرر

تكنفني فيها لجاج ونخوة
وبعت لها العين الصحيحة بالعور

فياليت امي لم تلدني وليتني
رجعت الى القول الذي قاله عمر

وقد كان بلاط الغساسنة - كما كان بلاط المناذرة - مقصد الشعراء الذين نعموا بالهدايا والهبات، مثل حسان بن ثابت، والنابغة الذبياني، والاعشى، والمرقش الاكبر، وعلقمة الفحل، وغيرهم.

هاتان الامارتان العربيتان على حدود فارس والروم كانت العلاقة بينهما علاقة حرب ودماء وثارات، وقد قامت بين هاتين الامارتين، امارة ثالثة لم يكن ولاؤها لملوك فارس او الروم، بل كانت تمحض ودها لعرب اليمن من الملوك الحميريين (ملوك سبأ وذي ريدان ويمنات) وتلك هي امارة كندة ذات الاصل الجنوبي ايضا، وقد قامت هذه الامارة في القرن الرابع الميلادي شمالي نجد، واتخذوا دومة الجندل حاضرة لهم[1]. وقد عرف من ملوك هذه الامارة -التي لم يكن لها شأن الامارتين السابقتين ولا حضارتهما- حُجر الملقب بآكل المُرار، الذي دانت له القبائل الكثيرة في نجد، وامتد نفوذه حتى اليمامة، وكان فيمن دان له بالطاعة قبيلتا بكر وتغلب، وان تمردت القبيلتان بعد عهده، حين ولي الحكم ابنه عمرو المقصور، ثم

(1) تاريخ العرب قبل الاسلام - جواد علي ٣/٢١٥

قامت الحـرب بين بكر وتغلب ودامت طويلا قيل انها استمرت اربعين عاما ، وتلك هي حرب البسوس .

وكان خير عهود كندة ، واشدها نفوذا ، وأوسعها رقعة ، عهد الحارث بن عمرو ،حيث دانت له قبائل نجد واصلح بين بكر وتغلب فدانتا له ، وقد نظم حكمه بأن اقام ابنه شرحبيل على بكر ، وابنه الثاني معد يكرب على تغلب ، وولى على قبائل قيس عيلان ولده سلمة ، اما الابن الرابع حجر ابو امرىء القيس الشاعر فقد حكّمه على بني اسد . وكان من قوة الحارث، وسعة سلطانه ، ان عقد محالفة بينه وبين امبراطور بيزنطة ،وشن حملات على المناذرة ، فوفق في غير معركة . ولما خلع قباذ ملك الفرس المنذر بن ماء السماء عينه حاكما على الحيرة ـ كما مر بنا ـ غير ان الامور لم تستقم للحارث ، فسرعان ما مات قباذ ،وجاء كسرى انو شروان ، فعزل الحارث واعاد المنذر الى حكم الحيرة[1] . واشتد الصراع بين الحارث الكندي وبين المنذر ، وكانت نهاية الحروب ان قتل الحارث وتداعت دولته ، واختلف ابناؤه بعده ، فاقتتلوا فيما بينهم فقتل كل من شرحبيل وسلمة ،وجن معد يكرب وثارت بنو أسد على حجر فقتلته،وحاول امرؤ القيس ابنه ان يسترد ملك ابيه ويثأر من بني أسد فخابت مساعيه ، وكانت نهايته حين رحل الى امبراطور بيزنطة ليستعين به على محاربة المنذر فلم يعنه ومات في تلك الرحلة .

ومهما يكن من شيء، فان امارة كندة لم تبلغ من المجد والسلطان

(١) المختصر في اخبار البشر ٧١/١

واسباب الحضارة والرخاء ، ما بلغته امارة المناذرة في العراق ، ولا امارة الغساسنة في الشام ، وكان عهدها قصيرا ، ونفوذها مقتصرا على عـرب البادية ، على حين كانت الامارتان الاخـريان تتمتعان بسلطانهما على سكنة الحواضر والبوادي على حد سواء .

هذه هي الصورة العامـة للحياة القبلية والحضرية في القـرن السادس ، وهي صورة عرّفت بعلاقات سكان الجزيرة وارتباطاتهم ونظمهم وطبيعة الحكم عندهم ، ونظرتهم القبلية التي حددت صلاتهم بالدول الاجنبية . وهذا هو الجانب السياسـي من هذه الحياة فما نصيب المنطقة من الحيوات الاخرى الاجتماعية والفكرية والدينية؟ ذلك ما أحاول أن أبينه فيما يلي من فصول .

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية

(١)

العرب في الجزيرة العربية قسمان : أهل وبر وبادية ، وأهل مدر وحاضرة ، فالمناطق التي يجـودها المطر ، وتكثر فيها المياه والابار ، تكون مناطق زرع ورعي واستقرار ، ثم تقوم فيها الابنية ويكثر العمران وتنشأ فيها أسباب الحضارة ، وتنشط التجارة والاسواق ، وسكان هذه المناطق هم أهل المدن التي كانت حـول الجزيرة ، في الحجاز واليمن والعراق والشام ، وقليلا ما تكون في قلب الجزيرة، لانها صحراوية او جبلية مجدبة الحياة فيها قاسية ، فلا تتفق والحياة المستقرة ، فيحتاج لذلك سكانهـا الى الرحلة والنقلة ، طلبا لمساقط الغيث ومنابت الكلأ . واذا قلنـا الرحلة ، فـلا نعني بها التجوال المستمر الذي لا قرار فيه في ارض معروفة ، او بقعة معينة ، بـل لكل قبيلة منازل في الصيف، ومنازل في الشتاء معلومة مبينة. ومع كل ذلك ، فان هذا التقسيم الاجتماعي بين البدو والحضر ، لايفهم منه انقطاع البادية عن الحاضرة او انعزالها ، فاذا صح ان بعض القبائل المتبدية كانت منقطعة متوحشة، لاهم لها الا الغزو وانتجاع الكلأ،

فان كثرة القبائل كانت على صلة دائمة بالمدن ، تتزود منها وتتأثر بها ، وان حياة المدن نفسها كانت حياة قبلية ، فما يثرب الا مستقر لقبيلتي الاوس والخزرج ، والطائف كانت مصطاف بني عامر ثم مستقر ثقيف ، ومكة مدينة قريش . والاوضح من هذا - في أن البادية لم تكن بمعزل عن الحاضرة - ان القبيلة الواحدة قد يكون لها حاضرة وبادية في آن واحد : فقريش لها حاضرة ولها بادية ، جاء في اللسان : (قريش الاباطح اشرف واكرم من قريش الظواهر ، لان البطحاويين من قريش حاضرة ، وهم قطان الحرم ، والظواهر اعراب بادية ، وضاحية كل بلد ناحيتها البارزة) .[1] وقبيلة مزينة كانت موزعة بين الجبال والقرى،فقسم منها سكن جبل ورقان[2]، وقسم آخر نزل في جبلي القدسين وقسم ثالث في جبلي نبهان وبقيتها استوطنت في قرية الفُرع ، وهي قرية كبيرة غناء كما يصفها عرام السلمي[3] . وكذلك الامر في جهينة فقد كان منها من سكن الوبر في نواحي جبلي رضوى وعزور ، وسكن قسم آخر قرية ينبع ذات المزارع وعيون المياه الغزيرة ، وسكن قسم ثالث من هذه القبيلة قرية الصفراء التي تكثر فيها المزارع والنخيل وعيون المياه ،وموقعها فوق ينبع مما يلي المدينة[4] . والامثلة على هذا كثيرة .

تلك القبائل التي سكنت البوادي او التي سكنت الحواضر ، لم

---

(١) اللسان مادة (ضحا)

(٢) اسماء جبال تهامة وسكانها - عرام بن الاصبغ السلمي ص ١٦ تحقيق عبدالسلام هارون ١٣٧٣هـ .

(٣) اسماء جبال تهامة وسكانها ص ١٨-١٩

(٤) المصدر السابق ص ٨

تكن طبقة واحدة متساوية وانما هي ثلاث طوائف اجتماعية : ابناء القبيلة ، ومواليها ، وعبيدها .

(أ) فأبناء القبيلة الخلص الذين ينتمون اليها بالدم، هم عمادالقبيلة وقوامها وعليهم واجب حمايتها والدفاع عنها والعصبية لها .

(ب) ثم الموالى الذين هم ادنى منزلة من أبناء القبيلة، وهؤلاء اما ان يكونوا : موالى بالجوار او الحلف ، وهو ان يحتمى بعض الافراد بقبيلة اخرى غير قبيلتهم ، فتتعهد بحمايتهم ، او يحتمى بفرد من أبناء القبيلة فيكون مولاه ويعيش في ظل القبيلة ولكل منهما ان يرث صاحبة اذا مات قبله ، وحقوق المولى ـ على كل حال ـ لا تبلغ حقوق الاصيل ، فلا يستطيع المولى ان يجير على القبيلة كما يجير ابنها عليها ، وسرعان ما تنعقد بين المولى وجاره رابطة قوية ، فالحامي يحافظ على عهده وجواره ، ويحرص على الوفاء له ، فإنه كان من اقبح العيوب عندهم نقض العهد والغدر ، وهم يحقرون من يقعد عن نصرة جاره أو يغدر به ، حتى انهم كانوا يرفعون بذلك لواء في الاسواق تعييرا وتشهيرا ، قال الحادرة (قطبة بن أوس) يخاطب امرأة :[1]

أسميّ ويحك هل سمعت بغدرةٍ

رُفع اللواء لنا بها في مجمع

أو يكون المولى من الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جناياتهم، فيستجير أحدهم بقبيلة اخرى فتجيره ، ويكون كأحد أبنائها له ما لهم

---

(١) المفضليات ص ٥٦ وحماسة البحتري ص ٢١٦ ط ليدن او ١٤١ ط لويس شيخو .

وعليه ماعليهم ، ومن هؤلاء الخلعاء طائفة الصعاليك ، كالشنفرى وتأبط شرا وعروة بن الورد وغيرهم . على أن الخلع لم يكن هيناً ميسوراً ، وما كان يحدث إلا في حالات نادرة معدودة ، فالفرد عزيز على قبيلته وهو حريص عليها حرصه على حياته .

ومن الموالي أيضا العبيد المعتقون، فهم في حماية القبيلة وتكون العلاقة بين المعتق والعتيق ولاء ، فلا ينسى العتيق فضل سيده وحسن صنيعه .

(ج) وطائفة ثالثة في القبيلة هي: العبيد، وكانوا عادة من اسرى الحروب أو ممن يجلب من الأمم الاخرى ، كالأحابيش (الرقيق الاسود) المجلوب من الحبشة وما حولها[1] وكان هؤلاء العبيد أقل مكانة من الموالي ، ويقومون بالاعمال الشاقة المرهقة[2] ، وكانت حالتهم بائسة مزرية، ولا سيما الذين كانوا في ملك اناس قساة القلوب غلاظ الاكباد ، وقد كان في مكة كثير من العبيد، وكانت قريش تستخدمهم في حراسة قوافلها التجارية وفي الحروب، يدل على ذلك اشتراك وحشي وغيره في يوم أحد ، وقول كعب بن مالك في مقتل حمزة بن عبد المطلب :

فلاقاه عبد بني نوفل   يبربر كالجمل الأدعج

وقوله ايضاً يصف جيش قريش يوم أحد وفيهم العبيد :[3]

فجئنا الى موج من البحر وسطه   أحابيش منهم حاسر ومقنع

---

(١) المحبر ـ محمد بن حبيب ص ٣٠٦ـ٣٠٨ . وقد ذكر ابناء الحبشيات في الجزيرة.

(٢) تاريخ العرب قبل الاسلام ـ جواد علي ص ٥١ ـ ٥٢

(٣) السيرة النبوية ٢/١٣٦ ، ١٣٨ والاغاني ١٥/٢٨ ط ساسي .

(٢)

ويجمع أبناء القبيلة هؤلاء ـ الخلص منهم والموالي والعبيد ـ ولاء، وعصبية، وتضامن، أحكم عراه حرصهم على شرف القبيلة ومجدها، فالاخلاص للقبيلة رباط وثيق بين الجميع، وعليهم ان يضحوا بكل شيء في سبيلها، وان الفردية التي عرف بها العربي لتفنى وتذوب في القبيلة، وهو يرى ان خير القبيلة خير له، وعليه ان يتحمل اوزارها، وينعم بخيرها، ويهب لنصرتها حين يدعوه الداعي، وهو مع قبيلته على كل حال، سواء عليه أكانت قبيلته تلك غاوية ام راشدة، ومصداق ذلك قول دريد بن الصمة :[1]

وهل أنا الا من غزية ان غوت
غويت وان ترشد غـزية أرشـد

ولم يكن امر القبيلة فوضى ـ كما قد يبدو ـ بل كانت لها اصول مرعية في داخلها، تنظم علاقة الافـراد بعضهم ببعض، كما ان لها نظامها الخارجي الذي يحدد صلاتها بالقبائل الاخرى، وهناك روابط عامة ومثل عليا يلتقى عندها العرب جميعا، لانهم يرون فيها بغيتهم التي تكسبهم العزة والرفعة والمجد والذكر الحميد، وتلك المثل جماعها المروءة والخلال الطيبة، مثل : الكرم والامانة والوفاء وحماية الجار والحلم وسعة الصدر والاعراض عن شتم اللئيم والنجدة والقوة والصبر عند البلاء .

وأبرز خصلة يعتز بهـا العربي ويتميز بهـا عن غيره هي الكرم

---

(١) الاصمعيات ص ١١٢ ط دار المعارف. وشرح المرزوقي على الحماسة ٨١٥/٢ ط هارون . غزية : من قبائل بني جشم

والسماحة والبذل ،ومهما قيل عن أسباب الكرم ودوافعه عند العرب، من قسوة الحياة ، وجدب الصحراء ، والمحل وانتشار الفقر ، ونفاد الزاد ، فان الكرم في العرب سجية متأصلة في نفوسهم ، فهم يلقون الضيف بالبشر والترحاب ويبذلون له أجود ما لديهم من طعام وخير طعامهم لحم الشياه والابل[1]، ولم يكن كرمهم خاصا ضيق الحدود ، بل كانوا يكرمون الغريب والبعيد، من يعرفونه ومن لا يعرفونه ، حتى عدوهم اذا نزل فيهم استبشروا بمقدمه واكرموا وفادته ، كانوا يكرمون سراة الناس ووجوههم، كما يكرمون فقراءهم من اليتامى والارامل والبائسين والمرملين ، بل كان فخرهم باطعام الفقراء اشد من غيره ، لم يشذ احد منهم عن ذلك غني او فقير ، وما قولك بقوم يغيرون على أموال الاغنياء فيقسمونها بين الفقراء ،ويتساوى في طبيعة الكرم هذه السادة والعبيد والخلعاء والصعاليك ، فهذا عروة بن الورد الفارس الصعلوك[2] كان يجمع الى خيمته فقراء قبيلته عبس والمعوزين منهم والمرضى، يتخذ لهم حظائر يأوون اليها ويفيض عليهم مما يغنم[3] . ويكفى هذا الصعلوك شرفا ان تتمنى ملوك المسلمين الانتساب اليه ، نقل عن عبدالملك بن مروان انه قال : « ما كنت احب ان أحدا ، ولدني من العرب الا عروة بن الورد لقوله :

أتهزا مني أن سمنت وان ترى

بجسمي مَسّ الحق والحق جاهد

(١) للتوسع والاستقصاء راجع كتاب الدكتور الحوفي (الحياة العربية في الشعر الجاهلي فصل الكرم ص ٣٠٨ ـ ٣٢١)

(٢) انظر اخلاق الصعاليك ومذهبهم وكرمهم في الحياة العربية ص ٢٩٩ـ٣٠٦ وكذلك كتاب الصعاليك في الشعر الجاهلي ليوسف خليف .

(٣) الاغاني ٣/٧٨ ط الدار

لأني امرؤ عافي انائي شـركة
وانت امرؤ عافي انائك واحد
اقسم جسمي في جسوم كثيرة
وأحسو قراح الماء والماء بارد »[1]

وكانت العرب لا تترك وسيلة لهداية الضيفان اليهـا الا فعلتها ، فهم يوقدون النار ليلا ليهتدي بضوئها من يراها ، وكان بعضهم يوقد النار بحطب طيب الرائحة ليهتدي بهذه الرائحة من فقد نعمة البصر[2] ، وهذا ضرب من الأريحية تنقطع دونه أعناق اللئام . وقد عرف من أجواد العرب خلق كثير حتى ضربت بهم الامثال ، وما زال الناس يتمثلون بكرم حاتم وغيره ، من أجواد العرب ، وكانوا يتمدحون بالكرم ، وهم يرونه فرضا واجبا وقت الضيق والبرد والشدة والقحط ، فكانوا ينحرون ويطعمون حين تهب الصبا ، وقد خصوا الصبا لأنها لا تهب إلا في البرد والجدب ، وعرف اولئك بمطاعيم الريح ومنهم الشاعر لبيد بن ربيعة الذي نسبت اليـه هذه الرياح فأمير الكوفـة – الوليد بن عقبة – يمدحه بقوله :[3]

أرى الجزار يشحذ شفرتيه إذا هبت ريـاح أبي عقيل

---

(١) العقد الفريد ١/١٩١ . وانظر ديوان عروة ص ١٣٨ – ١٤١ ط الجزائر ١٩٢٦ العافي : طالب المعروف . اناؤك واحد : اي تأكل وحدك . القراح : الخالص الذي لا يخالطه لبن ولا غيره .

(٢) بلوغ الارب ١/٧– وانظرة الحياة العربية ص ٣١٥ – ٣١٦ حيث يرفض الدكتور الحوفي هذا الرأي ويرى ان ايقاد النار بالمندل ضرب من الترف واظهار المقدرة والتباهي بالثراء ورغبة ان يشموا رائحته الطيبة .

(٣) طبقات الشعراء – ابن سلام ص ١١٤ والشعر والشعراء ص ١٠٠ ، وكذلك الاغاني ١٤/٩٤–٩٥ .

ولم يكن لبيد وحـده يفعل ذلك ، بل فعل ذلك أبوه (ربيـع المقترين) قبله ، ومثله في هذا كنانة بن عبد ياليل[1]. وكذلك فعلت قريش[2] وفعل قريش هذا له دلالته . فهي في مجتمع حضري تسيطر عليه روح التجارة ، ومع ذلك لم يكن الكرم مقتصرا على البادية أو محدوداً بحدودها وبظروفها ،وأخبار الكرم والكرماء في الجاهلية والاسلام أوسع من ان تحيط بها هذه الالمامة[3] .

وكانت طبيعة الحياة العربية تتطلب القوة والشجاعة والاقدام وركوب المخاطر والتجلد للمكاره والخطوب ، وقد دعاهم الى ذلك طبيعة الحياة المضطربة القائمة على الغزو والغارة والعداء فهم في حرب مضطرمة الأوار لا تكاد تخبو حتى يشب ضرامها ، وما اسـرع ماتستعر الحروب لامور ذات خطر او ليست بذات خطر ، ودواعي الحرب كثيرة عندهم فقد يتنافسون على شرف ورياسة، او يتنازعون على ماء او مرعى ، او تكون طلبـا لثأر قديم او غارة او مفاخـرة ومنافرة ، كانت تشتد الحرب بسبب من هذه الاسباب او غيرها ، وان احدهم ليهب لنصرة قومه اذا سمع الصارخة ، وهو يعلم السبب اولا يعلمه ، وقد صور هذه الحال خير تصوير قريط بن انيف :[4]

قوم اذا الشر ابدى ناجذيه لهم

طاروا اليـه زرافات ووحدانا

---

(١) ذكرم الميداني في المثل (اقرى من مطاعيم الريح) مجمع الامثال ١٢٧/٢

(٢) المحبر ـ محمد بن حبيب ص ٢٤١

(٣) ينظر تفصيل ذلك في كتاب الدكتور الحوفي (الحياة العربية في الشعر الجاهلي) ص ٣٠٨ ـ ٣٢١ ط الرابعة .

(٤) شرح الحماسة للمرزوقي ٢٧/١ ـ ٢٩ الناجذ : ضرس الحلم ، مثل لاشتداد الشر .

لا يسألون أخاهم حين يندبهم

في النائبات على ما قال برهانا

ويعزز هذه الحال ما روى عن عبدالملك بن مروان ، أنه سأل ابن مستطاع العنبري : « أخبرني عن مالك بن مسمع ، قال : لو غضب مالك لغضب معه مائة الف سيف ، لايسألونه في أي شيء غضب »[1] لقد كان الغزو ديدنهم والغارة معاشهم ، فكانوا يغيرون على الاعداء وعلى الاباعد ، فان لم يجدوا ذلك لا يترددون في ان يميلوا رؤوس الخيل نحو أقربائهم وذوي الارحام منهم ، وقد عبر الشاعر القطامي (عمير بن شييم) عن هذا بقوله :[2]

وكنّ اذا اغرن على جناب وأعوزهن نهب حيث كانا

اغرن من الضباب على حلول وضبة انه من حان حانا[3]

وأحيانا على بكر اخينا اذا ما لم نجد الا اخانا

ولا بد في هذا المجتمع الحربي من القوة لانها السبيل الوحيد للحياة الكريمة ، وهم يحتقرون الضعف - احتقارهم الجبن - لانه مظهر الذلة والهوان ، وقد ملىء شعرهم بذكر الشجاعة والبطش والقوة ، واكرم الموت عندهم في ساحات القتال وهم يمقتون الميتة حتف الانف في غير ميادين القتال ، هذا الحطيئة يحتقر هذه الميته بقوله :[4]

وشر المنايا هالك وسط اهله

كهلك الفتاة ايقظ الحي حاضره

---

(١) العقد الفريد ١/١٠٥

(٢) شرح الحماسة للتبريزي ١/٨١ . وشرح الحماسة للمرزوقي ١/٣٤٨

(٣) الضباب : تشمل ضبة وضبيب . وحسل وحسيل والحلول . الحلات النازلة حولهم وفيهم .

(٤) ديوان الحطيئة ص ٤٥

وقد جاء أدبهم معبرا بصدق عن حياتهم الحربية، فوصفوا الحرب وهولها وابطالها وصرعاها وادوات القتال فيها ، من قنا وصوارم ودروع وسهام وقسي[1] .

وهذه الحروب المستمرة المهلكة لا بد ان تنكشف عن صرعى من كلا الجانبين المتقاتلين ، ودم القتيل لايذهب هدرا، بل لا بد من الثأر الذي به وحده تطفأ غلة الموتور ولا يغسل الدم الا الدم ، فأما الدية فكانوا يرونها ذلا ومهانة لا يرضى بها الا الذليل وقد كان من حرصهم على اخذ ثأر القتيل ان توهموا حوله الاساطير،وذلك ماعرف عندهم بالصدى والهامة ، يقول الشاعر :[2]

يا عمرو الاتدع شتمي ومنقصتي
اضربك حتى تقول الهامة اسقوني

وقد « بلغ من كلفهم بالثأر انهم كانوا يتجانفون النساء والخمر والطيب لانها ضرب من التنعم والبهجة لا يليق بحزين موتور ، او لانها قد تلهى وتشغل عن الجد في الثأر »[3] ولا شك ان الثأر شر كله . فأكثر الحروب ، وجل ايام العرب ، قامت على الثأر او بسببه وقد تنتهى الحرب ويتبدل الزمان ، ويتغير الناس ، ينسون كل شيء ، الا الثأر فانه يغلي في الصدور (وتبقى حزازات النفوس كما هيا) وان جريرة الثأر لا تقتصر على القاتل نفسه بل تصيب ابناءه ، واخوته ، واسرته ، وكل فرد في قبيلته .

(١) راجع الحياة العربية ـ فصل الحرب ـ ص ٢٣٠ــ٢٧٦
(٢) امالي القالي ١٢٩/١
(٣) الحياة العربية في الشعر الجاهلي ص ٢٠٦

واذا كان هذا مذهب العرب في الثأر والغلو بسفك الدماء، فانهم لم يعدموا من كان يدعو الى السلم، ويحث على حقن الدماء وتحمل الديات، كما فعل هرم بن سنان والحارث بن عوف حين اصلحا بين عبس وذبيان، وتحملا ديات القتلى[1] وكما صنع زهير بن ابي سلمى حين ندد بالحرب وكرهها الى الناس، وحبب اليهم السلم والمودة والصفح والتسامح وقد خصص جزءا غير يسير من معلقته لذلك، وكما فعلت بهيسة بنت أوس الطائي حينما تزوجها الحارث ابن عوف، ورفضت ان يقربها حتى يصلح بين عبس وذبيان، واحتمل الديات مع هرم بن سنان[2].

وكان العرب يحرصون على المثل العالية والخصال النبيلة، ويفخرون بأدائها والوفاء بحقها، ومن تلك الخصال حفظ الجوار والوفاء بالعهد فهم يحرصون على جارهم حرصهم على شرفهم، سئل اعرابي عن مبلغ حفاظ قومه فقال: «يدفع الرجل منا عمن استجار به من غير قومه كدفاعه عن نفسه»[3].

ويتمدح قيس بن عاصم بقومه فيقول:[4]

لا يفطنون لعيب جارهم وهم لحفظ جواره فُطُنُ

وقد فطنوا لخصال الخير فذكروها في فخرها، معتزين بنسبتها اليهم، كالنجدة وحماية الضعيف، والعفو عند المقدرة والحلم والتسامح،

---

(١) الشعر والشعراء ص ٦١ ط أوربا
(٢) المرأة في الشعر الجاهلي ص ٦٣؛
(٣) العقد الفريد ١/١٠٥
(٤) شرح الحماسة للمرزوقي ٤/١٥٨٤ ط هارون واحمد امين ١٣٧٢/١٩٥٣

وكانوا مع ذلك يأبون الضيم ويأنفون من الذل والهوان ، ولو ركبوا في سبيل ذلك المخاطر . وليس ببعيد ما ذكر عن عمرو بن كلثوم أنه أطاح برأس الملك انفة من أن تذل امه[1]. وقد علمتهم بيئتهم القاسية الصبر والجلد واحتمال المصائب ومضاء العزائم .

تلك الخصال كانت اذا لم يشتطوا فيها ، خصال خير وشرف ، على أن هناك آفات ينخر منها جسم المجتمع العربي ، ومنها الخمر والميسر .

كانت الخمر عندهم من أهم متع الحياة ، وقل أن تجد شاعراً في الجاهلية لايذكر الخمر فهي مظهر من مظاهر الفتوة والشباب والقوة ، يقول حسان بن ثابت :[2]

ونشربها فتتركنا ملوكا وأسدا ما ينهنهنا اللقاء

كانوا يشربون الخمر لأنها تهز الأريحية ، وتبعث على الكرم ، يقول عمرو بن كلثوم :[3]

ترى اللحز الشحيح إذا أمرت عليه لماله فيها مهينا

وقد عنى العرب بالخمر ومجالسها ، فوصفوها مدققين بوصفها ، وذكر أنواعها وكؤوسها وندمانها ، وكانت مجالس الخمر تستكمل بالغناء ، حيث تغنى القيان أو ترقص في هذه المجالس ، وذكروا أن عبدالله ابن جدعان كانت له قينتان عرفتا بالجرادتين ، كانتا تغنيان في مجالس

(١) الاغاني ١١/٥٢ ط الدار ، والشعر والشعراء ص ١١٨ ـ ١١٩ .

(٢) ديوان حسان ص ١

(٣) شرح المعلقات للتبريزي ص ١٠٩ ط لايل، اللحز : البخيل أو السيء الخلق. امرت : اديرت .

شربه وقد وهبها لأمية بن أبي الصلت حيث كان قد مدحه[1]. وكان من العرب من يدمن شربها ، فتعبث بعقله وسلوكه ، حتى تضيق به قبيلته فتخلعه متبرئة من جرائره ، مثل ما برئت كنانة من البرّاض ابن قيس ، إذ كان سكيراً فاسقاً[2]. وكذلك كان طرفة حيث يشير الى ان قبيلته قد تحامته ، وافردته كما يفرد البعير الاجرب ، لاسرافه في الخمر والمجون :[3]

وما زال تشرابي الخمور ولذتي
وبيعي وانفاقي طريفي ومتلدي
الى ان تحامتني العشيرة كلها
وافردت افـراد البعير المعبد

على ان من عقلاء العرب في الجاهلية من اعرض عن الخمر وترفع عن شربها ، لما تفعله في الانسان من ذهاب العقل والحلم والوقار ، وما تجلبه من مهانة وطيش وسفه ، ومن اولئك الذين هجروا الخمـر العباس بن مرداس ، وقيس بن عاصم ، وكثير من الصحابة كعثمان ابن عفان ، وعبدالرحمن بن عوف وأبي بكر ، وعثمان بن مظعون ، وغيرهم ، وقد روي عن أم المؤمنين عائشة انها قالت : « ما شرب ابو بكر رحمة الله عليه خمراً في جاهلية ولا اسلام »[4] ، وقد قيل للعباس ابن مرداس في جاهليته : « لمَ لا تشرب الخمر فانها تزيد في جرأتك ،

(١) الاغاني ٨/٣٢٧ ط الدار
(٢) الاغاني ١٩/٧٥ ط ساسي
(٣) شرح المعلقات للتبريزي ص ٤٢
(٤) كتاب الاشـربة ــ ابن قتيبـة ص ٢٤ ط دمشق ١٣٦٦/١٩٤٧ تحقيق محمد كرد علي .

فقال : ما أنا بآخذ جهلي بيدي فأدخله في جوفي ، وأصبح سيد قومي وأمسى سفيههم »[1] ، وقد ذكر ابو الفرج :[2] انه ما مات احد من كبراء قريش في الجاهلية إلا ترك الخمر استحياء مما بها من الدنس . اما نساؤهم ، فلم يعرف ان امرأة منهم شربت الخمر في جاهلية ولا اسلام[3] .

وإذا ذكرت الخمر فيذكر معها القمار والميسر ، وقد تمدحوا بالميسر لأنه وسيلة من وسائل الانفاق والكرم واطعام الفقراء ، وأكثر ما يفخرون به عند البرد والقحط . فقد كانوا يعطون الفقراء وذوي الحاجة نصيبهم من الجزور حين يربحون ، وكانوا يرون ان من كمال الفتوة والكرم ان يقامر المرء ، ويذمون من لايدخل معهم في الميسر ويسمونه (البرم) يريدون به البخيل عديم المروءة . قال لبيد يمدح قومه بلعب القمار :[4]

وبيض على النيران في كل شتوةٍ
سراة العشاء يزجرون المسابلا

كان فتيان الجاهلية يفخرون بانهم يتعاطون الخمر والميسر ، ويتمتعون بالنساء ، وتكاد تكون هذه الامور الثلاثة من مظاهر الفتوة عند بعض شبانهم ، وقد جمعها المنخل اليشكري في قصيدته الرائية التي أولها :[5]

إن كنتِ عاذلتي فسيري   نحو العراق ولا تحوري

---

(١) كتاب الاشربة ص ٢٥
(٢) الاغاني ٨/٣٣٢
(٣) كتاب الاشربة ص ٣٠
(٤) الديوان ص ٢٤٩ ، سراة العشاء : وقت الضيف . المسابل : القداح .
(٥) شرح الحماسة للمرزوقي ٢/٥٢٦-٥٢٩ ط هارون

وتتمثل خلال الفتى من هؤلاء في شخص طرفة الذي قرن بين الخمر والفروسية والتمتع بالنساء. ولولا هذه الخصال الثلاث لما حفل متى قام عنه العائدون :[1]

فلولا ثلاثٌ هن من عيشة الفتى
وجدك لم أحفل متى قام عودي[2]
فمنهن سبقُ العاذلات بشربة
كميت متى ما تُعل بالماء تزبد
وكري اذا نادى المضافُ محنباً
كسيد الغضا نبهته المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب
ببهكنةٍ تحت الطراف المعمَّد

لقد كانت متع الجاهلية متلازمة يكمل بعضها بعضاً، وقد كان من أسباب نكوص الاعشى عن الاسلام، أن أبا سفيان تصدى له وهو في طريقه الى المدينة ليسلم - وقد أعد قصيدة في مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال له : ان محمداً يحرم الخمر والزنا والقمار فصرفه عن الاسلام[3] .

لقد مر بنا أن المرأة كانت من متع الشباب في الجاهلية، والمرأة هنا هي القينة والجارية، اما الحرة فقد كان لها منزلة رفيعة

(١) شرح القصائد العشر - التبريزي ص ٤٣ ، ط لايل

(٢) العود : من يحضره عند المرض . المضاف : الذي نزلت به الهموم . المحنب : فرس بعيد ما بين الرجلين. السيد : الذئب . المتورد: الذي ورد الماء . البهكنة : المرأة التامة الخلق .

(٣) السيرة النبوية ٣٨٦/١ وما بعدها ، الاغاني ١٢٦/٩ ط الدار

في نفوسهم ، فقد كانت تشارك الرجل في كثير من الاعمال تربي الاولاد ، وتخرج الى القتال تضمد الجرحى وتغزل وتنسج ، ومنهن من تحترف تجميل النساء او إرضاع الاطفال وتوليد النساء او تقويم الرماح، ومنهن من تنسج الثياب وتصلح الخيام وتطهي الطعام وتعمل في الحقل كما يعمل الرجل ، ومنهن من ترعى الماشية وتطلى الابل الجرب وتجنى الكمأة وتحلب اللبن ، الى غير ذلك من الاعمال والصناعات[1] ومنهن الشريفات الموسرات اللواتي تخدمهن الجواري فتكفيهن هذه الاعمال ، وكان الكثير منهن سافرات يقابلن الضيفان ويجلسن اليهم في حشمة ووقار ، وكان لبعض النساء من بنات الاشراف حق في اختيار ازواجهن، على نحو ما عرف عن هند بنت عتبة حين استشيرت في خاطبها ابي سفيان[2] . واذا حدثت الحرب فانها تخرج - في بعض الاحايين - الى ميادين القتال، لتثير همم الرجال، وتحرضهم على الاستماتة وتنشدهم الاناشيد الحماسية وتهيء لهم النبال وتضمد الجرحى وتسقي الماء . وكانت سببا في اثارة كثير من المعارك، فتدفع الرجل الى طلب الثأر وتعير القاعدين عن ذلك ، قالت ام عمرو بنت وقدان تحرض قومها على الثأر لاخيها :[3]

فـان أنتم لم تطلبـوا بأخيكم
فذروا السلاح ووحشوا بالابرق

---

(١) انظر (صناعات المرأة) في الحياة العربية للدكتور الحوفي ص ٣١٦-٣٢٩ الطبعة الاولى .

(٢) امالي القالي ١/ ١٩٨

(٣) شرح الحماسة للمرزوقي ١٥٤٦/٣ وحشوا : اطلبوا صيد الوحش . الابرق مكان فيه حجارة سود وبيض . المجاسد : الثياب المصبوغة بالجساد وهو الزعفران نقب النساء : ازرهن .

وخذوا المكاحل والمجاسد والبسوا

نقب النساء فبئس رهط المرهق

وقد نزلت المرأة من نفس العربي منزلة رفيعة، فهي الام والاخت والبنت والحبيبة، وقد عنى الشعراء بها عناية كبيرة فهي مصدر الهامهم، بذكرها تنشط القرائح وتهيج العواطف وتهتز النفوس، وهم يفتتحون القصائد بمخاطبتها ومناجاتها، ويقفون على ديارها وقفة شوق وذكرى، ويبثونها اشواقهم واحاسيسهم، ويذكر الشعراء المرأة على انها الحريصة على البيت الحافظة للمال التي تلوم على الاسراف والتبذير، يقول حاتم:[1]

أماوى ان المال غاد ورائح

ويبقى من المال الاحاديث والذكر

أماوى اني لا اقول لسائل

اذا جاء يوماً حل في مالنا نذر

ومهما يكن من شيء فان مكانة المرأة في المجتمع الجاهلي - وفي غير الجاهلي - دون مكانة الرجل بكثير، والعرب تحب الذكور لانهم جنود القبيلة ورجالها الحماة، اما المرأة فلا تغني في الحرب شيئاً، بل تكون عبئاً على القبيلة لانها مقصد الاعداء يريدونها سبية، وسبي المرأة عندهم عار لا يسكت عنه، ولا يقعد دونه، الا الوغد الذليل، وليس ادل على بغضهم للاناث من قول الله تعالى يصف حالهم: «واذا بُشِّر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم

---

(١) ديوان حاتم الطائي ص ٣٩ ط لندن ١٨٧٢

من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب الاساء ما يحكمون »[1] وقد كان منهم من يتخلص من الاناث بوأدهن - كما تشير الاية الكريمة - خوف الفقر أو خوف العار ، وقد نهى الاسلام عن هذه العادة البغيضة وندد بفاعليها فقال تعالى: « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم وان قتلهم كان خطأ كبيرا »[2] على ان حوادث الوأد كانت قليلة ومحصورة في قبائل من الاعراب الجفاة ، من مثل اسد وتميم ولم تكن عامة في القبائل[3] وكان من العرب من ينكر هذه الفعلة ، ويبذل المال ليفتدي الموؤدات ، كما كان يفعل صعصعة بن ناجية ، قال الفرزدق يفتخر بفعال جده:[4]

ومنا الذي منع الوائدات   وأحيا الوئيد فلم توأد

تلك حال المرأة الحرة ، اما الامة فهي دون الحرة منزلة ، واكثر الاماء[5] من السبي او الرقيق ، ومنهن القيان والجواري اللواتي يكثرن في حوانيت الخمارين ، وكن متعة السكارى والفساق من اصحاب اللهو والمجون .

وقد جاء الاسلام فأكرم المرأة - امة وحرة - فدعا الى العناية بها والعطف عليها فحرم ان تعضل أو تمنع من الزواج بعد وفاة زوجها ،

(١) سورة النحل ٥٨-٥٩

(٢) الاسراء ٣١

(٣) المرأة في الشعر الجاهلي ص ٣٩٢-٣٠٤

(٤) الكامل - المبرد ٢٧٢ ط لايبزك ١٨٦٤ ، وديوان الفرزدق ٢٠٣/١ ط الصاوي ١٣٥٤/١٩٣٦

(٥) يفرق الدكتور الحوفي بين السبايا والاماء (فالسبايا عربيات يؤخذن قسرا في حرب أو غارة وثمنهن الدم ، اما الاماء فغير عربيات يشترين بالمال للخدمة والتسري) المرأة في الشعر الجاهلي ص ٣٨٩ ط اولى .

كما حرّم أنواعا شائنة من الزواج ، كانت عند الجاهليين، منها نكاح المقت[1] ونكاح الشغار[2] والجمع بين الاختين وان كانوا يكرهونه وينهى بعضهم عنه[3] كما نهى الاسلام عنه[4] .

وعلى كل حال فان مكانة المرأة في المجتمع الجاهلي - على ما فيها من الهنات والمساوىء - مكانة كريمة ، والمرأة نفسها عرفت بالعفة والادب والحرص على شرفها و كرامتها، وهذا أمر طبيعي في مجتمع يتبوأ فيه العرض والشرف المكانة العليا ، ويحرص العربي فيه على عرضه حرصه على الحياة .

(٣)

أما مكاسبهم وحياتهم المعيشية ، فلم يكن حظ العرب من الرزق يختلف عن حظوظ الأمم الاخرى من اختلافهم في الموارد والمكاسب، فسكان المدن العامرة في اليمن ومكة ويثرب والحيرة غير سكان البادية الموغلين في الصحراء ، وسكان المدن أنفسهم يختلفون في مستوياتهم المعيشية، فمنهم التاجر الثري، ومنهم العبد الرقيق ، ومنهم المسكين الضعيف، وآخرون بين هؤلاء وهؤلاء ، وفي البادية أغنياء موسرون ، وفقراء مرملون ، وكذلك حياة الناس منذ كانوا حتى

---

(١) وهو ان يخلف على المرأة الابن الاكبر لزوجها ـ الاغاني ١/٩ . وكان الجاهليون انفسهم ينكرون هذا الضرب من النكاح، وكانوا يسمون الولد منه (مقتى) او (مقيت) وقد حرموا ضروبا اخرى من الزواج على انفسهم . وقد اقر الاسلام هذا التحريم المحبر ـ محمد بن حبيب ص ٣٢٥

(٢) ان ينكح الرجل وليته رجلا ، وينكح هو ولية ذلك الرجل بلا مهر . لسان العرب وتاج العروس . ونهاية الارب ٢/٢٤٥

(٣) الملل والنحل ـ الشهرستاني ٣/٣١٧

(٤) سورة النساء ٢٣

اليوم . والذي يلاحظ ان الاحوال المعيشية في البادية قبيل الاسلام وابان ظهوره ، كانت تنحدر من الرخاء الى الشدة والعسر ، وآية ذلك ان الحاجة والعوز وسوء الحال ، دفعت بعض الاعراب ان يتظاهروا بالدخول في الاسلام لا رغبة في الايمان بل طمعا في العطاء ، كما توضح الرواية التي تقول : « ان نفرا من بني أسد ثم من بني الحلاف ابن الحارث ، قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المدينة في سنة جدبة ، فاظهروا شهادة ان لا اله الا الله ، ولم يكونوا مؤمنين في السر ، وأفسدوا طريق المدينة بالعذرات وأغلوا الاسعار ، وكانوا يغدون ويروحون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون : اتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها وجئناك بالاثقال والعيال - يمنون على رسول الله صلى الله عليه وسلم - ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان ...ويريدون الصدقة ويقولون : اعطنا ، فأنزل الله سبحانه فيهم : « قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم ... الآيات »[1] وقد بين القرآن الكريم التباين في الحياة المعيشية حين ندد بالذين يتعاطون الربا ، والذين يخسرون الكيل والميزان والذين يأكلون أموال الناس بالباطل ، وبخاصة في مجتمع مكة .

وقد قسم بعض المؤرخين المسلمين العرب الى مراتب : فهم ملوك وغير ملوك ، وهؤلاء اهل مدر واهل وبر واهل المدر قسمان : زراع وتجار . اما الصناع ، فكانوا قلة ليس لها اثر واضح ، قال : « واما سائر عرب الجاهلية بعد الملوك فكانوا طبقتين : اهل وبر وأهل مدر ،

---

(١) نهاية الارب ٣١/٨ وسورة الحجرات ١٤

فاما أهل المدر فهم الحواضر وسكان القرى وكانوا يحاولون المعيشة من الزرع والنخل والماشية والضرب في الارض للتجارة، واما أهل الوبر، فهم قطان الصحارى، وكانوا يعيشون من البان الابل ولحومها منتجعين منابت الكلأ ومرتادين لمواقع القطر، فيخيمون هنالك ما ساعدهم الخصب وامكنهم الرعى، ثم يتوجهون لطلب العشب وابتغاء المياه، فلا يزالون في حل وترحال ..... »[1]

ان الحياة في الجزيرة العربية موقوفة على الامطار وما تدره عليهم السحب في مواسم معينة، وهي قليلة على أي حال، ولذلك لم يتيسر للبادية أن تقوم فيها زراعة منتظمة بل نشطت الزراعة في المناطق التي تتوفر فيها المياه من العيون والآبار والامطار، فعرفت الزراعة في الجنوب والشرق ومدن وقرى الحجاز، مثل الطائف ويثرب وخيبر ووادي القرى. وقد صور القرآن الكريم حياة ثمود الزراعية المستقرة في غابر الزمان، قال تعالى: « أتتركون في ما هاهنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم، وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين »[2] كما وصف المؤرخون المدن والقرى الزراعية التي كانت قبيل الاسلام، منها القرى المشهورة التي مرّ ذكرها، ومنها الواحات والقرى المنبثة في أنحاء من الجزيرة، وفي كتاب (أسماء جبال تهامة وسكانها) وصف لكثير من هذه القرى، قال المؤلف يصف قرية الصفراء: « قرية كثيرة النخل والمزارع وماؤها عيون

---

(١) مختصر الدول ـ ابن العبري ص ١٥٨ـ١٥٩ وكذلك طبقات الامم ـ صاعد الاندلسي ٦٥ـ٦٦

(٢) الشعراء الآيات ١٤٦ـ١٤٩

كلها ، وهي فوق ينبع مما يلي المدينة وماؤها يجري الى ينبع »[1]. وقال في وصف قرية السوارقية انها قرية « غناء كثيرة الاهل » وذكر حاصلات بني سليم : « فيها مزارع ونخيل كثيرة وفواكه ، من موز وتين ورمان وعنب وسفرجل وخوخ » ثم بيّن ما عندهم من ابل وخيل وشاء كثير[2]، وكذلك الامر في قرى كثيرة كالفُرع[3] وخيف سلّام[4] وغير ذلك ، وعلى كل حال فان الزراعة حرفة الحضر في المدن والقرى وما حولها . أما أبناء البادية فكانوا ينظرون الى الزراعة على انها عمل أهل الذلة والهوان، فهم ينالون أرزاقهم بأطراف القنا والسيوف ، يسعى للحرب منهم شباب مرد على خيل جرد ، وقد صور الاعشى هذه النزعة حين عيّر أياداً بالزراعة فقال :[5]

لسنا كمن جعلت أياد دارها　　تكريت تنظر حبها أن يحصدا

قوما يعالج قملا أبناؤهم　　وسلاسلا أجدا وبابا موصدا

ونظرتهم المترفعة هذه عن العمل الزراعي، جعلتهم قوما متكلين على الغيث ، متتبعين لمواقعه، فمتى اهتزت بقاع الارض وربت رعوا أنعامهم في زرعها ، وشربوا من ريها ، حتى إذا انسوا مراعي أُخرَ تتبعوها وسعوا اليها، فهي قوام حياتهم ـ بعد الغزو ـ وحياة أنعامهم وسواء عليهم أكانت تلك المراعي فى أرضهم وحماهم ، أم كانت

---

(١) اسماء جبال تهامة وسكانها ـ عرام بن الاصبغ السلمي ص ٨ ـ تحقيق عبدالسلام هارون ١٣٧٣هـ .

(٢) اسماء جبال تهامة ص ٦٥

(٣) المصدر السابق ص ١٩

(٤) نفس المصدر ص ٣٥

(٥) ديوان الأعشى ص ٢٣١ ط محمد حسين . اجدا : موثقة .

في أرض غيرهم ، ومثلهم في ذلك قول القائل[1] .

اذا سقط السماء بأرض قوم   رعيناه وإن كانوا غضابا

ولذلك نجمت الحروب ، وكثرت المعارك ، بسبب المراعي والمياه .

وقبل ان اذكر التجارة عمل العرب الكبير ، أود ان انتهى من ذكر الصناعة ، لانها ضيقة النطاق ، ومحصورة في الحواضر والمدن، وقليلا في البادية . ان البادية كانت تنظر الى الصناعة ـ نظرتها الى الزراعة ـ نظرة زراية واحتقار، ان نفوسهم لتأبى الامتهان بها، وكما عير الاعشى ايادا بزراعتها ، فقد عير عمرو بن كلثوم النعمان بن المنذر ـ وهو على ملك الحيرة ـ بأن امه من اسرة تمتهن الصياغة، قال عمرو :[2]

لحا الله ادنانا الى اللؤم زلفة   والأمنا خالا واعجزنا ابا

واجدرنا ان ينفخ الكير خاله   يصوغ القروط والشنوف بيثربا

وقد كان جرير ـ فيما بعد ـ يلح على الفرزدق بتذكيره ان احد أجداده كان قينا[3] . هذه عقلية البادية اما الحاضرة فنظرتها الى الصناعة أهون من ذلك وان كان الاشراف يترفعون في جاهليتهم عن الصناعة . وكان اليمنيون اعرق في الصناعة واكثر خبرة ودراية من المضريين ، فأهل اليمن صناع مهرة ، ومن الصناعات التي اجادها اليمنيون صنع الاسلحة من سيوف ورماح ودروع ، وقد شهرت

---

(١) الروض الانف ٢/١٧٤ ، والشاعر هو معاوية بن مالك معود الحكماء عم لبيد .

(٢) نهاية الارب ١/٨٢

(٣) النقائض ص ٤١٣ ط ليدن

بنسبتها الى صانعيهـا ، او الى أماكن صنعهـا ، فقالوا : السيوف اليمانية ، والرماح الردينية ، والقنا السمهرية .

وفي الشـمال كانت بعض الصناعات ، كنسج الثياب ، وعمل الزرود والسروج والصياغة ، وخاصة في مكة والمدينة .

اما البناء فما كان متقدما بشكل ملحوظ ، وكانوا يستعينون بعمال من الفرس والروم في تشييد ابنيتهم المهمة ، كتجديد الكعبة او توسيعها ، ويقال ان معاوية بن ابي سفيان لما اراد ان يبني دوره التي يقال لها (الرقط) في مكة ، حمل لها بنائين من فرس العـراق فكانوا يبنونها بالجص والاجر[1] ، وكذلك بنيت القصور في الحيرة كالخورنق والسدير .

اما التجارة فكانت المهنة المربحة التي عرفها العرب وبرعوا فيها ، وهي مهنة الحضر المتعلمين ، ولم تكن ظروف البادية ولا طباع اهلها تعين على ان يبرعوا فيها ، ولكن بعضهم كان يعمل دليلا يرشد القافلة ان تضل في مجاهـل الصحراء[2] ، او خفيرا حاميا يمنعها من النهب والغارة[3] . وقد نشطت التجارة اول الامر في اليمن فامتدت تجارتهم بين الهند شرقا الى افريقية غربا ، والى بلاد الشام والـروم شمالا ، حتى اذا مـا هدت السيول سد مأرب وساءت حركـة السوق واضطربت الاحوال السياسية ، كسدت التجارة وانتقل النشاط التجاري الى ايدى القرشيين في مكـة ، فكانت قوافلهم تجوب

---

(١) الاغاني ٢٨١/٣ ط الدار

(٢) المحبر ص ١٨٩ . والمغازي ـ الواقدي ص ٨٦ ط كلكتا .

(٣) المحبر ص ٢٦٤ ورسائل الجاحظ ص ٦٥ ط بولاق

الصحراء شمالا وجنوبا ، حيث رحلتا الشتاء والصيف الى اليمن شتاء والى الشام صيفا ، والى ذلك تشير الآية الكريمة : « لإيلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف »[1]. وكذلك تسير تجارتهم الى الحبشة غربا والى الحيرة وبلاد فارس شرقا ، وان فريقا من تجار قريش بلغوا بتجارتهم اقاصي بلاد العرب والعجم ، فهاشم متجره الشام ، وعبد شمس متجره الحبشة ، وعبد المطلب الى اليمن ، ونوفل نحو العراق[2].

ولا شك ان هذه الرحلات كانت تحيط بها المصاعب والمخاطر ، ولا تنتهي الى غاياتها الا بشق الأنفس ، وذلك لبعد الشقة ، ووعورة الطريق ومجاهل الصحراء ، وغارات اللصوص من ذؤبان العرب وصعاليكها ، وبخاصة من ذؤبان فهم وهذيل .

وقد كانت القوافل من الكثرة والضخامة بمكان حيث بلغت احداها خمسمائة والف بعير[3] كما بلغت احدى قوافل قريش الفين وخمسمائة بعير ومائة رجل - على ما ذكر الطبري[4] - ولاهمية هذه القوافل ، وكثرة حمولتها ودوابها ، فقد كانوا يؤمنون الطريق ، فيرسلون الرواد والمستطلعين قبل الرحيل ، حتى يتعرفوا اخبار الطريق ، كما حدث في غزوة بدر ، فقد علم اولئك الرواد أن المسلمين يتربصون بقافلة قريش فأسرعوا الى مكة واستنفروا أهلها[5].

وكانت هذه القوافل تحمل الطيب والبخور ، واللبان ، والجلود

(١) قريش ١-٢
(٢) المحبر ١٦٢ ، والسيرة ١/٤٧
(٣) المغازي ص ٢٠
(٤) الطبري ٢/٢٦١ ط الحسينية
(٥) السيرة ٢/٢٦٠

والثياب العدنية، وتوابل الهند، كل هذه البضائع من اليمن والهند وافريقية الشرقية، وتأتي من الصين الجلود والمعادن والحرير[1]، ومن الحبشة الرقيق والصمغ والعاج، ومن العراق وفارس التمر والشعير[2]. ويحملون من الطائف الزبيب، ومن مناجم بني سُليم الذهب، يحملون كل ذلك الى بلاد الشام، ويعودون حاملين الاسلحة والقمح والزيوت والخمر والثياب القطنية والكتانية والحريرية وغيرها[3].

وكانت قوافل قريش تحمل الفضة (او القزدير) حيث استولى المسلمون في غزوة بدر الموعد (سنة اربع للهجرة) على قافلة لقريش فيها اموال ابي سفيان بن حرب، ففخر بذلك حسان بن ثابت وعير قريشا الهزيمة، فلما كان يوم احـد، رد ابو سفيان بن الحـارث على حسان بقصيدة منها هذا البيت :

حسبتم جلاد القوم عند قبابهم
كمأخذكم بالعين ارطال آنك

فقال ابو سفيان بن حرب يعاتب ابا سفيان بن الحارث : « يا ابن اخي لم جعلتها آنك، ان كانت لفضة بيضاء جيدة »[4] من كل ذلك نعرف ان قوافل قريش كانت تحمل الغنى والثراء والمال النفيس.

وقد استطاعت قريش[5] ان تجعل من مكة مركزا تجاريا مهما،

(١) حضارة العرب ـ جوستاف لوبون ص ١٠٦

(٢) الكامل ـ ابن الاثير ٢/٢٢٨ ط ليدن

(٣) دائرة المعارف الاسلامية (مكة)

(٤) طبقات الشعراء ص ٢٠٨ ـ الانك : القزدير

(٥) لقد برعت قريش في التجارة وحذقت شئونها فسميت بهذا الاسم من تقرش المال قيل : (سميت بذلك لانهم كانوا اهل تجارة ولم يكونوا اهل ضرع وزرع، من قولهم فلان يتقرش المال، اي يجمعه (لسان العرب) (قرش) .

تكدست فيه الاموال و كثرت فيه الثروة ، وذلك لما كانت تتمتع به من مكانة دينية مقدسة ، لانها صاحبة البيت وسادنة الكعبة ، وأرضها حرام وحرمها آمن، لايحل فيه قتال ولا غزو[1]. وقد عقدت مع كل ذلك محالفات مع القبائل المجاورة ، ولم يكن بينها وبين غيرها ثارات وأحقاد، وما كانت تسمح لشعرائها أن يتعرضوا بالهجاء لغيرهم، بل هي تضرب على أيدي شعرائها الهجائين من مثل عبدالله بن الزبعرى، وتنكر أن يهجو بعضها بعضا[2]، ولم تعرف مكة بكثرة الخصومات والحروب ، فابن سلام يفسر قلة شعر المكيين في أنهم: (لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا)[3] ، اللهم إلا أن تدفع الى القتال دفعا كما حصل في حروب الفجار ، وقد استطاعت قريش أن تنشر الأمن والسلام في أرضها ، بحلف عقدته وأسمته (حلف الفضول) ، كل ذلك هيأ لها الجو الطيب كي تنشط تجارتها فترتاد الصحاري والبوادي في أمن وطمأنينة ، وهذا من فضل الله على أهل بيته ، فقد قال سبحانه : « فليعبدوا ربّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف »[4] . قال الزمخشري في تفسيره لسورة قريش : « وكانت لقريش رحلتان يرحلون في الشتاء الى اليمن ، وفي الصيف الى الشام ، فيمتارون ويتجرون ، وكانوا في رحلتهم آمنين لأنهم أهل حرم الله وولاة بيته ، فلا يتعرض لهم ، والناس غيرهم يتخطفون ويغار عليهم » قال تعالى : « أوَلم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقاً

(١) تاريخ اليعقوبي ١/٢٨ ط اوربا
(٢) السيرة ٢/٤١٨
(٣) طبقات الشعراء ص ٢١٧
(٤) قريش ٣–٤

من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون »[1]

وكان للأسواق الاثر الكبير في رواج التجارة وتبادل السلع ، وأهم الاسواق كانت تقام على مقربة من مكة ، كعكاظ ومجنة وذي المجاز ، والعرب تسعى الى هذه الاسواق من كل حدب وصوب ، ليشهدوا منافع لهم ، ويتناشدوا الاشعار ، ويذيعوا الخطب ، ويتحاكموا في خصوماتهم ، ويتفادوا الاسرى ، ويعقدوا الصلح ، أو يتفاخروا بالاحساب والمحامد والأمجاد .

ولم تكن هذه الأسواق محصورة في منطقة واحدة ، بل كانت تقام في قلب الجزيرة حينا وفي أطرافها في حين آخر ، وفي أوقات معينة معلومة ، ومن أسواقهم المهمة : سوق دومة الجندل في شمالي نجد ، وسوق خيبر ، وسوق الحيرة ، وسوق الحجر باليمامة ، وسوق صحار ودبا بعُمان ، وسوق المشقر بهجر ، وسوق الشحر ، وسوق حضرموت ، وسوق صنعاء وعدن ، ونجران ، وغير ذلك من الاسواق الكثيرة[2].

وقد كان لهذه الاسواق الاثر الكبير في تنشيط حركة التجارة وازدهارها ، كما كان لها الفضل في توافق العادات وحل المشاكل وامتزاج ثقافات امم مختلفة ، وقد ساعد كل ذلك على الرقي العقلي والحضاري .

(٤)

رأينا فيما مرّ بأن الحواضر كانت تعنى بالزراعة والصناعة والتجارة ، أما البوادي فما كان بمقدورها ذلك بل انصرفوا لاكتساب

(١) تفسير الكشاف ٤٨٧/٢ ط بولاق حجر ١٢٨١هـ وسورة القصص ٥٧
(٢) الازمنة والأمكنة ـ الباب الاربعون ص١٦١ـ١٧٠ وانظر المحبر ص٢٦٣

العيش من غير هذه الموارد - مرت جملة منها في سياق البحث - ونذكر هنا عنايتهم بالانعام مصدر الكسب والحياة ، وأهم حيوان البادية وأكثره نفعا وأشده احتمالا لقسوة الصحراء ، الابل . كانت الابل عماد الحياة عند العرب ، يأكلون من لحومها ، ويشربون من البانها ، ويكتسون من أوبارها ، ويصنعون بيوتهم منها ، وعليها يحملون أثقالهم ويرحلون ، قال الله سبحانه في ذكر الانعام وما جعل فيها من منافع لعباده : « والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تُريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم »[1] وقال سبحانه : « والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً الى حين »[2]. وقد أفاد العربي من الابل كل فائدة فلم يترك منها شيئا إلا وجعل لنفسه فيه النفع فقد صنع من جلدها الأخفاف والقرَب والسيور والأنساع ، واتخذ من عظامها ألواحاً يكتب عليها ومن بعرها وقوداً يصطلي بناره وينضج به طعامه ، وإذا اشتد المحل ونزل الجدب فكان يصنع من وبرها ودمها بعض الأطعمة مثل (العلهز)[3]. والابل عند العرب خير المال ، بها يقومون البضائع ويثمنونها ، وبها يتقايضون ويفتدون الاسرى ويدون القتلى ويدفعون المهور للزواج ، ويدفعونها عطايا حين تهتز أريحيتهم . وكما أفاد العرب من الابل هذه الفوائد الكثيرة

(١) سورة النحل ٥-٧
(٢) سورة النحل ٨٠
(٣) كتاب الاشربة - ابن قتيبة ص ٣٢

فكذلك عنوا بها عناية فائقة ، كانوا يطلبون لهـا أجود المراعي ، ويتخيرون مواطن الدفء لتوليدها ، واهتموا بأسمائهـا وصفاتهـا وحركاتها ، فوضعوا لكل عضو من أعضائها اسما بل اسماء . وكثر ذكرها في أساليبهم ، ودارت حولها تشبيهاتهم واستعاراتهم وضربوا بها الأمثال ، ونظموا فيهـا القصائد ، وخاطبوها وناجوها وبثوها اشجانهم وعواطفهم كما يبث الخل الحبيب .

كذلك عنوا بالخيل ، لانها من مظاهر العز والمنعة ، فهي عدتهم عند الغارة ، ومكسبهم في الغزو والحرب ، وكانوا يرسلونهـا على الطريدة وفي السباق ، وقد اهتموا بانسابها وانسالها وسموها بأسماء اشتقوها من صفاتها او الوانها ومن شياتها ، مثل النعامة والحرون ، وقرزل ، والجون ، وداحس ، والغبراء ، وغير ذلك . وكانوا يقربونها الى مساكنهم ويبنون لها الحظائر ويفضلونها في الطعام . وان احدهم ليجيع عياله ويؤثر فرسه بالطعام ، قال احدهم في فرسه (سكاب) :[1]

ابيت اللعن ان سكاب علق نفيس لا تعـار ولا تبـاع
مفـداة مكرمة علينـا يجاع لها العيـال ولا تجاع

وللعرب مكسب اخر من طيب الرزق هو الصيد ، فهم يدربون الكلاب خاصة على اصطياد الفريسة ومطاردتها ، ويتقنصون الحمر الوحشية والبقر والوعول والماعز الجبلي والظباء . ووحوش الصحراء الاخرى .

على ان الصيد كان مكسب الفقـراء والضعفاء ، اما الفرسان

---

(١) الصحاح (سكب) ١/١٤٨ ، بلوغ الارب ٢/٨١ .

وذوو الشرف ، فما كانوا يرون الكسب الا في الغزو والغارة ، الذي هو دأب ذوي البطولة والبسالة والشجاعة. ولذلك يهجو عمرو بن معد يكرب بني زياد ،لانهم اهل قنص وصيد ، وليسوا اهلا للحرب والقتال :[1]

أبني زياد أنتم في قومكم
ذنب ونحن فروع اصل طيب
نصل الخميس الى الخميس وانتم
بالقهر بين مربق ومكلب
حيد عن المعروف سعى أبيهم
طلب الوعول بوفضة وبأكلب

تلك أهم الموارد والمكاسب التي كان عرب البادية يتعيشون بها، وهم لا شك متفاوتو الرزق، منهم من يملك مئات من الابل والانعام، ومنهم المعدم الذي لا يكاد يجد قوت يومه وبخاصة اذا قل الغيث واحلت الارض واجدبت الديار ، على انهم كانوا يتقوتون بالقليل من الزاد والبسيط من الطعام فغذاؤهم الشعير بعامة ، وقد يضاف اليه التمر واللبن ، وقد يكون جل هم الرجل منهم ان يقيم اوده بالاسودين الماء والتمر :[2] .

الاسودان أبرءا عظامي   الماء والتمر دوا سقامي

ومن البدهي ان هذه الحياة القاسية من الشظف والحرمان ، قد

---

(١) الحيوان ٢/٣٠٩ ـ ٣١٠ الخميس : الجيش . المربق : الصائد بالربقة وهي العروة في الحبل . المكلب : الصائد بالكلاب . الوفضه : جعبة للسهام من ادم

(٢) المستطرف ـ الابشيهي ١/١٤١

اكسبت العربي الصبر وقوة الاحتمال والزهد، وقد اعتاد هذه الحياة الخشنة واصبح لايرضى بها بديلا، حتى انه حين جاء الاسلام وكثرت الفتوح، واستوطن بعض الاعراب في المدن، وتحسنت احوالهم المعيشية، نجدهم يسأمون حياة الحضارة، ويملونها، ويشتاق بعضهم حياة الجوع والقسوة والحرمان في الصحراء، قال قائلهم[1]

اقول بالمصر لما سائني شبعي   الا سبيل الى ارض بها جوع
الا سبيل الى ارض بها غرث   جوع يصدع منه الرأس برقوع

وقد ظلوا أبدا يحنون الى البادية، يحنون الى أهلها وهوائها ومياهها ورمالها وانعامها، وبهم عيمة الى البان ابلها[2]. يروى ان النابغة الجعدي دخل يوما على الخليفة عثمان بن عفان، فقال: «استودعك الله يا أمير المؤمنين، قال: واين تريد يا أبا ليلى، قال: الحق بابلي فأشرب من البانها، فانى منكر لنفسي، فقال عثمان: أتعربا بعد الهجرة يا أبا ليلى، اما علمت ان ذلك مكروه، قال: ما علمته وما كنت لاخرج حتى أعلمك»[3] نعم كان النابغة منكرا لنفسه يدفعه الحنين الى البادية حنين الغريب الى وطنه، وهو مايعرف اليوم بداء الوطن.

---

(١) عيون الاخبار ـ ابن قتيبة ٣/٢٢٢ ط دار الكتب ١٣٤٨/١٩٣٠ بالاصل (غرس) جوع برقوع: شديد

(٢) فتوح البلدان ـ البلاذري ص ٤٩١ ط أوربا

(٣) طبقات الشعراء ص ١٠٦ ـ ١٠٧ والاغاني ٥/١٠ ط الدار

الفصل الرابع

الحيـاة العقليـة

(١)

ان الصورة التي استقرت في كثير من الاذهان عن العصر الجاهلي، فيها كثير من الضلال والخطأ والاجحاف بحق ذلك العصر، فالذي يقرأ ما كتب ويكتب عن الجاهلية، يخيل اليه ان الامـة العربية كانت امة جهل وعمى، قد عزلت عن العالم وعاشت غارقة في بحر من البداوة والفوضى والتوحش وليس لها ماض مجيد يشدها اليه، ولا حاضر قويم يحيى فيها معاني المروءة والهداية[1]. وقد كان لذلك دافعان: حب الاسلام والغيرة عليه أولا، والشعوبية ثانيا.

لقد ذهبت طائفة من الكتاب المسلمين - بدافع من حرصها على الاسلام وغيرتها عليه - تتسقط كل هنة ومثلبة في طباع الجاهليين وعوائدهم، فتضخمها وتوسع خرقهـا، حتى غدت الجاهلية عندهم حياة مظلمة سوداء لا خير فيها ولا نفع في اهلها، ظنا منهم ان ذلك مما يرفع من قدر الاسلام، والاسلام في غنى عن هذه المغالاة، لانه لا شك في انه رفع العـرب طبقات وبرأهم من الوثنيـة وكثير من

(١) ينظر فجر الاسلام (طبيعة العقلية العربية) ٣٥ حتى ٥٨.

الشرور . على ان العرب في الجاهلية كانوا مستعدين الى ان ينهض بهم الاسلام تلك النهضة العظيمة ، فقد كان منهم عقلاء سارعوا الى الاسلام، فكانوا حماته ،والامناء عليه، وناشري الويتة في الخافقين، وأولئك هم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجنوده من أئمة المسلمين ، وقد كان في تلك البيئة من المثل العليا في المروءة والكرامة والشرف والحياء والغيرة والايثار والنجدة والوفاء،ما اقرها الاسلام وشجع عليها ، وان الاسلام حين جَبَّ رذائل الجاهلية كان قد اقر فضائلها ،وبارك في كثير من عوائدها التي توافق الاسلام ولا تضاده . هذا هو الدافع الاول الذي نسب للجاهلية كل بدعة والصق بها كل منقصة .

أما الدافع الاخر فهو : الشعوبية التي حمل الفرس رايتها ، ثاراً لماضيهم المهان وحمية لدينهم الذي عفّى عليه الاسلام ، فما فتئوا منذ غدروا بالخليفة الثاني عمر بن الخطاب يكيدون للعرب ويفترون على تاريخهم وماضيهم ، بل لم يسلم حتى الاسلام من بدعهم وضلالاتهم حيث ادخلوا فيه ما هو بريء منه من مظاهر المجوسية ، وشعائر المانوية، وشذوذ المزدكية . وكانت الجاهلية أقرب تلك السبل اليهم ، فنسبوا لأهلها كل ضلالة وجردوهم من كل مكرمة، ولابي عبيدة ، وعلاّن الشعوبي ، وبشار ، في ذلك اليد الطولى [1].

وما زال بعض الباحثين من شرقيين ومستشرقين يرددون تلك الأقوال السقيمة على الرغم من تعاقب الاعصار ، يقول خدا بخش

---

(١) ينظر العقد الفريد ٢/٨٧-٨٩

غامزاً شرف العرب :[1]

« لقد كانت الناحية الخلقية عند الجاهليين في أشد اوقات جزرها قبيل الاسلام فلم يكن اخلاص الرجل لزوجته شديدا ، وكان يدعوها الى معاشرة غيره من الرجال » أما رينان فيجرد العرب من كل مكانة سياسية وثقافية ودينية[2] . ويقول آخر : « ان العصر الجاهلي عصر ظلام حالك »[3] الى غير ذلك مما يقال .

ولا أريد هنا أن أضفي على العرب أكثر مما لديهم ، وأصفهم بصفات ليست فيهم ، بل أريد أن اقول: إن العرب امة من الامم لها فضائلها ورذائلها ، مثلما لكل الامم والشعوب فضائل ورذائل، ولها كذلك نصيب من الحضارة والمعرفة في عهدها الغابر ، فقد ورثت الجزيرة تراثا جليلا خلفته الأجيال العربية ، حيث نجد المعالم الناطقة بالمجد العريق ، وبخاصة في القسم الجنوبي من بلاد اليمن السعيدة . فقد قامت دول معين وسبأ وحمير، وفي الحجْر حيث وجدت لحيان وثمود، وفي بطرا ازدهرت دولة الأنباط . والقرآن الكريم - وكفى به شاهداً - يصف دولة سبأ وما كانت عليه من ترف ونعمة ، قال تعالى: « لقد كان لسبأ في مسكنهم آيةٌ جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة وربٌ غفور »[4] .

وقد أشاد المعنيون بالحضارة الشرقية من الاوربيين ، فشهدوا

---

(١) Khuda Bukhsh : Contributions to the History of Islam Civilization. V. I. P. 171.

(٢) حضارة العرب ـ جوستاف لوبون ص ٩٧

(٣) Mohammad Ali : Mohammad the Prophet. P. 6.

(٤) سبأ ١٥ .

بعراقة تلك الحضارة وأثرها فيما حولها من الامم ، يقول سايس « لم يكن المسلمون الذين انطلقوا في الجـزيرة العربية ، وفتحوا العـالم المسيحي ، وأسسوا الممالك ، الا من نسل اولئك الذين كان لهم قديما أثر عميق في مصير الشرق »[1] وكذلك يدهش هومل لما كان لعرب الجنوب من قلاع وحصون ونقوش ، وأثر حضارتهم في العبرانيين واليونان[2] .

وحال العرب في جاهليتهم الاولى - وحتى قبل الاسلام - تنقض الصورة الخاطئة التي جعلت المجتمع الجاهلي معزولا متأخراً ، لا يرتبط بأسباب الحضارة والعمران ، ولم يتأثر بالامم المجاورة .

لقد كان العرب الجاهليون على صلة وثيقة بحضارة العالم القديم ، فضلًا عن حضارتهم العريقة ، وقد كانت الصلات قائمة بين العرب وغيرهم من فرس وروم وهنود ، وكان من مظاهر ذلك إمارة المناذرة في العراق والغساسنة في الشام ، اللتان أتاحتا لثقافة الفرس والروم أن تدخل الجـزيرة وتمتزج بثقافة العرب . وقد اتيح للعرب الكثير من الوسائل التي جعلتهم يفيدون من خبرات الامم الاخرى وعلومهم ، فمن ذلك : الاسواق والمواسم التي كانت تقام في انحاء مختلفة من الجزيرة ، كانت الاسواق ملتقى العرب على اختلاف منازلهم وثقافاتهم يقصدها التجار - من العـرب والعجم - من تجار فارس ، والـروم ، والهند ، والصين ، فيكون الاخـذ والعطاء وتبادل المتـاع ، ومن البدهي أن تلتقي الثقافات والعقول ، فيفيد بعض من بعض من الخبرة والصناعة والعلم ، وحتى العادات والتقاليد .

---

(١) A. H. Sayce : Early Isreal. p. 128.

(٢) تاريخ العرب قبل الاسلام - جواد علي ٢/٢٧٧ وما بعدها .

وقد ذكر محمد بن حبيب : ان كثيراً من تجار الامم المحيطة ببلاد العرب كانوا ينتقلون الى الجزيرة كما تفعل تجار فارس والروم حينما توافي بسوق المشقر ، يقطعون اليها البحر ببياعاتها[1] .

وقال ابو علي المرزوقي : « ثم يرتحلون منها (من صحار) الى دبا ، وكانت احدى فرض العرب يجتمع بها تجار الهند والسند والصين واهل المشرق والمغرب ، فيقوم سوقها آخر يوم من رجب فيشترون بها بيوع العرب »[2] .

والعرب انفسهم كانوا يسافرون الى بلاد الروم والفرس والاحباش ، منهم التجار الذين يحملون بضائعهم الى اقاصي البلاد ، ومن اولئك تجار قريش كهاشم وكان متجره الى الشام وقد مات بغزة ،وعبد شمس ومتجره الى الحبشة، وعبد المطلب ومتجره الى اليمن ونوفل ومتجره الى العراق، وهؤلاء هم اصحاب الايلاف من قريش[3] .

وكان من العرب من يتعرض لعطاء الملوك ، كالشعراء ، ورؤساء القبائل ، وذوي الفصاحة المتصلين بالملوك المنادمين لهم ، وما ذكر النابغة وحسان في مجالس المناذرة والغساسنة بمنكر ، وقد عرفت منادمة الربيع بن زياد للنعمان بن المنذر ، وقصة وفد بني عامر وبلاء لبيد في مجلس النعمان[4] . وان صحت رواية وفود العرب على كسرى وخطبهم في ذلك فرحلتهم تشمل مجموعات كبيرة من العرب ، غير مقتصرة على الافراد . وكان من العرب من ساح في الارض طلبا

---

(١) المحبر ص ٢٦٣ وما بعدها

(٢) الازمنة والامكنة ١٦٢/٢

(٣) المحبر ١٦٢ والسيرة ٤٧/١

(٤) الاغاني ٩٢/١

للهداية والعلم ، مثل زيد بن عمرو بن نفيل ، الـذي شك في الاوثان ورحل يطلب دين ابراهيم حتى بلغ الموصل وجال في الشام[1] ، والحارث ابن كلدة الثقفي الذي تعلم الطب وضـرب العود بفارس واليمن[2] ، وغير هؤلاء كثير .

وكان من اسباب التمازج الحضاري في المجتمع الجاهـلي ايضا ، الجاليات الاجنبية التي كانت تفد الى الجزيرة فتمكث فيها زمانا ، وقد يتخذ بعضهـا الجزيرة موطنـا ومقاما ، وطبيعي ان هؤلاء من جنسيات واديان مختلفة ، وعقليات وثقافات متباينة ، فمنهم النصراني واليهودي ، والمجوسي ، ومنهم الـرومي ، والحبشـي ، والفارسي والهندي[3] . ومن هؤلاء من جاء مبشرا بدين كالنصاري الذين اقاموا البيع والصوامع والاديرة في المدن والقرى ، ومنهم من جاء طالبـا الربح والتجارة ، او العمل والكسب ، او التجسس على العرب في ديارهم[4] . ولا شك ان كثيرا من هؤلاء كان مكسبه عن طريق نشر اللهو والمجون في الحانات ، حيث الخمر والغناء والرقص .

ومن تلك الصلات ، وذلك التمازج البشري بين العرب والاقوام الاخرى ، افاد العرب وكسبوا ثقافتين : الاولى ورثوها عن اسلافهم ، والثانية اقتبسوها من الامم المجاورة .

---

(١) السيرة ٢٦/١ والاغاني ٢٦/٣ ط الدار

(٢) طبقات الامم ـ صاعد الاندلسي ص ٧٤ ط السعادة

(٣) دائرة المعارف الاسلامية (مكة) وفي المحبر ص ٣٠٦ ـ ٣٠٨ ذكر لأبناء الحبشيات . وفي اسد الغابة ذكر للروم والروميات انظر مثلا ٢١٢/١ ، ٢٣٢/٤ ، ١٩٤/٥ .

(٤) Oleary : Arabia before Mohammad. p. 39.

وقد استطاع مؤلفو المسلمين، على بعد الشقة، ان يحفظوا للمتأخرين جوانب من معارف الجاهلية وعلومهم، كما حفظ الشعر الكثير من تلك المعارف.

(٢)

لقد كان للعرب علم بالنجوم ومواقعها ومسالكها والوانها ومطالعها وانوائها، وعرفوا منها أوقات الخصب، وأزمان المحل، ومهب الرياح، وسقوط المطر، واهتدوا بها في ظلمات الليل، قال الجاحظ: «وعرفوا الانواء ونجوم الاهتداء، لان من كان بالصحاصح الاماليس - حيث لا امارة ولا هادي مع حاجته الى بعد الشقة - مضطر الى التماس ماينجيه ويؤديه، ولحاجته الى الغيث، وفراره من الجدب، وضنه بالحياة، اضطرته الحاجة الى تعرف شأن الغيث، ولانه في كل حال يرى السماء وما يجري فيها من كوكب، ويرى التعاقب بينها، والنجوم الثوابت فيها. وما يسير منها مجتمعا، وما يسير منها فاردا، وما يكون منها راجعا ومستقيما»[١].

وكذلك يقول صاعد الاندلسي: «كان للعرب معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها، وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها، على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة، لاحتياجهم الى معرفة ذلك في أسباب المعيشة»[٢]. ويذكر ابن قتيبة: ان العرب أفادوا مما عند الكلدانيين (الصابئة عبدة الكواكب)، وبين أسماء البروج

(١) الحيوان ٦/٣٠

(٢) طبقات الامم ص ٤٥ بيروت

والكواكب في العربية والكلدانية شبه كبير فبرج الثور هو (ثورا) في الكلدانية والجدي (كديا) والمريخ (مرادخ) وهكذا ، أما السرطان فنفسه في اللغتين[1] ، واشتهرت بعض القبائل بخبرتها الواسعة بمواقع النجوم وأنوائها مثل قبيلة مُرَّة ، وبني حارثة بن كاب ، وكثر ذكر الكواكب في الشعر ، كالفرقدين والسماكين ، وبنات نعش ، والشعرى ، والجوزاء ، والعيوق ، وغيرها . وكان نظرهم دقيقاً ثاقباً في المطر والرياح ومهابها ، والسحاب وأشكاله ومواسمه ، واللغة العربية غنية بأسماء السحب وانواع الرياح وضروب القطر ، وقد افرد ابن قتيبة لذلك كتاباً (الأنواء)[2] - نقلنا عنه قبل قليل - كما الف ابو زيد كتاب (المطر)[3] ، وعقد الثعالبي فصلًا في كتابه (فقه اللغة)[4] اسماه (الآثار العلوية) ، تحدث فيه عن الرياح والسحب والامطار والرعود والبروق وما الى ذلك . وقلما يخلو من هذه الموضوعات كتاب من كتب اللغة .

وكان للعرب المام بالطب والبيطرة ،وهي جملة معارف وخبرات توارثها الناس خلفا عن سلف ، ومن الطبيعى الا يكون طبهم قائما على العلم المنظم الدقيق ، بل هي معارف وملاحظات قد يصاحبها الخطأ في كثير من الاحايين ، وقد تدخل الخرافة والرقى في بعض ما لا يعرفون يقول ابن خلدون في ذلك :

---

(١) كتاب الانواء فى مواسم العرب فى صفحات متعددة ط شارل بيلا ١٩٥٦/١٣٧٥

(٢) المصدر السابق

(٣) طبع الكتاب لويس شيخو سنة ١٩٠٨ ضمن البلغة فى شذور اللغة

(٤) فقه اللغة وسر العربية ص ٤٠٣

« وللبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص ، متوارثة عن مشايخ الحي وعجائزه ، وربما يصح منه البعض ، إلا أنه ليس على قانون طبيعي ، ولا على موافقة المزاج »[1] . ومن تلك الخرافات التي أشرنا اليها ظنهم أن دم السادة يشفى من الكلب، وان عظام الميت تشفى من الجنون، وقد استخدموا في طبهم الكي بالنار حتى قالوا (آخر الدواء الكي) والتداوي بشراب العسل ، وعصارات بعض النباتات البرية ، وغير ذلك . وقد عرف منهم بعض الأطباء الحاذقين ، كالحارث بن كلدة الثقفي[2] (توفي ١٣هـ) الذي تعلم الطب في بلاد فارس ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر من يمرض من أصحابه أن يأتيه ويستوصفه[3] ، وكذلك ابن حذيم التيمي الذي ضرب المثل في خبرته ومهارته بالطب ، فقالوا « أطب من ابن حذيم »[4] .

وكان لعناية العرب بالخيل والابل أن برعوا في البيطرة ، فعرفوا عيوب الحيوان وعاهاته وأدوائه، وقد هدتهم الحاجة ، ودقة الملاحظة أن عرفوا كل الأمراض والأعراض التي تصيب الحيوان ، فالتمسوا لكل داء دواء . وقد تحدث الجاحظ عن معرفة العرب بالبيطرة فقال:

« كثيراً ما يبتلون بالناب والمخلب ، وباللدغ واللسع والعض والأكل ، فخرجت بهم الحاجة الى تعرف حال الجاني والجارح والقاتل ، وحال المجني عليه والمجروح والمقتول ، وكيف الطلب والهرب ، وكيف

(١) المقدمة ص ٢١٤ ط مصر .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) طبقات الامم ص ٧٤ والأخبار الطوال ـ الدينوري ص ١٢٢ ط جوتنجن.
(٤) مجمع الأمثال ٢/٥٢ ط بولاق .

الداء والدواء ، لطول الحاجة ولطول وقوع البصر ، مع ما يتوارثون من المعرفة بالداء والدواء »[1] .

وكان للعرب خبرة واسعة بالخيل وبصر دقيق بشياتها وأوصافها ، وما يستحب منها وما يذم فيها ، وقد عنوا بسلالاتها وعرفوا أنسابها ، وفرقوا بين العتيق منها والهجين ، وعرف في ذلك سلمان بن ربيعة الباهلي المعروف بسلمان الخيل ، وكان سلمان يميز العتيق من الخيل من هجينها بطول العنق ، فقد روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، شك في العتاق والهجن من الخيل « فدعا سلمان بطست من ماء ، فوضعت بالارض ، ثم قدم الخيل فرساً فرساً ، فما ثنى منها سنبكة فشرب جعله هجينا ، وما شرب ولم يثن سنبكه جعله عتيقا وذلك لأن في أعناق الهجن قصراً فهي لا تنال الماء على تلك الحال حتى تثنى سنابكها ، وأعناق العتاق طوال »[2] . وكان الناس يعجبون بسلمان الباهلي ومن المعجبين به لبيد الشاعر ، فقد ذكره في احدى أراجيزه ، مبينا فضل الله عليه بنعمة البصر بالخيل[3] .

ومن معارف العرب التي هداكم اليها الذكاء ، وخصب القريحة ، وصفاء الذهن : الفراسة والقيافة . فالفراسة : الاستدلال بمظهر الانسان وشكله وسلامة أعضائه ، على أخلاقه وصفاته وطباعه . والقيافة : تتبع الأثر في الأرض لمعرفة آثار الانسان أو الحيوان ، ولهم في ذلك حذق وبراعة ، فكانوا يعرفون أثر من ضل منهم أو من

---

(١) الحيوان ٦/٢٩ .

(٢) ديوان لبيد ص ٣٣٧ ط الكويت .

(٣) ديوان لبيد القصيدة ٥٨

حيوانهم ، أو طريق عدوهم حين يهرب منهم دالجا في الليل أو سائراً في النهار .

ومن معارفهم - التي يداخلها الظن والمصادفة - العيافة والزجر والطرق بالحصى ، وهي ضرب من التنبؤ - كالكهانة - بمعرفة حركات الطيور والتيمن بها أو التطير منها ، وقد اشتهر منهم بنو أسد وبنو لهب حتى قال قائلهم :[1]

خبير بنو لهب فلاتك ملغيا مقالة لهبي إذا الطير مرت

وقد أوضح الجاحظ جانباً من ذلك فقال : « وأصل التطير من الطير إذا مر بارحا وسانحا ، أو رآه يتفلى وينتف ، حتى صاروا إذا عاينوا الاعور من الناس أو البهائم ، أو الاعضب أو الابتر زجروا عند ذلك وتطيروا »[2] . وما كان كل العرب على هذه الشاكلة في زجر الطير وضرب الحصى ، بل كان منهم من ينكر ذلك ويتعقل مثل لبيد الذي يقول :[3]

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى

ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وكانت عنايتهم بالأنساب ومعرفة الاصول والأحساب ، قد فاقت كل معرفة ، حيث دعتهم العصبية الى أن يحفظوا بدقة كل ما يتعلق بأنسابهم وأيامهم وأخبارهم ، وقد رويت عن كثرة حفظهم وسعة معرفتهم أقاصيص تدعو الى العجب ، فهم يصلون أنسابهم بالأب

(١) شرح ابن عقيل ٢/١٥٤

(٢) الحيوان ٣/٤٣٨ وما بعدها . والبارح : الميامن والسانح : المياسر .

(٣) ديوان لبيد ص ١٧٢

الاكبر عدنان أو قحطان ، ويقسمون مراتب النسب الى : فصائل ، وأفخاذ ، وبطون، وعمائر ، وقبائل ، وشعب. وقد عرف من مشهوري نسابيهم : دغفل بن حنظلة الشيباني ، وزيد بن الكيس النمري وابن لسان الحمرة ، وغيرهم ، كما عرف أبو بكر الصديق بسعة علمه بالأنساب والأيام[1] .

وكما حرصوا على معرفة أنسابهم واصولهم ، الموا بأخبار ايامهم وتاريخ اسلافهم ، وما وقع لهم ولغيرهم من الامم القديمة ، وقد ظهرت تلك المعارف والأخبار في الشعر ، كقصة الفيل وحرب داحس والغبراء ، وحرب البسوس ، ويوم ذي قار ، وحروب الفجار ، وعرفوا سير الملوك في اليمن ، والحيرة ، والشام ، كما عرفوا أخبار الفرس وحروبهم وملوكهم ، وذلك بسبب اختلاطهم بتلك الامم عن طريق الأسواق والتجارة والرحلات . فقد عرف عن النضر بن الحارث انه كان يذهب الى الحيرة يتعلم من أهلها أخبار الفرس وأساطيرهم ، وسير ملوكهم وقوادهم ، مثل رستم واسفنديار وكسرى ، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً ـ في مكة ـ فدعا فيه الى الله تعالى . وتلا فيه القرآن ، وحذر قريشا مما أصاب الامم الخالية ، خلفه النضر في مجلسه إذا قام ، فحدثهم عن رستم واسفنديار وملوك فارس ، ثم يقول : « والله ما محمد بأحسن حديثاً مني ، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبتها »[2]

على أن معرفة العرب بالأخبار والأحداث التاريخية لم تكن

---

(١) السيرة النبوية ١٦٥/١ ط عبد الحميد ١٣٨٣/١٩٦٣ والبيان والتبيين ٧٦/٤ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر وانظر الاغاني ١٣٨/٤ والاستيعاب ٣٢١/١ .

(٢) السيرة ٣٥٨/١ ط شلبي ورفاقه .

معرفة دقيقة ، بل هي عرضة للتزيد والتحريف ، فان تلك الاخبار كانت متداولة بين النـاس بالرواية الشفهية والرواية تقبل الخطـأ والتحريف .

وللعرب بعد ذلك حكم بالغة تمثل خبرتهم في الحياة وتجاربهم فيها ، وقد صاغوها بعبارات قصيرة مأنوسة ، كان النـاس ـ وما زالوا ـ يتمثلون بها ، لأنهـا تفصح بصدق عن مكنونات النفس البشـرية بعامة . وقد حفظت كتب الأمثال طائفـة جليلة منها ، ولعل خير ما ألف من كتب الامثال : كتاب العسكري (جمهـرة الامثـال) والميداني (مجمع الامثال) والزمخشرى (المستقصى في الامثال) . هذا غير ماجاء عند الشعراء من حكم شاعت وصارت مما يستشهد بها الناس في كل زمـان ، كحكم زهير ولبيد وطرفـة وعبيد بن الأبرص والأفوه الاودي وغيرهم . وقـد ذكر الجاحظ جمهوراً من حكماء العرب وذوي الدهاء واللسن، فقال : « ومن القدماء ممن يذكر بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنكراء : لقمان بن عاد ولقيم بن لقمان ، ومجاشـع بن درام ... ولؤي بن غالب وقس بن ساعدة وقصي بن كلاب ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء : أكثم ابن صيفي ، وربيعة بن حذار ، وهرم بن قطبة وعامر بن الظّرب ، ولبيد بن ربيعة »[1] وكانوا يكتبون تلك الحكم ويحفظونها كما فعل سويد بن الصامت الذي رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيده صحيفة فيها حكم لقمان ، وقال الرسول عليه السلام عما فيهـا : « ان هذا الكلام حسن والذي معي أفضل منه ، قرآن أنزله الله تعالى علي

(١) البيان والتبيين ٣٦٥/١ ط عبدالسلام هارون .

وهو هدى ونور »[1] .

وعلى كل حال ، لم تكن حكم العرب وأمثالهم نتيجة تفكير فلسفي بعيد ، وانما هي نظرات وخبرات ، صادرة عن طبيعة حياتهم ، ومثلهم ، ونظرتهم الى الحياة والموت ، ومصير الناس ، والخير والشر ومعاتبة الدهر ، وهي مع كل ذلك ، تصوير صادق أمين لفطرتهم السليمة ، ونفسيتهم الواضحة البسيطة التي لا يشوبها ولا يعيبها تعقيد أو غموض .

---

(١) سيرة ابن هشام : ٢/٢٩٠ ط عبدالحميد .

الفصل الخامس

الحيـاة الدينية

(١)

لقد عرف العهد الجاهلي بالعهد الوثني عهد الشـرك وعباة اصنام من دون الله . غير ان النظرة الفاحصة الممحصة ، تكشف ان وثنية ذلك العهد، لم تكن ـ كما قد يظن ـ اعتقادا متينا بالاصنام، فقد كان كثير منهم ، وبخاصة الاعراب ، يسخرون منها ويهزأون بها[1] . ولم يكونوا يؤمنون بان هذه الاوثان والاصنام[2] خالقة مدبرة قادرة ، ولم يكن الشرك اشراكا في وحدانية الله ، فالدلائل تشير ـ ويكفى ان يكون القـرآن قد نص على ذلك ـ الى ان عرب الجـاهلية كانوا يؤمنون بالله الواحد القوي الخالق الذي بيده الامر ، وكان اتخاذهم الاصنام على انها وسائط وشفاعات تقربهم الى الله سبحانه ، فالشرك هنا يلحظ من تقديس اصنام تنسب لها القدرة على الشفاعة لا الشرك في وحدانية الله . قال صاعد الاندلسي : « وجميع عبدة الاوثان من العرب موحدة الله تعالى . وانما كانت عبادتهم ضربا من التدين بدين

---

(١) الاصنام ـ ابن الكلبي ص ٣٧

(٢) يفرق بين الصنم والوثن فى ان الاول يكون على هيئة تمثال. والوثن يكون حجرا وقد يسمى الصنم بالوثن ايضا ؛ انظر الاصنام ص ٣٣ و ٥٣ فى تحديد كل منها

الصابئة في تعظيم الكواكب والاصنام الممثلة بها في الهياكل، لا على ما يعتقده الجهال بديانات الامم واراء الفرق، من ان عبدة الاوثان ترى ان الاوثان هي الآلهة الخالقة للعالم، ولم يعتقد قط هذا الرأي صاحب فكرة ولا واربه صاحب العقل، ودليل ذلك قول الله تبارك وتعالى « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى »[1] وقال تعالى في صفة الجاهليين الذين يتقربون اليه باصنامهم : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله »[2] وقد جاءت الآيات الكريمة لتدل على ايمانهم بالله الخالق القادر الواحد الذي بيده امر كل شيء. قال تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله »[3]، « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون »[4] « قل من يرزقكم من السماء والارض أمن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الامر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون »[5].

وقد عبّر أوس بن حجر في بيت عن اعتقاده بالله الذي هو اكبر من كل المعبودات، مع اقراره باحترام اللات والعزى، قال :[6]

وباللات والعزى ومن دان دينها
وبالله ان الله منهن أكبر

---

(١) طبقات الامم ـ صاعد بن احمد الاندلسي ص ٢٤ وسورة الزمر ٣
(٢) سورة يونس ١٨
(٣) لقمان ٢٥
(٤) الزخرف ٨٧
(٥) يونس ٣١
(٦) الاصنام ص ٧ وانظر عن التوحيد في الشعر الجاهلي (الحياة العربية) للدكتور الحوفي ص ٤٠٢ ـ ٤١٧

وهذا النابغة الذبياني يقسم بالله الذي ليس وراءه شيء ولا اكبر منه :[1]

حلفت فلم اترك لنفسك ريبة   وليس وراء الله للمرء مذهب

ونجد في الشعر الجاهلي الدلائل الكثيرة الواضحة الصريحة التي تؤكد ايمان الجاهليين بالله وتوحيده والقسم به ، وانه خالق الخلق وواهب النعم . يقول عبيد بن الابرص :[2]

حلفت بالله ان الله ذو نعم   لمن يشاء وذو عفو وتصفاح

وقد آمنوا بان الله هو الحافظ الذي يلوذ الناس برحمته ، قال افنون التغلبي :[3]

لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقي
اذا هو لم يجعل له الله واقيا

وان الله يجزي على العمل الصالح ، قال ابو قيس بن الاسلت :[4]

أجرت مخلدا ودفعت عنه   وعند الله صالح ما اتيت

ويقول زهير بان الله عالم الغيب ، ومطلع على الضمائر واسرار النفوس :[5]

فمن مبلغ الاحلاف عني رسالة
وذبيان هل اقسمتم كل مقسم

---

(١) ديوان النابغة ص ٥٦ ط السعادة . العقد الثمين ص ٥

(٢) ديوان عبيد ص ٢٤ ط ليال لقد ذهب بعض المستشرقين الى ان الرواة المسلمين وضعوا لفظة الجلالة في شعر الجاهليين مكان كلمة (اللات) . وهذا فرض بعيد فيه كثير من التعسف ينظر تاريخ العرب قبل الاسلام ـ جواد علي ٦/٣٠٥

(٣) المفضليات ٥٢٣ ط ليال

(٤) الاغاني ١٤/٣ ط الدار

(٥) ديوان زهير ص ١٨ ط الدار

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم

ليخفى ومهما يُكتم اللهُ يعلم

ويقسم آخر بالله عالم الاسرار ومحيي العظام البيض وهي رميم: [1]

اما والذي لا يعلم السر غيره

ويحيي العظام البيض وهي رميم

لقد كنت اختار القرى طاوي الحشا

محافظة من ان يقال لئيم

وفي بيت حاتم السابق ايمان بالبعث والحساب فالله يحيي الخلق بعد موتهم وان كانوا عظاما، وقد اوضح لبيد بان للناس يوما يقفون فيه بين يدي الله، وتكشف اعمالهم، وتجزى كل نفس ما كسبت: [2]

وكل امرىء يوما سيعلم سعيه

اذا كُشّفت عند الاله المحاصل

وكذلك يذكر علاف بن شهاب التيمي فكرة الحساب والثواب والعقاب يقول: [3]

ولقد شهدت الخصم يوم رفاعة

فاخذت منه خطة المغتال

وعلمت ان الله جازٍ عبده

يوم الحساب بأحسن الاعمال

واذا كان هذا ايمان العرب بالله ووحدانيته وقدرته فكيف

---

(١) شرح الحماسة للمرزوقي ١٧١٥/٤

(٢) ديوان لبيد ص ٢٥٧

(٣) بلوغ الارب ٢٧٧/٢ ط ٢ ١٩٢٤ – ١٣٤٣

كانوا يوفقون بين هذا الايمان وبين تقديس اوثان واصنام، واشراكها في العبادة والتقديس مع الله سبحانه ؟ ان للعرب في ذلك تعليلات لا يخلو بعضها من منطق مقبول، فهم يقولون : « ليس لنا اهلية لعبادة الله تعالى بلا واسطة، لعظمته فعبدناها (اي الاصنام) لتقربنا اليه تعالى »[1] ومنهم من يقول : « جعلنا الاصنام قبلة لنا في عبادة الله تعالى، كما ان الكعبة قبلة في عبادته »[2].

واذا ما عرفنا كيف بدأ تقديس الاصنام وعبادتها نستطيع ان نتبين الاسباب التي جعلت غمار الناس يتشبثون بها ويبتعدون عن دين التوحيد الاول دين الفطرة - دين ابيهم ابراهيم[3]. وكذلك نستطيع ان نعرف طبيعة تلك العقلية المحافظة المكابرة، التي وقفت بعنف وشدة بوجه الدين الاسلامي في بيئته الاولى. قال هشام بن محمد الكلبي : « وكان الذي سلخ بهم الى عبادة الاوثان والحجارة، انه كان لا يظعن من مكة ظاعن الا احتمل معه حجرا من حجارة الحرم، تعظيما للحرم وصبابة بمكة، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة، تيمنا منهم بها وصبابة بالحرم، وحبا له، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون على ارث ابراهيم واسماعيل عليهما السلام »[4] وبمرور الزمان نسي الناس العلة في تقديس

(١) بلوغ الارب ٢/١٩٧ ط ٢

(٢) المصدر السابق ٢/١٩٧

(٣) ينظر هنا تاريخ العرب قبل الاسلام - جواد علي ٥/٢٠ حيث يذكر رأي رينان في أن العرب موحدون بطبيعتهم مثل سائر الساميين .

(٤) الاصنام ص ٦ وهناك آراء اخرى منها قصة عمرو بن لحي، والذي أثبتناه هنا، اقرب الى طبيعة العرب .

الحجارة، على أنها أثر من آثار الكعبة وذكرى لها ، فانتقل التقديس للحجر نفسه ، وتطور الحجر الى صنم ، ثم بدأت الظنون بعد ذلك في خير هذا الصنم وشره ، وكلما امتد العهد واستطال الزمان ، احيطت هذه العبادة بهالة من الغموض المقدس . والناس - منذ كان الناس - تحن الى الموروث الذي تلفه الاسطورة ويكتنفه الغموض ، وقد استحكمت العادة في نفوسهم ، فصاروا يتمسكون بها وينزلونها منهم مكانة فضلى .

والملاحظ أن أهم بيئة رسخ فيها الدين ، وتمسك أهلها بالاصنام هي مكة ، قلعة الدين ومجمع أصنام العرب ، بينما نجد أن المناطق الاخرى أقل حماسة لعبادة الاوثان، وبخاصة البادية التي تنظر الى هذه العبادة نظرة غير جادة ، فكثيراً ما يثور الأعرابي على صنمه حينما تتضارب أهواء العابد والمعبود ، من ذلك ما يروى عن رجل من العرب - وتروى لامرىء القيس ايضا - قُتل أبوه فأراد الطلب بثأره، فأتى ذا الخلصة فاستقسم عنده بالازلام ، فخرج السهم ينهيه عن ذلك فقال :[1]

لو كنت ياذا الخلصَ الموتورا   مثلي وكان شيخك المقبورا
لم تنــه عن قتل العــداة زورا

وأتى رجــل من بني ملكان الى سعد - صخرة طويلة بأرضهم - بأبل معه يلتمس البركــة ، فلما رأت الابل ما على الصخرة من الدم

(١) الاصنام ص ٣٥ والسيرة ٩١/١ وانظر حول ضعف الوثنية في أواخر العصر الجاهلي الحياة العربية ٢٧٧ وما بعدها وينظر هنا رأي نيكلسون حول عدم مبالاة العربي بالدين .

Aliterary Hist. of the Arabs. p. 135.

المهـراق ، نفرت وتفرقت في كل وجه ، فأخذ حجراً رمى به سعداً ثم أنشد : [1]

أتينـا الى سـعد ليجمع شملنا
فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سـعد إلا صخرة بتنوفـة
من الارض لايدعى لغيّ ولا رشد

وقد جرت العادة ان يتبع الناس هذا الدين، دون ان يجرأوا على الشك بجدوى هذه العبادة .

(٢)

هذا شأن الكثرة من عرب الجاهلية ، وقد عرفت في ذلك العهد فئة من المستبصرين الذين كانوا يترفعـون عن عبادة تلـك النصب والتماثيل وكانوا يتطلعون الى دين التوحيد ، دين ابراهيم ، على أنه الدين المبرأ من الشك، وقد عرفت تلك الفئة بـ (الأحناف) ودينهم بـ (الحنيفية) [2]. وكانوا قد اعتزلوا الاوثان ، وعافوا الميتة والدم والذبائح التي تذبح على النصب لغير الله ، وقال في ذلك قائل منهم : « أني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل الا ماذكر اسم الله عليه » [3] ، كما سخطوا على الخمـر وعافوا شربها ، وقد عاف

---

(١) الاصنام ص ٣٧ والسيرة ٤/٨٥ .

(٢) انظر في الحنيفية وأثرها في شعراء الجاهلية فون كريمر (حول اشعار لبيد)
Von Kremer: Ueber die Gedichte des Labyd. p. 8.

(٣) السيرة النبوية ١/٢٣٧

(٤) هو زيد بن عمرو بن نفيل . صحيح البخاري ٥/٥٠

الخمر ايضا غير هؤلاء من عقلاء العرب ترفعا عما يؤول أمر شاربها الى المهانة والسفه[1] . وقد عرف من الاحناف رهط كبير ، منهم : زيد بن عمرو بن نفيل ، وقس بن ساعدة ، وصرمة بن أبي أنس ، وامية بن ابي الصلت ، وخالد بن سنان العبسي ، وورقة بن نوفل ، وغيرهم[2] .

ولم تكن الحنيفية امتداداً أو تقليدياً لليهودية او النصرانية ، بل لم يكن بين الديانتين والحنيفية صلة او وشيجة ، وان اطلع بعض رجال الحنيفية على دين اليهود او النصارى ، على النقيض مما يبالغ بعض الكتاب وبخاصة رجال الدين النصارى[3] ، وانما هم على دين العرب القديم دين ابراهيم ، وما كان ابراهيم من اليهود أو النصارى كما نص على ذلك كتاب الله العزيز : « ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً »[4] ، وكذلك لم يكن من المشركين : « إن ابراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين »[5] ، والحنيف هو المسلم (حنيفاً مسلماً) ، قال تعالى : « ثم اوحينا اليكَ

(١) مر بنا ذكر من عاف الخمرة من الجاهليين فى الحياة الاجتماعية .

(٢) المعارف ـ ابن قتيبة ص ٢٧ـ٢٩ ط الاسلامية وانظر حول الاحناف وافكارهم جواد علي ـ تاريخ العرب ٥/٥٦ـ٦٠ و ٦/٢٨٩ـ٢٩٥ .

(٣) لويس شيخو فى شعراء النصرانية ، وقد حاول باطلا ان يقحم اكثر الشعراء الجاهليين ممن ذكروا الله فى النصرانية . وينظر فى هذا الموضوع راي بلاشير فى الاحناف وعلاقتهم بالمسيحية والمانوية تاريخ الادب العربي ١/٦٨ ترجة ابراهيم كيلاني. وينظر كذلك رأي نيكلسون فى الاحناف وعلاقتهم بالمسيحية .
Alit. Hist. of the Arabs. p. 149.

(٤) آل عمران ٦٧

(٥) النحل ١٢٠

ان اتبع ملةَ ابراهيم حنيفاً »[1] ، وجاء في حديث رسـول الله صلى الله عليه وسلم : « بُعثت بالحنيفية السمحة »[2]، وكذلك قوله عليه السلام : « أحب الاديان عند الله الحنيفية السمحة »[3] ، وجاء ذكر الحنيفية في الشعر بنفس دلالة المسلم ، قال عبدالله بن أنيس :[4]

وقلت له خُذها بضربةِ ماجدٍ   حنيفٍ على دين النبيّ محمـد

وكذلك في أبيات لأمامة المزيرية تقول :[5]

تكذب دين الله والمرء احمـدا

لعمر الذي امناك ان بئس مايمنى

حباك حنيف آخر الليل طعنةً

ابا عفكٍ خذها على كبر السن

وهكذا يتضح من هذه النصوص ان الاسلام والحنيفية على شرعةواحدة شرعةالتوحيد والايمان بالله الواحدالاحد، وما الوثنية الا تشويه لدين ابراهيم وتحريف له وخروج عليه .

لقد كانت الوثنية اهم الاديان التي عرفتها الجـزيرة ، واكثرها شيوعا وانتشارا ، وقد شهدت الجزيرة ادياناً اخـرى غير الوثنية ، كاليهودية والنصرانية ، ولم يكن لاتباع هاتين الديانتين كبير اثر في الجاهليين ، اذ لم تستطع اية منهما ان تدحر الوثنية ، او ان توسـع نفوذها .

---

(١) النحل ١٢٣

(٢) طبقات ابن سعد ١/١٢٨ وكذلك ٢/٢٨٧

(٣) اللسان ١٠/٤٠٤ وانظر ابن سعد ٣/٢٨٧

(٤) السيرة ٢/٥٨ ودائرة المعارف الاسلامية (حنيف) .

(٥) السيرة ٩٨٢ ودائرة المعارف الاسلامية (حنيف) .

فأما اليهودية: فقد جاء اليهود الى الجزيرة بعد أن طردهم واضطهدهم قياصرة الروم فالتجأ كثير منهم الى الحجاز واليمن[1]. وقد استطاع اليهود في اليمن منذ عصر متقدم ان يهودوا احد ملوك التبابعة وهو ذو نواس، ويحرضوه على التنكيل بنصاري نجران وتحريقهم بالاخدود، والى ذلك تشير الآية الكريمة: «قتل أصحاب الاخدود النار ذات الوقود اذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد»[2]. على انه سرعان ما استطاع الاحباش النصارى القضاء على ذي نواس سنة ٥٢٥ وحينذاك كسرت شوكة اليهود في اليمن، ولم يبق لهم شأن يذكر هناك. وقد عرف من يهود اليمن كعب الاحبار ووهب بن منبه وكلاهما اسلم وكان لهما يد طولى في الاسرائيليات التي شاعت بين المسلمين.

وفي الحجاز نزلت قبائل كثيرة من اليهود. اهمها بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع وبنو بهدل، واستوطنوا في يثرب وخيبر ووادي القرى وتيماء، وقد نزل الاوس والخزرج بجوارهم ثم استطاعوا الاستيلاء على يثرب، وكان همّ اليهود وجهدهم بعد ذلك ان يوقعوا بين القبيلتين العربيتين، ويثيروا الضغائن وينبشوا الاحقاد، فوقعت

(١) لم يقطع المؤرخون بزمن دخول اليهود الجزيرة ولا الظروف الواضحة في ذلك، ينظر تاريخ العرب قبل الاسلام ٦/٢٤ حول يهود اليمن و ٦/٩ - ١١ حول يهود الحجاز وانظر الحياة العربية حول اليهودية ١٣٦ - ١٤٢ وحول النصرانية ص ١٤٢ - ١٥٠ وقد استبعد الدكتور الحوفي ان يكون ذانواس صاحب الاخدود ١٥١ - ١٥٤

(٢) سورة البروج ٤ - ٨

بهم حروب وايام ودماء حتى جاءهم الاسلام برحمته فانجاهم من كيد يهود. وحين وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم، الكتاب في المدينة لينظم أمور المسلمين، ويحدد علاقتهم بغيرهم، وادع اليهود وأمنهم، فقال عليه السلام: «وانه من تَبِعَنا من يهود فإن له النصرة والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم»[1]، وقد أقرهم على دينهم وأكرمهم، وجعلهم والمسلمين في مقام واحد، متناصرين[2]. إلا أن اليهود أبوا إلا الغدر والخيانة ونقض العهد، فناصروا المشركين على المسلمين، وكادوا للمسلمين كل كيد، وقد كان القرآن الكريم لهم بالمرصاد، يفضح كيدهم ويكشف باطلهم، حتى قامت الحرب بين المسلمين واليهود، فكان النصر لدين الله والهزيمة لأعدائه المنافقين.

ولم يستطع اليهود أن يتركوا آثارا واضحة في عرب الجزيرة[3]، بل كان تأثير العرب فيهم واضحا متميزا، فقد تعرب فريق منهم كيهود يثرب وخيبر ووادي القرى وفدك وتيماء، واصطنعوا اللغة العربية لغة الحديث، وظهر فيهم بعض الشعراء الذين نظموا في العربية كالسموأل بن عادياء في الجاهلية، وكعب بن الأشرف وجبل بن جوال وسماك اليهودي في الاسلام[4].

هذا مجمل ما لليهودية في الجزيرة، أما النصرانية فقد انتشرت عن

(١) السيرة النبوية ١/٥٠٣.

(٢) المصدر السابق والصفحة

(٣) على خلاف ما يحاول ان يثبته بعض المستشرقين من تأثير اليهود فى العرب وفي الدين الاسلامي. انظر تفصيل ذلك فى تاريخ العرب قبل الاسلام ـ جواد علي ٦/٨٩ـ٩٤ وكذلك ٦/١٧٧ والحياة العربية ص ١٤٠ وما بعدها وانظر كذلك المرأة فى الشعر الجاهلي ص ١١ـ١٤.

(٤) السيرة ٢/١٩٧ وما بعدها.

طريق الروم والحبشة ونصارى الحيرة ، وقد اعتنقت بعض القبائل العربية النصرانية ، مثل عاملة وجذام وكلب وقضاعة من الغساسنة في الشام ، وفي العراق تغلب وأياد وبكر ، والعباد في الحيرة . وكان نصارى الشام يعاقبة أو (منو فيستيين) وهم القائلون بأن للمسيح طبيعة واحدة ، وينسب هذا المذهب الى يعقوب البرادعي المولود حوالي سنة ٥٠٠ للميلاد . أما نصارى العراق فقد كانوا نساطرة[١] نسبة الى نسطوريوس المتوفى سنة ٤٥٠ للميلاد ، وهو يرى أن للمسيح طبيعتين أو اقنومين : اقنوم الناسوت واقنوم اللاهوت[٢]. اما في اليمن فكان في نجران نصارى على مذهب اليعاقبة - كالحبشة والغساسنة -[٣]. اما في مكة فكان هناك رقيق حبشي من النصارى[٤]، ويذكر اوليري[٥] ان في مكة جالية من نصارى الروم .

وابرز شاعر عرف للنصارى في الجاهلية : عدي بن زيد العبادي ، الذي سقطت في شعره اسماء ومصطلحات نصرانية ، وان ظهرت هذه الاسماء والمصطلحات عند شعراء جاهليين من غير النصارى . ومهما يكن من شيء ، فان النصرانية - على الرغم من انتشارها - لم تكن لتترك آثاراً واضحة في حياة العرب[٦] الجاهليين او دينهم ، لأن

(١) اسباب النزول - الواحدي ص ٢١٨

(٢) حول المذاهب النصرانية ينظر تاريخ العرب قبل الاسلام - جواد علي ٦/٦٨ وما بعدها .

(٣) اسباب النزول ص ٢١٨ ط مصر بعناية احمد صقر

(٤) المصدر السابق ص ٢١٢

(٥) O'leary: Arabia before Mohammad. p. 184.

(٦) انظر المرأة في الشعر الجاهلي ص ٢٢-٢٤ حيث يبين سبب ضعف النصرانية وقلة تأثيرها في العرب .

النصارى انفسهم لم يكونوا قد تعمقوا دينهم وتمسكوا به بدقة واخلاص، فقد كان دينهم مشوبا بالوثنية ، ذلك ان تعاليم النصرانية كفكرة التثليث وحياة المسيح وغيرها لم تظهر في الشعر الجاهلي ، وكل ما هناك اسماء خاصة بدينهم كالصليب والناقوس والبيعة وغيرها ، وان ذكر هذه الامور لا يدل على ايمان متمكن عميق ، بقدر ما يدل على وصف امور مشاهدة ، وهذا عدي بن زيد الشاعر النصراني لا يرى حرجا في ان يقسم برب الكعبة الوثنية ، كما يقسم برب الصليب ، يقول :[1]

سعى الاعداء لا يألون شرا علي ورب مكة والصليب

وقد عرفت الجزيرة العربية مع هذه الاديان - الوثنية واليهودية والنصرانية - عبادات اخرى كثيرة ، منها : المجوسية التي دخلت عن طريق الحيرة الى العراق ، فانتشرت في بعض القبائل كقبيلة تميم . والمجوس ثنوية يؤمنون بالهين يدبران العالم هما : اله الخير واله الشر . او النور والظلمة[2] .

وظهرت عبادة الكواكب عند بعض القبائل - وهي لا شك من اثر الصابئة وبقايا الكلدانيين - فيقال ان كنانة عبدت القمر ،وان فريقا من قريش وخزاعة ولخم عبدت نجم الشعري[3] ، وقد جاء في قوله تعالى :«وانه هو رب الشعرى»[4] تبكيتا لهم لما كانوا ينسبون

(١) الاغاني ٢/١٠١ ط الدار

(٢) تاريخ العرب قبل الاسلام ٦/٢٨٤ وما بعدها .

(٣) مروج الذهب - المسعودي ٣/١٢٠

(٤) سورة النجم ٤٩

الى هذا النجم من القدرة. ويقول اوليري:[1] ان العزى تمثل كوكب الزهرة واللات رمز للشمس، وقد عبدت الشمس[2] في اليمن، فقد كانت ملكة سبأ وقومها يسجدون للشمس من دون الله، وقد حكى القران ذلك على لسان الهدهد حين اخبر سليمان عليه السلام: «وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون»[3] وقد عرف من اسمائهم: عبدشمس وعبدالعزى. كما عرفت جماعة منهم باصحاب الدهر، وقد حكى القرآن الكريم عقيدتهم بقوله: «وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر»[4]. وهؤلاء ينكرون الخالق والبعث والجزاء، ويرون أن العالم لا يخرب. ولا يبيد والا كان مخلوقا مبتدعا، قال شداد بن الاسود بن عبدشمس، يرثي كفار قريش يوم بدر[5].

يخبرنا الرسول لسوف نحيا وكيف لقاء اصداء وهام

الى غير ذلك من الديانات والعبادات[6].

هذه الديانات المختلفة، من موحدة او مشوبة بالشرك، متمسكة بدينها او معتادة عليه، مقدسة للوثنية، اوساخطة عليها، وتلك

---

(١) O'leary: Arabia before Mohammad. p. 194.

(٢) انظر فى عبادة الكواكب والقبائل التى عبدتها الحياة العربية ٤٢٠ – ٤٢١

(٣) سورة النمل ٢٤

(٤) الجاثيه ٢٤

(٥) السيرة ٢/٢٩

(٦) انظر عبادات اخرى عرفت فى الجزيرة فى كتاب تاريخ العرب قبل الاسلام القسم الديني.

الحياة المضطربة المختلة ، وكل ذلك كان يدل على ان الفترة فترة قلق وارهاص وتطلع لشيء جديد تتوقعه النفوس ، وتهفو اليه الافئدة دون ان تعي تلك النفوس والافئدة ، كيف ومتى يحدث او يكون[1] . وقد كان لذلك الارهاص اسبابه وعوامله التي ساعدت على دنو زمانه وتعجيل حينه ، من ذلك ان الفترة التي سبقت الاسلام تميزت بامور ، منها : وعي سياسي وميل الى التكتل ، كما حدث في قبائل مملكة كندة ، والمحالفات الكثيرة التي عقدت بين القبائل الاخرى . وكان للاسواق الاثر الفعال في توكيد الشعور المشترك والمشاركة العاطفية وتبادل الافكار وتصفية كثير من المشاكل والاحقاد . وهناك الخطر الخارجي الذي يتمثل في اطماع الفرس والبيزنطيين والاحباش ان يسيطروا على الجزيرة ، فاستيقظ الشعور المشترك بالمصير الواحد ، وكان انتصار قبائل عربية على الفرس في موقعة ذي قار – على الرغم من ان بعض القبائل كانت مع الفرس – عاملا آخر في يقظة العرب وشدهم نحو الاتحاد .

ويلاحظ كذلك الحاجة الى اقامة العدل والامن واجتماع الكلمة ، وبخاصة في مكة حيث اقيم (حلف الفضول) للانتصاف من الظالمين ، وانصاف المظلومين ، وهذا يعني ، الرغبة في اقامة عدالة اجتماعية تردع الطائشين والمتهورين . ثم ارتباك الاحوال الاجتماعية التي عرفت

(١) من ذلك كان تطلع الاحناف ، فقد روت الاخبار ان زيد بن عمرو بن نفيل مر بامية بن ابي الصلت فقال له : (ياباغي الخير هل وجدت ؟ قال لا ، ولم اوت من طلب . قال: ابى علماء اهل الكتاب الا انه منا او منكم او من اهل فلسطين) ، طبقات الشعراء ص ٢٢٠ والاغاني ٤/١٢٢ ط الدار .

بمكة خاصة ، من تفشي الاستغلال والربا والغش واكل اموال اليتامى والقسوة على الضعفاء والعبيد .

لهذا كله ولما يتصل به اثر في ان يتطلع الناس الى حركة تهز هذا المجتمع وتقضي على ما فيه من شرور ونظم فاسدة وعقائد مضطربة[1] ، فجاء الاسلام في تلك الفترة انجع علاج واسمى نظام وأكرم عقيدة واعظم تشريع ، فلم يلبث العرب ان عارضه بعضهم وهش له بعضهم . ثم لم يلبثوا جميعا ان أقبلوا على اعتناقه والامتزاج به وتفديته بأعز ما يملكون .

---

(١) ليس معنى هذا ان الاسلام كان امتدادا لفكرة بين الناس عمل النبي على اظهارها وتوكيدها كما قد يزعم من ينكر فضل الرسول وقدسية الوحي ، ولكن الاسلام ، كان استجابة لضرورة قائمة جاءت فى حينها الموقوت من لدن رحيم عليم ، كتب على رسوله ان يبشر وينذر ويتحمل فى سبيل الله ضروبا من الارهاق واللجاجة والاذى .

الباب الثاني

الشعر الجاهلي

مقدمة
الباب الثاني

الشعر الجاهلي مرآة الحياة العربية ، والصورة الصادقة لعادات العرب وتقاليدهم ومثلهم ، فيه من القيم الفنية والصور الجميلة الرائعة والمعاني الدقيقة الموحية ما يجعله يعد بحق ذروة الشعر العربي ، وقد كان القدوة المثلى التي يحتذيها الشعراء في العصور الاموية والعباسية ، يسعون الى تقليده ومحاكاته ، وقد بقي أثر الشعر الجاهلي واضحا في شعر العصور المتأخرة وما زال له سلطانه في نفوس قارئيه وسامعيه ، لما فيه من أصالة وجمال في التعبير ودقة في المعاني ونضج فني وموسيقي ولغوي كبير •

وقد رأيت ـ منذ تفتح ذهني للحياة الادبية ـ في الشعر الجاهلي الصدى النفسي الذي يشدني اليه بوشائج وأسباب ، فأحببته وآثرته واستجبت له بدراسات جامعية ، كان أولها كتابي عن « شعر المخضرمين » فقد عنيت بشعراء الفترة التي سبقت الاسلام بقليل وامتدت صدرا من الدعوة الاسلامية ، فدرست اتجاهات الشعر وصوره ومعانيه وأساليب التعبير فيه • وكان ثانيها الدراسة الموسعة عن « لبيد بن ربيعة العامري » آخر شعراء المعلقات وأكبر شعراء فترة المخضرمين ، درست الشعر الجاهلي من خلال شعره وموضوعاته وذلك بمقارنته بشعراء عصره وموازنة شعره بشعر الجاهليين وكان ثالث تلك الدراسات بحثا عن « الجاهلية » هو في حقيقته مقدمة لدراسة الادب الجاهلي تكشف الحياة العامة في العصر الجاهلي وتعين على فهم الادب وتوضح قضاياه وتفسر ظواهره •

وقد رأيت أن تكون هذه الدراسة مكملة للدراسات التى سبقت لتوضح أهم القضايا التى رافقت الشعر الجاهلى ، وتبرز الجوانب الفنية فيه ، وتبين حصائصه وميزاته ، وقد حاولت فى هذه الدراسة ان اتجه الى الشعر مباشرة دون الحاجة الى اثارة قضايا البيئة والعصر واللغة والسكان كى تكون خالصة للشعر مؤكدة النواحى الفنية فيه ، فان الدراسات التى قامت حول الادب الجاهلى على كثرتها لم تعن ـ الا قليلا ـ بالجوانب الفنية ، فأكثر الذين كتبوا فى تاريخ الادب أو حول الشعر والشعراء الجاهليين ، كانوا يصرفون الجهد فى دراسة الحياة الجاهلية من الناحية السياسية والعقلية والاقتصادية والدينية واللغوية ، ويهتمون بجغرافية البيئة والتاريخ والقبائل ، فاذا جاءوا الى الشعر كان جهدهم ينصرف الى الترجمة للشاعر او عرض نماذج من شعره غير متورعين عن اطلاق الاحكام العامة التى تصدق على كل شاعر فى الجاهلية والاسلام .

وقد أستثنى بعض الدراسات القليلة التى جاءت فيها ضروب من العناية بالنواحى الفنية من ذلك : مقالات الدكتور طه حسين فى « حديث الاربعاء » حول الشعر الجاهلى ودراسة الدكتور شكرى فيصل « تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام » وكتاب الدكتور النويهى « الشعر الجاهلى منهج فى دراسته وتقويمه » .

وقد اعتمدت فى هذه الدراسة النصوص الشعرية أساسا ومنطلقا فى الحكم على الشعر الجاهلى ومن ثم تحكيم المصادر واستنطاقها ، ومن خلال هذه النصوص تعرفت على طبيعة الشعر وخصائصه ودلالاته وظواهره ، فالشعر هو الوثيقة الصادقة التى تبين وتفصح عن مشاعر واحساسات وعواطف قائليه ، وكذلك تبين المثل والقيم والطبائع والعادات والتقاليد .

والدراسة الحصيفة الجديرة بالشعر القديم هى التى تقوم على فهم الشعر والادب وفق منطق قائليه واذواقهم وقيمهم ومقاييس الجمال لديهم ، لا وفق المنطق الحديث والنظرة المعاصرة ، فمن الحيف والخطل ان تطبق ثقافة العصر الحديث ومفاهيمه وذوقه على شعر قيل فى عصر مغاير وبيئة مختلفة وزمن سحيق يمتد فى أعماق الماضى ، فلكل عصر ذوقه ولغته ومنطقه ونظرة أهله الى الفن والحياة .

ويقوم هذا البحث على ثلاثة فصول متواصلة متكاملة : قضايا الشعر ، وخصائصه ، وفنونه .

ففى قضايا الشعر : تناولت نشأة الشعر وقدمه واكتماله ونضجه وأثره فى نفوس العرب الجاهليين بحيث نجده يصوغ أخلاق العرب ومثلهم ويوجهها نحو مثل عليا وقيم مشتركة ، ووقفت عند رواية الشعر واتصال هذه الرواية فى الجاهلية والاسلام وازدهارها فى العصر الاموى حتى تصل الى عصر الرواة والمدونين جماع الشعر فى العصر العباسى ، وتحدثت عن الرواة فى أكبر مدينتين للعلم هما البصرة والكوفة ومدى الثقة بهم وطبيعة الرواية فى كل مدينة ، وقد استوجب ذكر الرواية الى توثيق الشعر والاطمئنان الى صحة ما يروى ، فعرضت لقضية الانتحال وكيف أرساها النقاد الاقدمون وعلى رأسهم ابن سلام على أسس راسخة ثم عرضت لهذه القضية عند المستشرقين والعرب المحدثين الذين قالوا بالانتحال والذين ردوا عليهم وفندوا آراءهم ، وكانت قضية الانتحال هذه قد اتصلت ببعض القصائد الطوال التى عرفت بالمعلقات ، فتحدثت عن هذه القصائد وعددها وقصة التعليق وقيمتها اللغوية والفنيــة .

أما فى خصائص الشعر فقد استخلص الصفات البارزة والسمات الدقيقة

التى تفرق الشعر الجاهلى عن غيره ، فتحدثت عن الطابع البدوى وأثر البيئة فى الشعر ، والواقعية والوضوح وصور هذه الواقعية التى تمثلت فى البساطة والتعبير الموجز المباشر ، وظاهرة التجسيم والتشخيص ، والتصوير المادى ، وجرائر هذه النزعة المادية وفوائدها فى الشعر ، ثم تناولت التصوير فى الشعر وصفة الصورة الجاهلية كمالها وشمولها وظاهرة اللون والحركة والاستعانة بضروب المجاز ، ونظرت فى بنية القصيدة وتكوينها وترتيب اجزائها فى القصائد الطويلة ، ووقفت عند المطالع والمقدمات والبدء بالديار وتفسير ذلك ، ثم تحدثت عن الوحدة الموضوعية ومدى انطباقها على الشعر الجاهلى •

أما فنون الشعر ، فقد درست الفنون الغالبة على الشعر الجاهلى وبينت طبيعة كل فن وميزاته وقارنت بين شعر الشعراء فى الفن الواحد ، وقد عمدت الى النصوص المعبرة الموحية لشعراء شتى ولم أقف عند النماذج الشائعة كثيرا، اذ الشيوع ليس دليل الجودة دائما ، ففى المجاميع الشعرية كثير من الشعر الجيد لشعراء ما كان لهم حظ من الذيوع والشهرة •

وبعد : فأرجو أن أكون فى هذه الدراسة الموجزة قد أضأت جوانب من الشعر الجاهلى جديرة بالعناية والتأمل ، ولست أزعم انى بلغت الغاية التى كنت أصبو الى بلوغها ، ولكنى حاولت وسعيت ، فلعلى قد حققت بعض ما فى النفس من رغبة وأديت بعض ما على من حق الادب واللغة والتراث العربى المجيد •

الفصل الأول

قضايا الشعر الجاهلي

قضايا الشعر الجاهلي

الشعر الجاهلي قديم موغل في القدم ، مر بأطوار وأزمان طويلة ، كان في عهد بداية وطفولة ، ثم نما وترعرع حتى استوى قصيدا متينا على يد امرىء القيس واضرابه من فحول الجاهلية ، ولا بد أن يكون للشعر تاريخ طويل قطع فيه أشواطا من الصناعة والدربة حتى استقام واكتمل على هذا الشكل الموزون المقفى ، ذى الاسلوب الموجز الجميل ، والخيال الخصب ، والتعبير الدقيق الذى لا لغو فيه ولا تطويل ، وفى لغته المتينة الجارية وفى أصول متبعة فى ذلك الشعر ، وان المعلقات التى بلغت مرتبة كبيرة من النضج الفنى ، ونالت اعجاب القدماء والمحدثين ، كانت نتيجة دربة ومران طويل فى صناعة الشعر (١) •

ولم يكن هذا الفن الكلامى عمل فرد أو بضعة أفراد ، بل كان عمل أجيال متعاقبة ، وجد بعض ابنائها فى انفسهم المقدرة على صوغ أفكارهم واحساساتهم فى ألحان وأوزان تهتز لها النفس وفق ما تعارف الناس فى التعبير اللغوى •

(١) ليال : الشعر العربي القديم ص ٣٧

وينظر فى أولية الشعر الجاهلى : الحياة العربية من الشعر الجاهلى ـ الحوفى ص ١٧٤ ـ ١٧٩ والعصر الجاهلى ـ شوقى ضيف ص ١٨٣ ـ ١٨٨ •

وليس من المستطاع تحديد فترة معينة لبدء تلك المحاولات ، ولكن ما بأيدى الرواة من الشعر الجاهلى يرقى عهده الى مائتى سنة على الاكثر ، وهذا هو التحديد الذى قرره الجاحظ حين قال : « وأما الشعر فحديث الميلاد صغير السن ، وأول من نهج سبيله وسهل الطريق اليه امرؤ القيس بن حجر ، ومهلهل بن ربيعة .. فاذا استظهرنا الشعر ، وجدنا له ـ الى ان جاء الله بالاسلام ـ خمسين ومائة عام ، واذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتى عام » (٢)، والجاحظ هنا يعين عمرا للشعر الذى عرف وهو ناضج مكتمل ، أما ما قبل ذلك ، فلا يمكن أن يُحدّ بفترة قليلة كهذه ، فهناك مئات من السنين مر بها الشعر حتى وصل مكتملا الى مهلهل وامرىء القيس وعنترة ، وغيرهم .

وفى الشعر نفسه من الدلائل الواضحة على انه مسبوق بكلام كثير ومحاولات عهدها طويل ، فامرؤ القيس يحاكى من قبله فى الوقوف على الديار والبكاء عليها (٣) :

عوُجا على الطَّلل المحيلِ لأننا

نبكي الديارَ كما بكى ابنُ خذامِ

ويقول عنترة ان الشعراء الاقدمين تناولوا شتى المعانى فلم يتركوا للمتأخرين معنى صالحا (٤) :

هل غادر الشعراءُ من مُتردَّمِ

أم هل عرفت الدارَ بعد توهُّمِ

(٢) الحيوان ١/٧٤ .
(٣) ديوان امرىء القيس ص ١١٤ .
(٤) ديوان عنترة ص ١٨٢ .

وهذا اقرار واضح بأن عنترة مسبوق بأجيال من الشعراء ، استنفدوا المعانى الجيدة والتعابير الجميلة فلم يغادروا معنى لم يطرقوه .

وهذا الشعر الذى عرفه العرب عند الشعراء الجاهليين ، وجد قريبا من الكمال ، حائزا على أسباب الجمال والاتقان ، لفظا ومعنى وعروضا ، حتى ان الشعراء المولدين لم يستطيعوا ان يضيفوا اليه جديدا بارعا ، فلم يزيدوا على البحور الجاهلية شيئا ، ولم يتمكنوا من تغيير نهج القصيدة ، ومهما كانت تلك المحاولات التى بذلت للخروج على عمود الشعر فى العصر العباسى ، فانها انتهت بالعودة اليه (١) ، ولم يضيفوا الى موضوعات الشعر الجاهلى شيئا ذا بال ، ويصدق هنا قول ابن رشيق القيروانى فى المقارنة بين شعر الجاهليين وشعر الاسلاميين : « وانما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين ، ابتدأ هذا بناء فاحكمه واتقنه ، ثم أتى الاخر فنقشه وزينه ، فالكلفة ظاهرة على هذا وان حسن ، والقدرة ظاهرة على ذلك وان خشن » (٢) .

هذا الشعر الخصب الزاهى الجزل المتين ، نزل من النفس العربية منزلا رفيعا ، فهو عند العرب سجل العواطف والمآثر والمفاخر ، والشعر يصور حقيقة أهله ونفسية قائليه بكل ما لهم من بطولات وأمجاد ، وبأس وشدة ، وعصبية وغضب ، وكرم ووفاء ، يصور خصال الخير كما يبين دواعى الشر ، ويسجل أيامهم ووقائعهم وأصولهم وأنسابهم ، فهو على ذلك ديوانهم ، يقول

---

(١) لقد حصر المرزوقى أبواب عمود الشعر فى سبعة مظاهر فقال : « انهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، والاصابة فى الوصف — وفى اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الامثال وشوارد الأبيات — والمقاربة فى التشبيه ، والتحام اجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن ، ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما . فهذه سبعة أبواب هى عمود الشعر ولكل باب منها معيار .. « شرح الحماسة ١/٩ وينظر نقد النثر ص ٨٤ » .

(٢) العمدة ١/٩٢ .

أبو هلال العسكري : « كذلك لا نعرف أنساب العرب وتواريخها وايامها ووقائعها الا من جملة اشعارها ، فالشعر ديوان العرب وخزانة حكمتها ، ومستنبط آدابها ومستودع علومها » (٣) • فهم لذلك اذا اعتزوا بمكرمة أو نصر أو حادث سجلوا ذلك فى قصيدة ، فهى أبقى على الدهر من كل عمل ، وأخلد من كل أثر ، وهذه سنة العرب فى تخليد مآثرهم ، وفى حيوان الجاحظ : « فكل أمة تعتمد على استيفاء مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الاشكال ، وكانت العرب فى جاهليتها تحتال فى تخليدها بأن تعتمد فى ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى ، وكان ذلك هو ديوانها » (٤) وكذلك ذهب ابن سلام : « وكان الشعر فى الجاهلية ديوان علمهم ومنتهى حكمهم به يأخذون واليه يصيرون ••• قال عمر بن الخطاب : كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه •• » (٥) • فالشعر على ذلك من أبرز وأوضح المظاهر الادبية ، لانه كان بلورة وتمثيلا للروح العربية وتعبيرا عنها ، والصفحة الواضحة التى أفصحت عن الحياة الجاهلية بكل مظاهرها ، وبخاصة تلك المظاهر الكبرى التى كانت موضع عنايتهم ، ثم هو الى ذلك العمدة التاريخية لتسجيل الاحداث وتصوير المواطن •

ولمنزلة الشعر فى نفوس العرب وشغفهم به ، صار له كبير الاثر فى توجيه مشاعرهم واهوائهم ، فقد حبب اليهم خصال الخير ورغبهم فى الفضائل والمكرمات ، وكره اليهم خصالا ذميمة من البخل والغدر والجبن ولتحبيبه لخصال وتنفيره من أخرى جعل الاذهان ترتبط برغبات ، والنفوس تتعلق بأمنيات موحدة مشتركة ، فللشعر النصيب الاوفى فى توحيد مشاعر العرب وتشابه طباعهم وعاداتهم ومثلهم ، وصقل لغتهم وتوحيد لهجاتهم كذلك • وعلى

---

(٣) الصناعتين ص ١٣٨ •
(٤) الحيوان ١/٧١ ـ ٧٢ •
(٥) طبقات الشعراء ص ٢٢

الرغم مما كان يحدث بين القبائل من خصومات وغزوات كثيرة ، فان ذهنية العرب متجاوبة ، وهم يلتقون عند مثل مشتركة ، مثل عليا تقوم على الشرف والمروءة ، وما كان ذلك ليكون لولا انتشار القصائد وسيرورتها بسرعة غريبة عجيبة ، فهي ما تكاد تلقى من فم قائلها ، حتى تسير بها الرواة وتنشدها المجالس، وحقا قالوا فى أمثالهم « أسير من شعر » قال الميدانى فى تفسير هذا المثل : « لانه يرد الاندية ويلج الاخبية سائرا فى البلاد مسافرا بغير زاد » (١) ، قال الشاعر (٢) :

فلأهدين مع الرياحِ قصيدةً
مني مغلغلةً الى القَعقاعِ
ترد المياه فما تزال غريبةً
في القوم بين تمثُّلٍ وسماعِ

والامثلة كثيرة فى أثر الشعر فى نفوس العرب ، وسلطانه عليهم ، فرب بيت يقوله شاعر يرفع به قدر وضيع أو يضع قدر رفيع ، ويصدق هنا قول الحصرى القيروانى فى أثر الشعر ومكانته : « وقد بنى الشعر لقوم بيوتا شريفة ، وهدم لاخرين أبنية منيفة » (٣)

وما هو الا القولُ يسري فتغتدى
له غُرَرٌ في أوجهٍ ومواسمِ

فكم رفع من قدر أقوام كانوا أذلة ، وأذل أقواما كانوا أعزة ، فهؤلاء

(١) مجمع الأمثال ١/٣٥٤ .
(٢) هو المسيب بن علس ، المفضليات ص ٦٢ .
(٣) زهر الآداب ١/٢٢ .

أولاد جعفر بن قريع بن كعب الذين عرفوا ببنى أنف الناقة ، كانوا يأنفون من هذا اللقب فهو سبة عليهم ، حتى اذا مدحهم الحطيئة بقوله (٤) :

قومٌ همُ الانفُ والاذنابُ غيرُهم
ومن يسوّى بأنفِ الناقة الذَنبَا

صار اسمهم شرفا لهم ، وصاروا بعد ذلك يزهون به بعد ان كان سبب استحياء .

وكثيرا ما يدفع الشعر الناس الى الخير ويهز أريحيتهم ، وليس أدل على ذلك من مدحة الاعشى للمحلق ، التى كانت تنويها به وتمجيدا له ، بعد أن كان خاملا فقير الحال ، فقد قيل : ان الاعشى قدم سوق عكاظ ، فأشارت امرأة المحلق على زوجها أن يسبق الناس الى ضيافته واكرامه ، ففعل المحلق وبالغ فى اكرامه ، وعرف الاعشى بؤس المحلق وسوء حاله وكثرة بناته ، ثم خرج من عنده ولم يقل فيه شيئا ، وأصبح الاعشى بعكاظ وقد اجتمع الناس حوله فأنشدهم قصيدته :

أرِقتُ وما هذا السهادُ المؤرّقُ
وما بيَ من سقمٍ وما بيَ مَعشَقُ

مدح فيها المحلق وذكر كرمه وشرفه ، حتى فرغ منها ، ثم نادى الاعشى: « يا معشر العرب ، هل فيكم مذكار يزوج ابنه الى الشريف الكريم » ، فما

---

(٤) الأغانى ٢/١٨١ والبيت فى ديوانه ص ١٢٨ .

قام المحلق من مقعده حتى زوج بناته جميعا (٥) ، فالناس صارت تنظر الى المحلق وقد تمثلت فيه الفضائل والمكرمات ، فالشعر يهز النفوس ويثير العواطف ويرغب فى الخير ، والى ذلك كان ينظر معاوية حين كتب الى زياد بن أبيه يعاتبه على انه لم يرو ابنه الشعر : « ما منعك أن ترويه الشعر ؟ فوالله ان كان العاق ليرويه فيبر ، وان كان البخيل ليرويه فيسخو ، وان كان الجبان ليرويه فيقاتل » (٦) .

واذا كان هذا أثر الشعر فى فعل الخير ، فلعل أثره فى فعل الشر والدعوة اليه أشد وأبلغ ، فلرب قافية أثارت معركة يتوارث جرائرها الابناء عن آبائهم ، أو تورث سبة لا يمحوها الدهر ، هؤلاء بنو عبد المدان ، أبيات من شعر حسان تجعلهم ينزلون من عليائهم ، ويتوارون من سوء ما وصموا به ، وأبيات أخرى تعيدهم الى زهوهم وأدلالهم على الناس ، لقد بارك الله لبنى عبد المدان بسعة الصدور وطول الاجسام وغلظها ، فكانوا يفخرون بذلك على غيرهم ، حتى اذا كسفهم حسان بقوله :

لا بأس بالقوم من طولٍ ومن عِظَمٍ
جسمُ البغال وأحلامُ العصافيرِ

جاءوا اليه يسترضونه ، وقالوا : يابن الفريعة : كنا نفخر على الناس بالعظم والطول فأفسدته علينا . ثم قال لهم : سأصلح منكم ما أفسدت ، فقال يمدحهم (١) :

---

(٥) الأغانى ٩/١١٣ ـ ١١٤ .
(٦) العقد الفريد ٥/٢٧٤ والمزهر ٢/٣١٠ ـ ٣١١ .
(١) العقد الفريد ٥/٣٢٨ وديوان حسان ص ٢١٤ .

وقد كنا نقولُ اذا رأينا

لذي جسمٍ يُعَدُّ وذي بيانِ

كأنك أيها المعطَى بياناً

وجسماً من بني عبد المِدانِ

فعادوا الى سيرتهم الاولى • والامثلة كثيرة في تأثير الشعر في فعل الخير والشر على السواء •

واذا كان للشعر هذه المكانة في النفوس ، فلا بد أن يكون للشاعر منزلة رفيعة في مجتمعه وفي قبيلته ، لانه لسانها الذاب عنها ، الحامي لاعراضها ، المفصح عن رغباتها ، المخلد لمفاخرها وانتصاراتها ، ولذلك فاذا نبغ في القبيلة شاعر تباشرت القبيلة ، وصنعت الولائم ، وأقامت الافراح ، يقول صاحب العمدة : « وكانوا لا يهنئون الا بغلام يولد أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج » (٢) فالشاعر كريم في نفسه ، عزيز على قومه ، وقلما نجد شاعرا مهانا أو يتخذ الشعر حرفة ومكسبا يريق لاجلهما ماء الوجه ـ اذا استثنينا الحطيئة والاعشى ـ بل كان يرى أنه صوت القبيلة ، سيفها ولسانها وتحفل أخبار الشعراء بما كان لهم من فضل في اعزاز قبائلهم ورفع مكانتها وحماية اعراضها •

ولم يكن الشعر عند العرب ضربا من الترف او ملهاة يزجى بها الوقت ، أو فنا مقصورا على فئة قليلة من الناس ، بل كان الفن الرفيع الذي يجد الناس فيه تعبيرا عن عواطفهم واحساساتهم وتمثيلا لمثلهم وسجاياهم ، ولذلك أقبلوا

(٢) العمدة ٦٥/١ •

عليه كل اقبال ، حفظوه وتدارسوه ورووه وعنوا به عناية فاقت كل عناية .

وقد قامت عنايتهم بالشعر منذ العصر الجاهلى على دعامة قوية متصلة هى : (الرواية) والرواية (٣) هى الوسيلة الاولى لنشر الشعر وذيوعه وحفظه ، فما يكاد الشاعر يلقى قصيدته حتى تذهب بها الرواة كل مذهب ، وتذيع بين الناس ، دون ان يبذلوا جهدا فى اذاعتها ، وهى اذا ظهرت للناس فلا يستطيع أحد أن يحول بينها وبين الانتشار ، وقد عبر عن ذلك عميرة بن جعيل ، حين هجا قومه ثم ندم ، ولات ساعة مندم ، فقد ذهب بها الرواة وسارت بهـا الركبان : (٤)

نَدِمتُ على شتم العشيرة بعد ما
مضتْ واستتبَّت للرواة مذاهِبُهْ

فأصبحت لا أَسطيعُ دفعاً لما مضى
كما لا يردُّ الدَّرَّ في الضرع حالبهُ

وكان للشاعر راوية أو أكثر من راوية ، يلازمه وينقل عنه شعره ، بل ان الشعراء يروى بعضهم عن بعض ، فالشاعر الكبير يأخذ عنه شعراء صغار ، يحفظون شعره ويروونه ويتأثرون بأسلوبه حين ينظمون ، نجد ذلك فى القبيلة الواحدة ، كالذى نعرف عن الاعشى الذى كان راوية لخاله المسيب

---

(٣) للتوسع فى موضوع الرواية ينظر مصادر الشعر الجاهلى ، الرواية والسماع ص ١٨٨ ــ ٢٨٣ وتوثيق الرواة وتضعيفهم ص ٤٢٩ ــ ٤٧٨ والحياة العربية ص ٢٩ ــ ٣٦ وينظر العصر الجاهلى ص ١٣٨ ــ ١٥٨
(٤) الشعر والشعراء ٢/٦٥٠ .

ابن علس (١) وأبي ذؤيب الذى كان راوية لساعدة بن جؤية الهذلى (٢) ، وكذلك نجد الرواية بين شعراء من قبائل مختلفة ، فعن أوس بنَ حجَر التميمى أخذ زهير بن أبي سلمي المزنى وعن زهير أخذ ابنه كعب والحطيئة العبسى ، وعن الحطيئة روى هدبة بن خشرم العذرى ، وعن هدبة روى جميل بن معمر ، وعن جميل أخذ كثير عزة (٣) ، وهكذا نجد سلسلة من الرواةالشعراء يروى بعضهم عن بعض ، يتعلم منه وينهج نهجه ، مقلدا في بدايته ، مبدعا عند نضجـه .

ولم يكن الامر مقتصرا على الشعراء أو على مجموعة من الرواة ، بل كانت القبيلة تحرص على رواية شعرها فتعلم صغارها الشعر ، وحفظ أشعار القبيلة خاصة ، كما كانت تفعل قبيلة تغلب التى هجاها الشاعر البكرى على كثرة احتفالها بقصيدة عمرو بن كلثوم : (٤)

ألهي بنى تغلِـب عن كل مكرمةٍ
قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثومِ
يروونها أبداً مذ كان أولُهم
يا للرجالِ لشعر غيرِ مسئُومِ

---

(١) طبقات الشعراء ص ١٣٢ والشعر والشعراء ١/١٧٤ وكذلك يقال فى الصلة بين طرفة بن العبد والمرقش الأصغر والمرقش الأكبر ، ينظـر طبقات الشعراء ص ٣٢ .

(٢) الشعر والشعراء ٢/٦٥٣ .

(٣) طبقات الشعراء ص ٨٧ والأغانى ٨/٩١ .

(٤) الأغانى ١١/٥٤ .

ويتجاوز ذكر القصائد وحفظها أبناء القبيلـــة الى القبـــائل الاخرى ، فينشدونها ويتمثلون بها فى مجالسهم واسواقهم ، فالشعر عندهم غذاء وطرب وسمر وعلم لم يكن لهم علم أصح منه (٥) .

وبقى هذا شأن الشعر حتى جاء الاسلام ، وعلى الرغم من انشغال العرب بالدين وانصرافهم الى القرآن والفتوح ، فانهم لم يهجروا الشعر ولم يتركوا روايته وسماعه ، وبقيت الرواية متصلة ، وكل ما يقال عن وقوف الاسلام فى وجه الشعر والشعراء باطل لا حق فيه ، وكيف يكون ذلك وقد كان الرسول يستمع الى الشعر ويسأل الشعراء أن ينشدوه ، فيستحسن منه ويدعو لقائليه ، ويجيز عليه الشعراء (٦) ، ينشدونه من شعر الجاهلية قول عنترة :

ولقد أبيتُ على الطّـوى وأظلّه

حتى أنالَ بـه كريمَ المأكلِ

فيعجبه ايثار عنترة وسماحة نفسه ، حتى انه عليه السلام ليقول : « ما وصف لى أعرابى قط فأحببت أن أراه الا عنترة » (٧) . ويسمع قول لبيد بن ربيعـة :

ألا كلُ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ

وكلُ نعيمٍ لا مَحالةَ زائلُ

(٥) طبقات الشعراء ص ٢٢ .
(٦) ينظر الاسلام والشعر ص ٥٣ وما بعدها .
(٧) الأغانى ٨/٢٤٣ .

فيقول : « أصدق كلمة قالها الشاعر قول لبيد ... » (٨) . وكانت عائشة أم المؤمنين كثيرا ما تنشد الشعر أو تتمثل بأبيات منه ، فيستمع الرسول الى ذلك الشعر ويعلق عليه ، دخل عليها يوما وهى تنشد من شعر زهير بن جناب :

ارفعْ ضعيفَك لا يحُرْ بك ضعفُه
يوماً فتدرِكُه عواقبُ ما جنى

يَجزيك أو يُثنى عليك فإن مَنْ
أثنى عليك بما فعلتَ كمن جزى

فيقول عليه السلام : « صدق يا عائشة ، لا يشكر الله من لا يشكر الناس » (١). وكان يستنشد اصحابه من شعر أمية بن أبى الصلت (٢) ، ويستمع للخنساء تنشده فيستزيدها (٣) ، ويستمع لحسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ينشدونه من شعرهم ، فيشجعهم ويثنى عليهم (٤) ، وأمر كعب بن زهير مع النبى معروف مشهور وكذلك ما أعطاه من هدايا ، وينشده النابغة الجعدى قصيدته الرائية التى منها :

---

(٨) صحيح مسلم ٤/٧٦٨ .
(١) الشعر والشعراء ١/٣٨١ والعقد الفريد ٥/٢٧٥ .
(٢) طبقات ابن سعد ٥/٢٧٦ والأغانى ٤/١٢٩ ــ ١٣٠ .
(٣) نهاية الأرب ١٨/٢٦ .
(٤) العقد الفريد ٥/٢٩٤ والعمدة ١/٣١ .

أتيتُ رسولَ الله اذ جاء بالهدى

ويتلو كتاباً كالمجرَّةِ نيّرا

فيعجبه قوله ويدعو له : « لا يفضض الله فاك » (٥) . والادلة كثيرة على اقبال الرسول على الشعر وعلى تشجيعه الشعراء واستنشادهم ، وبذلك ندفع ما يقال عن توقف الرواية وان الاسلام كان معوقاً للشعر مثبطا لهمم الشعراء (٦) .

وكذلك كان أصحاب رسول الله ، يتناشدون الاشعار ويروونها ويحكمون عليها ويستمعون الى قائليها ، ولم يكونوا متزمتين ضيقي الصدور ، يروى ان الحسن البصري سئل يوما : « أكان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزحون ؟ قال نعم ، ويتقارضون من القريض وهو الشعر » (٧) ، ولم يعرض الصحابة عن الشعر ، ولم يتركوا روايته ، ما دام غير متعارض واخلاق الاسلام وتعاليمه ، ذكر أبو سلمة وصفهم : « لم يكن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متحزقين ولا متماوتين ، كانوا يتناشدون الاشعار ويذكرون أمر جاهليتهم ، فاذا أريد أحد منهم على شيء من أمر دينه ، دارت حماليق عينيه كأنه مجنون » (٨) ، وكانوا يتناشدون الاشعار ويذكرون أخبار الجاهلية في المسجد وعلى مسمع ومرأى من النبي ، وهو راض ، قال جابر بن سمرة :

---

(٥) الشعر والشعراء ١/٢٨٩ والأغاني ٥/٩ .

(٦) ينظر هنا قول ابن خلدون : « ثم انصرف العرب عن ذلك [أى الشعر] أول الاسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زمانا » المقدمة ص ٥٨١ . وتابعه في ذلك من المحدثين جرجي زيدان : « ان الشعر في عصر الراشدين توقف لاشتغال المسلمين عنه بالفتوح » تاريخ آداب اللغة العربية ١/٢٢٢ .

(٧) الفائق في غريب الحديث والأثر ٢/٣٣٩ .

(٨) ١/٢٧٥ .

« جالست رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من مائة مرة ، فكان أصحابه يتناشدون الاشعار فى المسجد وأشياء من أمر الجاهلية ، فربما تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٩) .

واتصلت الرواية فى عهد الخلفاء الراشدين ، وكان لهم نصيب من رواية الشعر وانشاده وحفظه ، كان أبو بكر الصديق كثير الحفظ ، كثير الرواية ، واسع الاطلاع غزير المعرفة ، ولذلك فان الرسول الكريم كان يسأله عن صحة ما يروى من الشعر (١) ، وكثيرا ما كان يستشهد فى خطبه بأبيات مناسبة من الشعر ، كخطبته يوم السقيفة فى مخاطبة الانصار : « فنحن وأنتم كما قال الغنوى :

جزى اللهُ عنّا جعفرا حين أزلفتْ
بنا نعلُنا في الواطئينَ فزلّتِ
أبوا أن يَملّونا ولو ان أمنّا
تلاقى الذي يَلْقَون منا لملّتِ
هم أسكنونا في ظلالِ بيوتهم
ظلالِ بيوتِ أدفأتْ وأكنّتِ (٢)

(٩) الطبقات ـ ابن سعد ٢/٩٥ ـ ٩٦ .
(١) التنبيه ـ البكرى ص ٧٤ .
(٢) ادب الكتّاب ص ١٩٠ .

وكذلك كان عمر بن الخطاب يتمثل بالشعر فى كل مناسبة ، حتى ان ابن سلام كان يقول : « لا يكاد يعرض له أمر الا أنشد فيه بيت شعر » (٣) ، وكان يعجب بزهير بن أبى سلمى ويستنشد الناس شعره ، يعجب به ويفضله على الشعراء لصفات أوجزها فى قوله : « كان لا يعاظل فى الكلام ، وكان يتجنب وحشى الشعر ، ولم يمدح أحدا الا بما فيه ... » (٤) ، وثمة آراء لعمر مبثوثة فى كتب الادب فى الحكم على جيد الشعر ونقده والدعوة الى تعلمه وحفظه ، وقد كتب الى ابى موسى الاشعرى يقول : « مر من قبلك بتعلم الشعر ، فانه يدل على معالى الاخلاق وصواب الرأى ومعرفة الانساب » (٥) .

وعلى هذه الحال كان على بن أبى طالب ، له علم وبصر ثاقب بالشعر والشعراء ، كان يستنشد الشعراء ويتمثل بالشعر ويقبل عليه ، بل كان نفسه شاعرا حفظت له كتب الادب والتاريخ مجموعة من جيد الشعر . أما ابن عباس فقد اتخذ من الشعر وسيلة لتفسير ما أشكل على المسلمين من ألفاظ القرآن الكريم ، وكان يدعو الى معرفة الشعر للاستعانة به على فهم كتاب الله ، يقول : « اذا قرأتم شيئا من كتاب الله فلم تعرفوه ، فاطلبوه فى أشعار العرب ، فان الشعر ديوان العرب » (٦) ، وكان اذا سئل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعرا (٧) . ولم تكن عائشة أم المؤمنين أقل من ابن عباس حفظا ورواية ، كانت تروى القصائد الطوال ، وكانت معجبة بشعر لبيد ، حتى قالوا : انها كانت تحفظ له الف بيت ، وقد مر بنا أنها كانت تتمثل بالشعر

---

(٣) البيان والتبيين ١/٢٤١ .
(٤) الشعر والشعراء ١/١٣٨ والأغانى ١٠/٢٨٩ .
(٥) العمدة ١/٢٨ .
(٦) العمدة ١/٣٠ .
(٧) شرح الحماسة ـ التبريزى ١/٣ .

وتنشده بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم (٨) .

وحين قامت الحرب بين علي ومعاوية ، كان الشعر من أسلحة الحرب ، تهاجى به الفريقان المتقاتلان ، وأثار الشعراء همم الجنـــود ، وجـادلوا فيه خصومهم ، وان القبائل المتحاربة كانت تجد في احياء تراثها من الشعر الجاهلي، ترويه وتذيعه ، لان فيه محامد القبيلة وامجاد آبائها ، كما أنها كانت تقف على مثالب خصومها وما قيل فيهم من هجاء في الجاهلية والاسلام .

ومعنى هذا ان الرواية ظلت متصلة في صدر الاسلام ، لم تنقطع ولـم تفتر ، وقد حدثت في الاسلام أحداث ساعدت على رواية الشعر وازدهاره .

وفي العهد الاموي نشطت الحركة الادبية ، وعلت مكانة الشعر والشعراء، وصارت مجالس الولاة والخلفاء منتديات أدبية تنشـــد فيهـا القصائد وتروى الاشعار ، ويتبارى الرواة في ذكر النادر والغريب من الشعر والاحـاديث والاخبار ، وكان الخلفاء يشجعون الشعراء ويجزلون لهم الهبات والجوائز . وصار للرواة في هذه المجالس مكانة مرموقـــة ، فهم مقربون مكرمـون ، يستدعيهم الخلفاء والولاة ليسمروا في مجالسهم ، ويحدثوهم أحاديث الجاهلية وأشعارها . كان معاوية يقرب عبيد بن شرية الجرهمي ويصغي اليـه اذا حدثه ، ويستزيده ويسائله ، وكان يعجب من حديثه وكثرة حفظه وعلمه وحضور بديهته ، ويقال انه كان يأمر أن تقيد أحاديثه بدفاتر ، فيفعل غلمانه (١) لم يكن هذا شأن معاوية وحده ، بل كان أكثر الخلفاء الامويين علـى هذه

---

(٨) الشعر والشعراء ١/٣٨١ والعقد ٥/٢٧٥ والاحيـــاء لعلوم الدين ــ الغزالي ٣/١٠٩ .

(١) الفهرست ص ١٣٢ .

الشاكلة ، وربما كان عبد الملك بن مروان أبرز الامويين فى ذلك ، لانه هو نفسه كان حافظا للشعر مقبلا عليه ، مجزلا العطاء للرواة والشعراء ، كان يستقدمهم من بلدانهم ويسائلهم ، وليس غريبا فى هذا العصر أن يبردوا الى العراق بريدا ليحضروا عالما من علماء الشعر والايام ليسألوه عن بيت شعر أو قصيدة أو خبر من الاخبار أو يوم من أيام العرب (٢) ٠

وقد كثر المؤدبون فى هذا العصر يعلمون الناشئة الشعر واللغة والاخبار ، وقد كان عبد الملك يوصى مؤدب ولده أن يعلمهم الشعر : « روهم الشعر يمجدوا وينجدوا » (٣) ، ويقول أيضا : « أدبهم برواية شعر الاعشى ، فان لكلامه عذوبة » (٤) ، ومن هؤلاء المؤدبين كان المفضل الضبى والكميت والطرماح (٥) ٠

وقد كان هؤلاء الرواة والمؤدبون يتنافسون فى حفظ الشعر ومعرفة فنونه وغريبه ، واستقصاء أشعار القبائل والوقوف على ما خلف الشعراء من شعر جيد ، فنراهم فى هذا العصر يلقون الاعراب حين يفدون الى البصرة أو الكوفة ، يأخذون عنهم ويدونون أقوالهم ، أو يرحلون اليهم فى بواديهم ليشافهوهم ويدونوا عنهم الشعر واللغة والاخبار ٠

وكما كان الرواة فى الجاهلية يلزمون الشعراء يروون عنهم ويذيعون شعرهم ، فكذلك كانوا فى هذا العصر ، من هؤلاء الرواة شعراء يروون الشعر ليتعلموا ، ومنهم من لم يكن شاعرا ، بل اتخذ الرواية حرفة وعلما اتقنه وبرع

---

(٢) التصحيف والتحريف ص ٤ ٠
(٣) العقد الفريد ٥/٢٧٤ ٠
(٤) جمهرة أشعار العرب ص ٦٧ ٠
(٥) البيان والتبيين ١/٢٥١ و٢/٣٢٣ ٠

فيه . وهؤلاء هم الذين كانوا يصلحون أخطـــاء الشعراء وينقحون شعرهم ويهذبونه ، روى أبو الفرج عن شيخ من هذيل انه زار الفرزدق ثم دخل على رواته فوجدهم يعدلون ما انحرف من شعره ، وكذلك دخل على جرير فوجد رواته يصلحون ما في شعره من سناد (٦) .

ولم يكن الشعراء أقل من الرواة اقبالا على الرواية والتماسا لها ، بل كانوا يحفظون الكثير من الشعر الجاهلى ، ويروون لشعراء الجاهلية ، ليقفوا على مذاهبهم ومداخل شعرهم ، وليقتفوا بعد ذلك أثرهم فى صناعة الشعر ، هذا سراقة البارقى (توفى حوالى ٧٩ هـ) يسجل فى احدى قصائده ثقافته الغزيرة واطلاعه وحفظه الكثير من الشعر الجاهلى ، يقول : (١)

ولقد أصَبْتُ من القريض طريقةً
أعيتْ مصادِرُها قرينَ مُهَلْهَلِ

بعد أمرىءِ القيسِ المنوَّهِ باسمه
أيامَ يهذي بالدَّخولِ فحَومْلِ

وأبو دُوادِ كانَ شاعرَ أمةِ
أفِلَتْ نجومُهم ولمّا يأفَلِ

إني فتى أدركتُ أقصى سَعيِهم
وغرفتُ من بحرٍ وليس بجدولِ

(٦) الأغانى ٤/٢٥٨ .
(١) ديوان سراقة البـــارقى ص ٦٤ ــ ٧١ . وكـــذلك فعل الفـرزدق (ت ١١٠ هـ) فله قصيدة فى هذا المعنى ينظر ديوانه ص ٧٢٠ .

وهكذا يذهب يعدد محموعة كبيرة من شعراء الجاهلية الذين وقف على شعرهم وأفاد من طريقتهم •

وقد تظافرت جهود كثيرة لجمع الشعر وروايته وحفظه ، فالى جانب الرواة والشعراء ، كانت هناك فئة من القصاص الذين يجتمع حولهم الناس في المساجد ، يقصون عليهم ويعظونهم ويتمثلون بالشعر فى أحاديثهم ، وكذلك كان المؤرخون ورواة السيرة النبوية وغزوات الرسول ، من مثل أبان بن عثمان وعروة بن الزبير ومحمد بن اسحق الذين كانوا يعنون بالشعر الذى قيل فى الغزوات والايام •

وفى منتصف القرن الثانى نجد جمهرة من الرواة والعلماء المحترفين انصرفوا للرواية وتفرغوا لها ، فشهروا بكثرة حفظهم وسعة علمهم واحاطتهم باللغة والشعر والاخبار والايام ، وانطلقوا نحو البادية يأخذون عن الاعراب يقيدون شعرهم وأخبارهم الجاهلية والاسلامية ، ولعل أبرز هؤلاء الرواة المتقدمين : محمد بن السائب الكلبى (ت ١٤٦ هـ) وابو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) وحماد الرواية (ت ١٥٦ أو ١٦٤ هـ) والمفضل الضبى (ت ١٧٠ هـ) وخلف الاحمر (ت ١٨٠ هـ) •

وقد بدأت حركة جمع الشعر والعناية به اولا للحفاظ على القرآن الكريم ومعرفة تفسيره ، فمنذ ابن عباس كان المفسرون يستعينون بالشعر على معرفة الفاظ القرآن ، فكان ابن عباس يوصى الناس ان يلتمسوا تفسير الكتاب فى أشعار العرب : « اذا قرأتم شيئا من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه فى أشعار العرب ، فان الشعر ديوان العرب » (٢) • كما نشطت جماعة أخرى تجمع الشعر وتدرسه لتستنبط منه قواعد اللغة ومعرفة حركاتها ، حفاظا منها

(٢) العمدة ٣٠/١ •

على لغة القرآن وضبط حركاته ، ووجد كل اولئك فى الشعر الجاهلى بغيتهم ، وهكذا نشطت الرواية واتسعت دائرة التدوين والتأليف وقامت على أسس من العلم المنظم •

وقد صار الرواة فى هذا العصر فئتين ، لكل منهما منهج واسلوب ، أولاهما كوفية ، وثانيهما بصرية (٣) •

وقد عرف الكوفيون بنقل الشعر الكثير ، عمادهم السماع ، وهم متسامحون فى رواية الشعر ، قليلا ما يقفون عنده ليحققوا صحيحه من فاسده ، ولذلك كان شعرهم أغزر وأكثر ، قال أبو الطيب اللغوى : « والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع منسوب الى من لم يقله ، وذلك بين فى دواوينهم » (٤) ، وليس بغريب أن تلصق هذه التهمة بالكوفيين ، فالناس ينظرون الى رواة الكوفة وكبيرهم حماد الراوية المعروف بتزيده وكذبه ، كان حماد من الموالى ولد سنة ٩٥ هـ وتوفى سنة ١٥٦ للهجرة (٥) ، وكان فاسد المروءة ماجنا زنديقا (٦) ، يحسن نظم الشعر فيفسد شعر الجاهلية بما يحمل عليه ما ليس فيه ، قال ابن سلام : « وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية ، وكان غير موثوق به ، كان ينحل شعر الرجل غيره ، وينحله غير شعره ، ويزيد فى الاشعار » (١) • وفى حياة حماد ما يدل على سلوكه الشائن ، فقد نشأ لصا يتشطر قبل أن تتصل حياته بالرواية ،

---

(٣) ينظر مصادر الشعر الجاهلي فصل توثيق الرواة وتضعيفهم ص ٤٢٩ ـ ٤٧٨ والحياة العربية ص ٢٩ ـ ٣٦ والعصر الجاهلى ١٤٨ ـ ١٥٨ •
(٤) مراتب النحويين ص ٧٤ •
(٥) وقيل توفي ١٦٤ هـ •
(٦) الحيوان ٤/٤٤٧ والأغانى ٦/٧٤ وأمالى المرتضى ١/١٣١ •
(١) طبقات الشعراء ص ٤٠ ـ ٤١ •

روى أبو الفرج أن حمادا « كان فى أول أمره يتشطر ويصحب الصعاليك واللصوص ، فنقب ليلة على رجل فأخذ ماله وكان فيه جزء من شعر الانصار ، فقرأه حماد فاستحلاه وتحفظه ، ثم طلب الادب والشعر وأيام الناس ولغات العرب بعد ذلك ، وترك ما كان عليه ، فبلغ من العلم ما بلغ » (٢) ، وقد عرف الناس حق حماد من العلم بكلام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها وأيامها ، وكثرة الحفظ والذكاء ، فشهدوا له بالبراعة والتقدم ، حتى ان الهيثم بن عدى ليقول : « ما رأيت رجلا أعلم بكلام العرب من حماد » (٣) ويروى عن كثرة حفظه ما يعد من الاعاجيب (٤) ، ومهما تزيد الناس وبالغوا فى ذلك ، فان فيما يصح له دليل على علمه الواسع وحفظه الكثير . ولا شك ان للمنافسة بين الكوفة والبصرة أثرا فى تهويل الصورة التى وصلتنا عن حماد ، فقد شهد له منافسه الاصمعى راوية البصرة بأنه كان أعلم الناس اذا نصح (٥) ومع ذلك فعلى الدارس أن يكون حذرا من مرويات حماد ، لان الكوفيين أنفسهم يتهمون حمادا ، فابن الاعرابى الكوفى يروى عن المفضل الضبى انه قال : « قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبدا ، فقيل له وكيف ذلك ؟ أيخطىء فى روايته أم يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك ، فان أهل العلم يردون من أخطأ الى الصواب ، لا ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله فى شعره ، ويحمل ذلك عنه فى الافاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها الا عند ناقد ، وأين ذلك ؟ » (٦) وقول المفضل هذا يحمل

(٢) الأغانى ٦/٨٧ .
(٣) معجم الأدباء ٤/١٤٠ .
(٤) ينظر خبره مع الوليد بن يزيد ، الأغانى ٦/٧١ ومعجم الأدباء ٤/١٣٧ .
(٥) الأغانى ٦/٧٠ .
(٦) الأغانى ٦/٨٩ ومعجم الأدباء ٤/١٤٠ .

أمرين : اتهام حماد من قبل رجل كوفى ، وشهادة له بعلو مكانته فى العلم والرواية والاحاطة بأشعار العرب ، ومما يقلل من تهمة المنافسة البصرية ، ان البصريين وثقوا المفضل الضبى وهو كوفى ، مما يدل على دقة بصر البصريين بالرواة والحكم على رواة الكوفة بما فيهم ، ولا شك أن المنافسة البصرية كانت تبالغ حين تصف حمادا بأنه يلحن ويكسر الشعر ويصحف (٧) لان هذا الحكم جائر لا يصح ، ولا يقوم أمام الروايات التى تصف حمادا بالعلم والدراية فانه كان « أعلم الناس اذا نصح » (٨) ٠

ولم يكن حماد وحده المتهم فى هذا الميدان ، فقد عرف كذابون آخرون عاصروا حمادا مثل برزخ العروضى المعروف بالوضع والكذب فى روايته (٩) ، وكذلك جناد الذى كان كثير اللحن والتصحيف والكذب (١) ، ويلاحظ أن الرواة المتهمين بفساد روايتهم ، سواء أكانوا فى الكوفة أم فى البصرة ، أكثرهم من أصول غير عربية ، وكلهم فاسق ماجن رقيق الدين فاسد الضمير ٠

ويلاحظ أن فى الكوفة ــ عدا هؤلاء ــ الكثير من الرواة الثقات الذين حفظوا الشعر ونقلوه بأمانة ودقة وهم ممن لا يرقى الشك الى روايتهم او الى صلاحهم ، وعلى رأس هؤلاء الاعلام الاثبات المفضل بن محمد الضبى (ت ١٧٠ هـ) (٢) ، وقد أجمع الكوفيون والبصريون على توثيقه وشهدوا له بالعلم والدقة والامانة وسعة المعرفة بأشعار الجاهلية وأخبارها وأيامها ، وخبرته الكبيرة بأنساب العرب ٠

---

(٧) الأغانى ٨/٢٨٣ ٠
(٨) الأغانى ٦/٧٠ ٠
(٩) أنباه الرواة على أنباه النحاة ١/٢٤٢ ٠ والفهرست ص ١٠٧ ٠
(١) معجم الأدباء ٢/٤٢٥ ــ ٤٢٦ والفهرست ص ١٣٥ ٠
(٢) وقيل ١٧٨ هـ ٠

ومن الرواة الكوفيين الثقات الذين خلفوا المفضل وساروا على نهجه أبو عمرو الشيباني (ت ٢١٣ هـ) وابن الاعرابي (ت ٢٣١ هـ) وممن يدخل في هذا الصنف محمد بن حبيب (ت ٢٤٥ هـ) وابن السكيت (ت ٢٤٤ هـ) وثعلب (ت ٢٩١ هـ) وكلهم كان على درجة كبيرة من الدراية والصدق والتثبت • فاذا عيب على الكوفة رواة متهمون ، فان وراءهم رواة حفظوا صحيح الشعر وبينوا فاسده ، وكانوا يتحرون في نقلهم ويتحرجون في رواياتهم ، فلا يحملون الا ما صح من الشعر والاخبار •

واذا عدنا الى البصرة ، نجد الرواية تتسم بالدقة والصدق ، وأكثر رواتهم موثوق بهم ، وان لم تخل هذه المدينة من الوضاعين المتهمين •

كان شيخ الرواية البصرية ابو عمرو بن العلاء ، وقد عرف بصدقه وأمانته ، فهو أحد القراء السبعة الذين أخذت عنهم تلاوة القرآن الكريم ، وكان من أوائل النحاة في البصرة ، ولد سنة سبعين للهجرة وتوفي سنة ١٥٤ أو ١٥٩ من الهجرة ، قال الجاحظ في صفته : « وحدثني أبو عبيدة قال : كان أبو عمرو أعلم الناس بالغريب والعربية وبالقرآن والشعر ، وبأيام العرب وأيام الناس » (٣) وقد عرف بالصلاح والتقوى وتنسك في آخريات أيامه فأحرق ما كان لديه من كتب كتبها عن العرب الفصحاء ، ويقال انها كانت كثيرة بحيث ملأت بيتاً له الى قريب من السقف (٤) . •

ومثلما كان في الكوفة رواة فاسدون كذابون مزورون ، فكذلك كان في البصرة مثل أولئك ، ولعل ابرزهم خلف بن حيان الاحمر ، الذي سار

---

(٣) البيان والتبيين ١/٣٢١ •
(٤) المصدر السابق والصفحة

سيرة استاذه حماد الراوية ، فقد أخذ عنه وتلمذ له (٥) وان خلفا كان يعطى حمادا المنحول من الشعر فيقبله منه حماد ويرويه (٦) وبين هذين الرجلين صلة جامعة وشبه كبير ، فكلاهما عالم مطلع ، وكلاهما فاسد المروءة متهم فى دينه فاسق ماجن ، وكلاهما من الموالى ، فخلف من أعاجم فرغانة ولد سنة ١١٥ وتوفى حوالى ١٨٠ هـ ، كان عالما باخبار العرب وأشعارها ، وكان شاعرا حاذقا ذكيا كثير الحفظ ، يقول ابن سلام : « اجتمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر وأصدقه لسانا ، كنا لا نبالى اذا أخذنا عنه خبرا أو أنشدنا شعرا أن لا نسمعه من صاحبه » (٧) ، وشهادة ابن سلام هذه لا تدل على براءته من الكذب ، بقدر ما تدل على بصره بالشعر وحلاوة منطقه وفصاحة لسانه ، وقد اتهمه الاصمعى بأنه « وضع على شعراء عبد القيس شعرا موضوعا كثيرا ، وعلى غيرهم عبثا به ، فأخذ ذلك عنه أهل البصرة وأهل الكوفة » (١) ، وقد أقر خلف بذلك الوضع والكذب فى أخريات أيامه حين تاب وتنسك وانصرف الى القرآن ، فخرج الى أهل الكوفة فعرفهم الاشعار التى نحلها الشعراء (٢) ٠

ومثلما كان فى الكوفة رواة ثقات يتصدون للوضاعين ويتحامون روايتهم ، فكذلك كان فى البصرة كثرة من أولئك الاثبات العدول ، كالاصمعى : عبد الملك بن قريب ، وهو عربى صميم ولد سنة ١٢٢ وتوفى سنة ٢١٥ وقيل ٢١٧ للهجرة ، شتهد له معاصروه بسعة علمه بشعر الجاهلية وأخبارها وأيامها ، كما شهدوا له بالدقة والصدق والامانة ، فهو عدل ثقة ، وان تعرض للاتهام ،

---

(٥) مراتب النحويين ص ٤٧ و٧٢ ٠
(٦) الأغانى ٦/٩٢ ٠
(٧) طبقات الشعراء ص ٢١ ٠
(١) مراتب النحويين ص ٤٧ ٠
(٢) المصدر السابق والصفحة ٠

ولذلك يقول أبو الطيب اللغوى دافعا عنه تهمة منافسيه فى الافتعال والكذب ، مبينا علو مكانته ودقة تحريه : « فأما ما يحكيه العوام وسقاط الناس من نوادر الاعراب ويقولون : هذا مما افتعله الاصمعى ... وأنى يكون الاصمعى كما زعموا ، وهو لا يفتى الا فيما أجمع عليه العلماء ، ويقف عما ينفردون به عنه ، ولا يجوز الا أفصح اللغات ويلج فى دفع ما سواه » (٣) ، وكذلك فعل ابن جنى (٤) حين ذكر أمانته وصدقه وعلمه ، ونزهه عن الكذب والتزيد .

ومثل الاصمعى فى علمه وصدقه ودقته ، أبو زيد الانصارى ، وهو عربى من الخزرج ولد سنة ١١٤ وتوفى سنة ٢١٤ أو ٢١٥ للهجرة ، وكان معاصرا للاصمعى عالما باللهجات واللغات الشاذة . ويعاصره كذلك عالم آخر ، هو أبو عبيدة معمر بن المثنى المولود سنة ١١٠ على التقريب والمتوفى سنة ٢١١ للهجرة ، وهو من الموالى المتهمين بالشعوبية ، ولولا هذه النزعة فيه ، لكان من المتقدمين الثقات (٥) .

ويأتى بعد هؤلاء رواة هم فى مرتبة أدنى من سابقيهم ، مثل محمد بن السائب الكلبى (ت ١٤٦ هـ) وابنه هشام بن محمد الكلبى (ت ٢٠٤ هـ) وهما متهمان بالوضع فى رواياتهما وأخبارهما التاريخية ، ومثلهما الهيثم بن عدى (ت ٢٠٤ هـ) . وخير من هؤلاء ، أبو سعيد الحسن بن الحسن السكرى ، من رجال القرن الثالث (ت ٢٧٥ هـ) واليه يرجع الفضل فى جمع كثير من دواوين الشعر الجاهلى .

وقد عرف الكوفيون بنقل الشعر الكثير وعمادهم السماع ، وهم

---

(٣) مراتب النحويين ص ٤٩ .
(٤) الخصائص ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ .
(٥) أنباه الرواة ٣/٢٨٠ .

متسامحون فى الرواية ، وقليلا ما يقفون عندها ليحققوا صحيحها من فاسدها ، ولذلك كان شعرهم أغزر وأكثر ، أما البصريون فقد عرفوا بالدقة والصدق وأكثر رواتهم موثوق بهم ، وان لم يبرأوا من الوضاعين المتهمين .

واريد أن أخرج من موضوع الرواية الى نتيجتين هامتين :

الاولى : أن رواية الشعر الجاهلى لم تنقطع ، ولم يله الناس عن الشعر ، بل ظلت الرواية متصلة مستمرة منذ العصر الجاهلى واستمرت زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ونشطت وازدهرت فى عصر الامويين حتى رست فى القرن الثانى عند العلماء الرواة المحترفين ، الذين نهضوا بالرواية وعلوم العربية نهضة زاهية زاهرة ، كان من شأنها أن جمعت الشعر ودونته وألفت فيه شتى المؤلفات .

ولا يصح كذلك ما يقال عن انقطاع الرواية وانصراف الناس عن الشعر أول الاسلام ، ووقوف الاسلام عائقا بوجه الشعر والشعراء ، وما الى ذلك من الامور الخاطئة المتوهمة . واتصال الرواية واستمرارها وتوثيقها يدفع التهمة التى تذهب الى أن الرواة المتأخرين لفقوا هذا الشعر على بعد الشقة بينهم وبين الجاهليين ، وما دامت الرواية قد وردت متصلة بسلسلة محكمة لا فجوة فيها ولا انقطاع ، فلا يمكن أن يدخلها التزوير بالشكل الذى توهمه المتأخرون قد يصح أن كثيرا من الشعر ضاع وسقط فى الطريق فلم تحفظه الحافظة (١) ، وصحيح هو قول ابى عمرو بن العلاء : « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير » (٢) ، ولكن أن يكون ذلك

(١) طبقات الشعراء ص ٢٢ .
(٢) طبقات الشعراء ص ٢٣ والخصائص ١/٣٩٢

التراث الضخم مصنوعا ملفقا من رواة عرفناهم ونبهنا كما نبه الاقدمون على رواياتهم ، فأمر تدحضه الرواية المتصلة المحكمة .

والنتيجة الثانية : ان الشعر لم يكن ألعوبة بيد قلة قليلة من الرواة الوضاعين ، بل كان وراءهم علماء ثقات اثبات يصححون ويمحصون وينقدون ، ولم ينقلوا من الشعر الا الصادق الصحيح كأبى عمرو بن العلاء والمفضل الضبى والاصمعى وأبى زيد الانصارى وغيرهم ، ولدقة هؤلاء ونباهتهم ونقدهم، فقد قدمهم ابن القطان على رواة الحديث ، لمزية النقد التى عرفوا بها ، قال ابن سلام . « حدثنى يحيى بن القطان قال : رواة الشعر أعقل من رواة الحديث ، لان رواة الحديث يروون مصنوعا كثيرا ، ورواة الشعر ساعة ينشدون المصنوع ينتقدونه ويقولون : هذا مصنوع » (٣) . وما دام الباحث حذرا من الرواة المتهمين ، بصيرا بهم ، مهملا لرواياتهم ، فلا بأس عليه بعد ذلك أن يطمئن الى روايات الثقات من العلماء ، وبخاصة تلك التى أجمع على صحتها أعلام الرواية الموثقين ، وقد قرر ابن سلام هذا المنهج منذ القديم حين قال : « وقد اختلفت العلماء في بعض الشعر كما اختلفت فى بعض الاشياء ، أما ما اتفقوا عليه ، فليس لاحد أن يخرج منه » (٤) .

(٣) ذيل الأمالى ص ١٠٥ .
(٤) طبقات الشعراء ص ٦ .

الانتحال

وهذه الذخيرة من الشعر الجاهلى ، وكذلك الشعر الاسلامى ، لم تكن كلها سليمة مبرأة من الدخيل الذى حمل على الشعر فى عصر متأخر ، أو الفاسد الذى لفقته الاهواء والاقاصيص ولكى يكون الباحث على بينة حين يفيد من مصادره ، عليه أن يقف على قضية الانتحال ويتعرف على الحقائق التى أقرها ثقات القدماء ونبه اليها المحدثون ، وليضع لنفسه بعد ذلك منهجا يعرف عن طريقه صحيح الشعر من فاسده •

حينما نتحدث عن الرواية والرواة ، انما نعنى الرواية الصحيحة الموثقة والرواة الثقات وننبه على الرواة الوضاعين ونقوّم الشعر حسب منزلته من علو الرواية وصحة الاصول ، فعلى مقدار صحة الشعر تكون الثقة به والاعتماد عليه ، لان ما بأيدينا من شعر الجاهلية ، وكذلك شعر الاسلام لا يصح أن يقبل على أنه صحيح لا ريب فيه ، كما لا يصح أن يرفض على أنه باطل لا نفع به ، وانما يؤخذ بالتنقية والتنقيح ، والفحص والتمحيص ، فمنه الصحيح الذى لا غبار عليه وقد وثقه الرواة وشهد بصحته الناقلون الثقات ، ومنه الفاسد المصنوع أو المنسوب الى تلك الفترة ، وقد رفضه النقاد ونبهوا عليه • ولنلق نظرة سريعة على رأى النقاد بهذا الشعر لنعرف الام انتهوا ، وما هو منهجنا فى تناول الشعر ؟

لقد كان ابن سلام الجمحى (ت ٢٣١ هـ) أول من بحث قضية الانتحال بحثا منظما مستفيضا فى كتابه طبقات الشعراء ، وعزا أسباب الوضع الى عاملين أساسيين : العصبية القبلية ، والرواة الوضاعين • فقد رأى أن بعض القبائل كانت تتزيد فى أشعارها ، وتنحل شعراءها شعرا لم يقولوه ، فأوضح ذلك فى قوله : « لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها ، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم ، وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكـــان قوم قد قلت وقائعهم وأشعارهم ، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والاشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعد فزادوا فى الاشعار » (١) • وقد بين ما أضافه القرشيون فى شعر شعرائهم فطولوا قصيدة لابى طالب فى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) ، وذكر ما حمل على حسان بن ثابت (٣) ، وقد لاحظ أن بعض أبناء الشعراء الاعراب كانوا يفدون الى المدن ويستنشدهم الرواة شعر آبائهم فينشدونهم ، فاذا نفد ما لديهم زادوا فى الاشعار ، كما فعل داود بن متمم بن نويرة ، فقد استنشده أبو عبيدة وانه « لما نفد شعر أبيه جعل يزيد فى الاشعار ويضعها ، واذا كلام دون كلام متمم ، واذا هو يحتذى على كلامه فيذكر المواضع التى ذكرها متمم والوقائع التى شهدها » (٤) ، ولم يخف بطبيعة الحال هذا الشعر المصنوع على الرواة الناقدين ، فكانوا يرفضونه • '

وقد نبه ابن سلام على الرواة الكذابين ، كحمـــاد الراويـة ورفض مروياته وبين فساد روايته وحذر منه (٥) ، وذكر صنفا آخر من الرواة ، كانوا يحملون الشعر الزائف ، هم رواة الاخبار والسير ، وأشار الى ابن

---

(١) طبقات الشعراء ص ٣٩ ـ ٤٠ •
(٢) المصدر السابق ص ٢٠٤ •
(٣) المصدر السابق ص ١٧٩ ، ٢٠٤ ـ ٢٠٥ •
(٤) المصدر السابق ص ٤٠ •
(٥) المصدر السابق ص ٢٣ •

اسحق راوى السيرة النبوية فقال : « ولسنا نعد ما يروى ابن اسحق له (١) ولا لغيره شعرا ، ولان لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذلك لهم » (٢) .

ولم يكن ابن سلام وحده الذى نبه الى فساد الشعر الذى يحمله ابن اسحق وتناوله بالنقد والتجريح ، بل كان هناك آخرون ، أخذوا على عاتقهم مهمة تحرير الشعر مما شابه من الزائف المصنوع ، مثل ابن هشام صاحب السيرة النبوية (ت ٢١٨ هـ) الذى عمل على تعقب ابن اسحق فنقد الشعر وبين الفاسد الموضوع ، وأسقط الشعر الفاسد وأوضح نقد العلماء له ، وذكر الروايات الصحيحة وهكذا ... وقد أقر ابن اسحق بذلك واعتذر بأنه لا علم له بالشعر يحمل منه الجيد والردىء فقال : « لا علم لى بالشعر أوتى به فأحمله » (٣) ، ولم يرض ابن سلام بذلك عذرا فرد عليه بقوله : « ولم يكن له ذلك عذرا ، فكتب فى السيرة أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط وأشعار النساء فضلا عن الرجال ، ثم جاوز ذلك الى عاد وثمود فكتب لهم أشعارا كثيرة وليس بشعر ، انما هو كلام مؤلف معقود بقواف ، أفلا يرجع الى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر ومن أداه منذ آلاف السنين ، والله تبارك وتعالى يقول : (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) أى لا بقية لهم ... فلو كان الشعر مثل ما وضع لابن اسحق ، ومثل ما رواه الصحفيون ما كانت اليه حاجة ولا فيه دليل على علم » (٤) .

ونقد ابن النديم ابن اسحق كذلك ، فقال : « ويقال كان يعمل له الاشعار ويؤتى بها ، ويسأل أن يدخلها فى كتابه السيرة فيفعل ، فضمن كتابه

(١) أى لابى سفيان بن الحارث فى سياق الحديث عنه .
(٢) طبقات الشعراء ص ٢٠٦ .
(٣) طبقات الشعراء ص ٩ .
(٤) المصدر السابق والصفحة .

من الاشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر » (٥) .

ولم يكن نقد الرواة ، وتجريح الوضاعين ، والتنبيه على الشعر المنحول ، قد بدأ بابن سلام وابن هشام. وكان مقصورا عليهما ، بل سبقهم الى ذلك المفضل الضبى (ت ١٦٨ أو ١٧٨ هـ) الذى نقد حماد الراوية وبين أكاذيبه (٦) ، وكذلك فعل الاصمعى (ت ٢١٦ هـ) حين نقد خلفا الاحمر (٧)، وتابعهم بعد ذلك أبو الفرج الاصفهانى فى رفضه روايات ابن الكلبى عن دريد بن الصمة وبعض أشعاره ، فقد تنبه الى انها مكذوبة ملفقة من قبل ابن الكلبى نفسه (٨) .

هؤلاء العلماء الاثبات ، حين جرحوا الرواة وكذبوا الوضاعين وبينوا الشعر الفاسد المصنوع ، ونقوا من ناحية ثانية الشعر الصحيح وعدلوا الرواة الثقات ، وشهدوا لهم بالدقة والامانة والعلم .

ففى الشعر الجاهلى والشعر الاسلامى ، شعر منتحل موضوع ، ولم يكن النقاد القدامى غافلين عنه ، فقد نقدوه ومحصوه وبينوا صحيحه من فاسده ، ولكن ذلك الشعر المصنوع لم يكن من الكثرة بحيث يضطرب الدارسون فى معرفته ، أو يتخذون ذلك القليل الفاسد وسيلة لاتهام الشعر الجاهلى عامة ، فان من التجاوز على الحق والخروج على أصول البحث العلمى ، أن نغلو فى تقدير المنحول ونبالغ فيه معتمدين على مفترضات لم تثبت ولم تصح تاريخيا ، ومن الخطأ الفاحش أيضا أن تؤخذ فكرة الانتحال مركبا ذلولا لدفع كل ما يغمض على الدرس ويلتبس مع النظرة العجلى ومع القصد الفاسد الخبيث

(٥) الفهرست ص ٣٦ .
(٦) الأغانى ٦/٨٩ ومعجم الأدباء ٤/١٤٠ .
(٧) مراتب النحويين ص ٤٦ ـ ٤٨ .
(٨) الأغانى ١٠/٤٠ .

فان فى ذلك ضلالا كبيرا .

واذا كان ابن سلام قد فتح للنقاد طريقا يؤدى الى تصحيح المخطوء ورد المنحول ، ومعرفة الحق من الباطل ، فانه كذلك حذر الباحثين ونبههم الى ان : « ما اتفقوا (١) عليه ، فليس لاحد أن يخرج منه » (٢) ، وقد وضع فى هذا المنهج حدا لفوضى الشك ، وليس لاحد أن يرضى لنفسه الشك فـى شعر معتمدا على رواية مفردة شاذة من الروايات ، فقد ترد روايات أخرى توثقه وتصححه ، فان لم يقم دليل واضح وحجة بينة على بطلان ذلك الشعر ، فليس له أن يرجح الشك اذا كان اليقين يلوح فى روايات أخرى تثبته وتوثقه . فكثيرا ما تغرب روايات وتخفى عن علم الرواة أنفسهم ، ومن الطريف فـى ذلك أن تعقد المحاجة في هذه النقطة ، بين راويين كبيرين هما : خلاد بن يزيد الباهلى وخلف بن حيان الاحمر ، فيقال إن خلادا قال لخلف : « بأى شيء ترد هذه الاشعار التى تروى ، قال له ، هل فيها ما تعلم أنت انه مصنوع لا خير فيه ، قال : نعم ، قال : أفتعلم فى الناس من هو أعلم بالشعر منك ، قال نعم ، قال : فلا تنكر أن يعلموا من ذلك أكثر مما تعلمه أنت » (٣) .

وقد أثيرت قضية الانتحال فى العصر الحديث ، وتناولها المستشرقـون والعرب ، ومن هؤلاء المعتدل المنصف ، ومنهم المشتط المسرف المتحامل ، وقامت مناقشات وكتبت ردود ، وأعرض هنا آراء أهم من كتب فى الموضوع فى ايجاز شديد . (٤)

لقد عرض المستشرق بلاشير قضية الشعر الموضوع عند المستشرقين بشيء

---

(١) أى العلماء .
(٢) طبقات الشعراء ص ٥ ـ ٦ .
(٣) طبقات الشعراء ص ٨ .
(٤) ينظر مصادر الشعر الجاهلى ص ٣٥٢ ـ ٣٧٦ حول آراء المستشرقين.

من الايجاز فى كتابه تاريخ الادب العربى ـ العصر الجاهلى (٥) فذكر أن أول من تناول الموضوع هو المستشرق نولدكه سنة ١٨٦٤ م ، وبعد ثمانى سنين تطرق للموضوع المستشرق آهلوارد فى مقدمة دواوين الشعراء الستة الجاهليين ، فأعاد ما ذكره الاول من الشكوك التى تحوم حول صحة الشعر الجاهلى ، وتابع هذين المستشرقين فى آرائهما مستشرقون آخرون طوال ثلاثين سنة هم موير وباسيه وبروكلمان وليال وهوار الذى كتب مقالة بعنوان : (مصدر جديد للقرآن) سنة ١٩٠٤ م (٦) • على أن هؤلاء جميعا لم يبلغوا فى نظرية الانتحال من الشك والاسراف ما بلغه المستشرق الانجليزى مرجليوث ، فقد ذهب الى رفض الشعر الجاهلى جملة ، فى مقالة له بمجلة الجمعية الملكية الاسيوية بعنوان (أصول الشعر العربى) سنة ١٩٢٥ م (٧) ، لقد ساق مرجليوث نوعين من الادلة فى محاولته اثبات بطلان الشعر الجاهلى ، أدلة خارجية وأخرى داخلية (٨) •

الادلة الخارجية : أقر مرجليوث أولا بوجود الشعر الجاهلى قبل الاسلام لان القرآن أشار اليه وفيه سورة باسم الشعراء ، ويقول أن خصوم النبى وصفوه بانه كان شاعرا مجنونا ، وتأتى فى القرآن ثلاثة ألفاظ هى : كاهن ومجنون وشاعر : وان هذه الالفاظ مترادفة بمعنى واحد « ويستنتج من ذلك ان من عادة الشعراء آنئذ التنبؤ بالغيب ••• وان الشعر كان غامضا مبهما »

(٥) ترجمة ابراهيم كيلاني ص ١٧٦ ـ ١٩٣ .

(٦) المرجع السابق ص ١٧٧ يشير إلى المجلة الآسيوية ص ١٤٢ وما بعدها .

(٧) مجلة الجمعية الملكية الآسيوية ص ٤١٧ ـ ٤٤٩ وترجع صلة مرجليوث بالموضوع إلى سنة ١٩٠٥ حين كتب عن (محمد وظهور الاسلام) ثم عاد ولم أطراف الموضوع سنة ١٩٢٥ في بحثه أصول الشعر العربي .

(٨) لخص ناصر الدين الأسد مقالة مرجليوث في كتابه مصادر الشعر الجاهلي ص ٣٥٣ ـ ٣٦٧ ومنه أفدنا ونقلنا . وقد ترجمنا نص بحث مرجليوث وعلقنا عليه وقدمنا لنظرية الانتحال في كتاب (أصول الشعر العربي) سنة ١٩٧٧ وطبع في بيروت سنة ٧٩ و ١٩٨١ .

ويقول : « ربما كان ما تبيح لنا الشواهد القرآنية قوله هو أنه كان قبل الاسلام بعض الكهان من بين العرب يعرفون باسم (الشعراء) كانت لغتهم غامضة مبهمة كما هو الشأن دائما فى الوحى » .

ويتعرض لمسألة نشأة الشعر الجاهلى وانها مسألة غامضة ، وآراء القدامى فيها متباينة فقد عزا بعضهم شعرا الى آدم والى عهد اسماعيل ، ولكن الرأى السائد ان الشعر بدأ قبيل ظهور الاسلام بأجيال قليلة ، والذين يرون هذا الرأى يجعلون مهلهلا أو إمرأ القيس أول الشعراء ومع ذلك فقد أوردوا شعرا لشعراء سبقوهما بزمن طويل ، وان الشعر الذى وصل يشير فى مواطن كثيرة الى الكتابة فلا بد أن يكون عرب ما قبل الاسلام ـ الذين كانوا يستخدمون لغة القرآن ـ كانوا مجتمعا أدبيا عاليا . ويتحدث عن حفظ الشعر الجاهلى فيقول : « لو فرضنا أن هذا الشعر حقيقى فكيف حفظ ؟ لا بد أنه حفظ أما بالرواية الشفهية وأما بالكتابة ، ويبدو أن الرأى الاول هو الذى يذهب اليه المؤلفون العرب » ثم يشك فى وجود الرواية الشفهية ، لان ذلك يقتضى أن يكون هناك رواة عملهم فقط حفظ الاشعار ، وان الاسلام يجب ما قبله وأن القرآن ذكر أن الشعراء يتبعهم الغاوون فهذا ما يدعوهم الى نسيان الشعر ، ثم أن القصائد تصور انتصارات القبائل بعضها على بعض وأن الاسلام يحث على نسيان تلك الحوادث لان هذه القصائد تثير الضغائن الجاهلية .

واذا كان الشعر الجاهلى لم ينقل بالرواية الشفهية التى يزعم مرجليوث أنه دحضها ، فلم يبق الا طريق الكتابة ، وبعد أن يقر بوجود الكتابة ينفى أن يكون الشعر قد نقل بطريق الكتابة ، وذلك أن القرآن ينفى أن يكون للجاهليين كتابا يقرأونه ، وان الادب يتطور من الصور الشاذة غير المألوفة الى الصور المألوفة المنتظمة ، وان الشعر الذى وصل ويزعم أنه جاهلى انما هو مرحلة تالية للقرآن لا سابقة عليه ، لان الاساليب الادبية سواء النثر المسجوع

والشعر فيها مشابه من أسلوب القرآن ، وفى القرآن نثر مسجوع وفيه ايضا أمثلة على كثير من الاوزان الشعرية ، والتطور من الاسلوب القرآنى الى الاسلوب المنتظم يبدو متمشيا مع المألوف .

ثم يجمع الاخبار والروايات التى ذكرها الرواة فى اتهام بعضهم البعض، ويجرح هؤلاء الرواة من مثل حماد وجناد وخلف الاحمر وابى عمرو بن العلاء والاصمعى وابى عمرو الشيبانى وابن اسحق والمبرد ، ويتساءل عن مصادر هؤلاء اذا كان الاسلام قد حارب الوثنية وناصبها العداء وكان الشعراء لسان تلك الوثنية ، فمن هم اولئك الذين حفظوا الشعر ثم نقلوا الى غيرهم تلك الاشعار التى تنتسب الى نظام أبطله الاسلام ، ثم يعود فينفى ما قاله أولا بأن هؤلاء الشعراء « لم يكونوا كما يبدو عليهم لسان الوثنية الناطق ، بل كانوا مسلمين فى كل شىء ما عدا الاسم » .

ثم ينتقل الى الادلة الداخلية فيقول :

ان هذا الشعر الجاهلى فيه اشارات الى قصص دينى ورد فى القرآن ، وفيه كلمات اسلامية مثل : الحياة الدنيا ويوم القيامة والحساب وبعض صفات الله ، ولا نجد فى الشعر جو الالهة المتعددة الذى نجده فى النقوش ، وربما كان هذا الذى أوحى للاب شيخو نظريته فى انهم جميعا نصارى ، وان تكن هذه النظرية غير صحيحة » ، وحيثما يكن النصارى تكن لهم كتبهم المقدسة وتتأثر لغتهم وأفكارهم تأثرا كبيرا بتعبيرات الاناجيل ورسائل الحواريين والاناشيد ، ويتخذ شعرهم فى الغالب طابع الترانيم ، ولكن فى الشعر ــ الذى يفترض أنه شعر جاهلى ــ ندرة كبيرة فى الاشارات الى الكتاب المقدس وتعاليم المسيحية حتى لدى الشعراء الذين ازدهروا فى بلاط مسيحى ... وبالرغم من ان الشعراء الجاهليين يقسمون كثيرا ، فهم لا يكادون يختلفون فى

قسمهم بالله وهو قسم شائع حقا فى دواوينهم » ويستنتج بعد ذلك : « ان الديانة الوحيدة التى يصح أن يعتنقها هؤلاء الشعراء الجاهليون هى الاسلام » .

وتعرض مرجليوث الى اللغة الجاهلية من حيث اختلاف اللهجات بين القبائل ، والاختلاف بين لغة القبائل الشمالية واللغة الحميرية الجنوبية « ولو أننا افترضنا أن أثر الاسلام فى قبائل بلاد العرب وحد لغتهم ، فانه من الصعب أن نتصور أنه كانت ثمة لغة مشتركة ـ تختلف عن لغات النقوش ـ منتشرة فى انحاء شبه الجزيرة كلها قبل ان يهيىء الاسلام هذا العنصر الموحد ، واذا كان هناك شعراء فى بلاد الجنوب فلا بد أنهم نظموا باحدى اللهجات الجنوبية ، ويقول : « وكما أن وجود الافكار الاسلامية فى الاثار المقطوع بجاهليتها دليل على وضعها وزيفها ، فان استخدام لهجة جعلها القرآن لغة فصحى أمر يدعونا الى أن نشك فيها طويلا ... ويبدو أن المسلمين الذين جمعوا قصائد من جميع انحاء شبه الجزيرة بلغة واحدة ، كان عملهم هذا متمشيا مع عملهم فى جعل كثير من هؤلاء الشعراء بل أكثرهم يعبدون الله ولا يشركون به ، انهم يسحبون على الماضى ظواهر هم أنفسهم يعرفونها » .

ويفترض مرجليوث أن الموسيقى لم توجد فى العصر الجاهلى وانها من مستحدثات العصر الاموى ، وأن التطور يقضى بأن ينشأ الرقص ثم الموسيقى ثم الشعر ، فمن غير المعقول لديه أن يتصور وجود الوزن الشعرى عند العرب بهذا النظام وبهذه الغزارة ، ويقول : « لقد كانت الممالك الجاهلية التى نعرفها عن طريق النقوش ذات حضارة باسقة ، ولكن لا يبدو أنه كان لها شعر ، فهل نصدق أن الاعراب غير المتحضرين كان لهم شعر فى مثل هذه الصور المركبة ، كما يصدق بذلك العلماء الاقدمون من المسلمين ؟ وبوجه عام فان من المرجح احتمال صواب ما افترضناه وهو : ان كلا من الشعر والنثر المسجوع كانا فى معظمهما مشتقين من القرآن ، وان تلك الجهود الادبية التى

سبقت القرآن كانت أقل فنا منه لا أكثر فنا » (١) ٠

لقد كانت مقالة مرجليوث حافزا لكتابات كثـــيرة ، لما حوته من آراء جريئة ومزاعم وتصورات تخطىء الواقع التاريخي وحقيقة الحياة الجاهلية ، فكان المستشرقون أنفسهم هم الذين ردوا عليه وناقشوا نظرياته وحاجوا مزاعمه ولعله لم يتح للعرب أن يطلعوا على أفكاره تلك أو لم يكن لمن اطلع عليهـا ثقافة قديمة بالشعر تمكنه من مناقشته والرد عليه ٠

وكان أول المستشرقين الذين ردوا على افتراضات مرجليوث هو شارلس جيمس ليال فى المقدمة التى كتبها للجزء الثانى من المفضليات سنة ١٩١٨ م فقد ناقش ما كتبه مرجليوث (٢) حول حماد الراوية وخلف الاحمر ، فعرض سيرتهما وناقش الروايات التى قيلت حولهما يقول : « انه لمن الخطأ العظيم ، أن نعد هذين الرجلين ـ حمادا وخلفا ـ النموذجين المثاليين للرواة المحترفين الذين كانوا يروون أشعار القبائل ٠ فقد كانا كلاهما من أصل فارسى ٠ أما رواة القبائل فكانوا من العرب ، يختارهم الشعراء ليكونوا الوسيلة التى تحفظ شعرهم وتخلده فى صدور القبيلة والامة العربية بعامة وكان من هؤلاء أن أخذ الرواة الجامعون فى القرنين الاول والثانى الهجريين ما جمعوا من شعر ٠ وأما أن نذهب كما ذهب أحد العلماء المحدثين (١) الى ان جميع ما نسميه بالشعر العربى القديم موضوع منحول ، مستدلين على ذلك بالقصص التى تروى عن حماد وخلف ٠٠٠ فهو مذهب مخالف لجميع وجوه هذه القضية واحتمالاتها ٠ ان حمادا وخلفا كانا يحاكيان أسلوبا للنظم كما قد قرر واتخذ صورته النهائية

---

(١) ما جاء بين الأقواس هو كلام مرجليوث نقلا عن مصادر الشعر الجاهلى ص ٣٥٣ ـ ٣٦٧ ٠

(٢) حول كتابه (محمد) المنشور سنة ١٩٠٥ وحول مقالة عن (محمد) فى معلمة الدين والاخلاق سنة ١٩١٦ ٠

(١) يشير الى مرجليوث ٠

زمنا طويلا قبل الاسلام ، وكان قد نظم به شعراء كثيرون كانوا وثنيين ، أو غير مسلمين ، فى زمن محمد ثم أسلموا ، وقد كثر استخدامه وسجل بالكتابة لعهد شعراء القرن الاول الهجرى (مثل جرير والفرزدق والاخطل وذو الرمة ، ولم أذكر الا الذين خلفوا لنا تراثا من الشعر كبيرا) • فسلسلة الرواية والنقل لم تنقطع ، فقد كانت الطبقة الاخيرة من الشعراء على قيد الحياة ينظمون الشعر حينما كان العلماء يدأبون فى جمع الشعر وتدوينه • ولا يمكن أن تعترضنا فى دراستنا لهؤلاء الشعراء ، مشكلة الوضع والنحل لان رواتهم قد دأبوا على كتابة القصائد التى تلقى عليهم لنشرها وتخليدها • أما الشعر الجاهلى فربما حاكاه حماد وخلف ، ولكن هذه الحقيقة نفسها ، المحاكاة ، تدل على وجود أصل يحاكى • أما أن نذيع أن ما بين أيدينا لا يعدو أن يكون الصورة المحكية ، وأنه لم يبق شىء من الاصل نفسه ، فذلك أمر لا يقره الفهم السليم على ضوء هذه الظروف » (٢) •

ثم عاد ليال فتناول موضوع صحة الشعر الجاهلى والرد على مرجليوث فى مقدمته لديوان عبيد بن الابرص ، وأوثر هنا أن أنقل رأيه نصا لما فيه من حجة واضحة لانه كان يدرس ويحقق موضوعات ودواوين الشعر الجاهلى فكانت الصورة فى ذهنه واضحة جلية غير مشوشة بالنظريات والافتراضات ، يقول ليال : « أما موضوع صحة هذا الشعر فأمر من الطبيعى أن يختلف فيه الناس • اذ من المؤكد أن شعر الاعراب فى الجاهلية العربية لم ينتقل بالكتابة ، بل بالرواية • وكانت القبيلة تعد القصائد التى تسجل انتصاراتها أغلى ما تملك ، فكانت ترويها جيلا بعد جيل ، وبالاضافة الى هذه المعرفة العامة المنتشرة فى القبيلة ، كان هناك الراوى ، وعمله أن يحتفظ بمذخور الشعر الذى تعيه ذاكرته ، وكان يعتنى بالذاكرة ــ فى العصور التى لم تستخدم فيها

(٢) مقدمة المفضليات ٢/٢٠ ــ ٢١ عن مصادر الشعر ص ٣٧١ •

الكتابة الا فى المدن ولاغراض خاصة ـ عناية كبيرة ، بحيث كانت أكثر قدرة على الاستيعاب منها في العصر الحديث وليس من الغريب أن تتناقل القصائد بهذه الطريقة قرنين أو ثلاثة •

ومن الطبيعى أن يفترض المرء أن هذه القصائد اعتراها بعض التغيير فى أثناء هذا التناقل فقد تستبدل بعض الكلمات المترادفة بغيرها ، وقد يؤدى عدم تثبت الذاكرة الى اسقاط أبيات ، أو تغيير فى ترتيبها ، أو وضع عبارات الراوى بدل العبارات التى نسيها • ومثل هذه الظواهر شائعة في كل مكان • غير اننا حين نفحص القصائد ذاتها نجد فيها من الشخصية الفردية ما يكفينا للاستدلال على أن القصائد ، فى معظمها ، من نظم الشعراء المنسوبة اليهم • فالمعلقات السبع مثلا كلها قصائد ذات شخصية وخصائص واضحة ، وتعرض لنا سبع شخصيات متميز بعضها من بعض كل التميز • ونجد الامر نفسه فى القصائد الثلاث الباقية (للاعشى والنابغة وعبيد) التى عدها بعض النقاد من المعلقات • فقد تركت شخصية امرىء القيس وزهير ولبيد والنابغة والاعشى طابعها على شعرهم ، ومن جموح الخيال أن نظن أن معظم القصائد المنسوبة لهم مصنوعة فى عصر متأخر ، صنعها علماء عاشوا فى ظروف مغايرة تمام المغايرة ، وفى حياة شديدة الاختلاف عن حياة الاعراب فى الصحراء العربية •

والسبب الثانى لاعتقادنا ان الشعر القديم صحيح فى جملته ، وليس منحولا ، هو أن شعر القرن الاول الهجرى يتضمن وجود هذاالشعر الجاهلى ويفترض سبقه عليه : فقد استمر شعراء القرن الاول المشهورون : الفرزدق وجرير والاحطل وذو الرمة ، يتبعون تقاليد الشعراء الجاهليين من غير أن تكون بينهم فجوة ، فضلا عن انهم ذكروهم فى شعرهم ، فقد استعملوا ذخيرتهم الشعرية مرارا متكررة ، متناولين الموضوعات نفسها بالاسلوب نفسه ، محسنين

ومحورين ومقتبسين ، ولكنهم ما يزالون متقيدين بالتقاليد نفسها • وليس هناك من شك فى أنه قد وصلنا شعر هؤلاء الشعراء صحيحا فقد عاشوا فى عصر عم استخدام الكتابة فيه لتدوين الشعر وان كانت الرواية ما تزال أداة نشره بين الجمهـور •

وسبب ثالث : هو أن الشعر القديم مليء بألفاظ كانت غريبة على العلماء الذين كانوا أول من عرض هذا الشعر على محك النقد • فقد كانت تنتمى الى مرحلة لغوية أقدم من عصرهم ، وكانت غير مستعملة فى الزمن الذى كتبت فيه القصائد وجمعت الدواوين • ولا بد أن يتنبه كـل مـن اتصل بالشروح القديمة وعرفها (وهى المادة التى جمعت منها المعاجم الكبيرة فيما بعد) الى ان الشراح ـ الذين يختلفون فيما بينهم اختلافا كبيرا ـ توصلوا الى شرح الصعوبات بمقابلة عبارة بأخرى ، وبالجدل والنقاش ، لا بالرجوع الى لغة الخطاب التى لم تعد تحوى الالفاظ التى يبحثون عن معناها • وتعتمدالمعاجم كل الاعتماد على الشعر القديم وعلى القرآن والحديث ، وتفترض صحة الشعر كما تسلم بصحة القرآن والحديث » • (١)

وتناول مستشرقون آخرون مهمة الرد على مرجليوث ودحض نظرياته نكتفـى بالاشارة الى مقالة جـورجى ليفى دلافيدا عـن (بـلاد العرب قبل الاسلام) (٢) تحدث فيها عن قيمة المصادر التاريخية للعصر الجاهلى وأصـل فيها الرواية الشعرية •

---

(١) مقدمة ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٧ ـ ١٩ ومصادر الشعر الجاهلى ص ٣٧٢ ـ ٣٧٤ وترجم حسين نصار أيضا مقدمة ليال فى طبعته لديوان عبيد سنة ١٩٥٧ •

(٢) ص ٤١ ـ ٤٨ سنة ١٩٤٤ ينظر مصادر الشعر ص ٣٧٤ •

أما العرب ، فقد كان أول من بحث هذا الموضوع من المعاصرين هـو مصطفى صادق الرافعى فى كتابه (تاريخ آداب العرب) سنة ١٩١١ م ، وقد روى ما قاله القدماء وتابع ابن سلام فى آرائه دون غلو او شطط .

ثم تناول الموضوع الدكتور طه حسين ، فألف فيه كتابـه (فى الشعر الجاهلى) سنة ١٩٢٦ م فأثار ضجة كبيرة لما فيه من آراء جريئة يتعرض بعضها للدين ، ثم حذف منه وزاد فيه ووسعه فاصدره سنة ١٩٢٧ بعنوان (فى الادب الجاهلى) ، وقد أخذ طه حسين اكثر مادته من روايات ابن سلام واستنتاجات وآراء مرجليوث ، وتوسع فيها وعمم الاحكام الفردية واتخذ الامور الخاصة قواعد عامة حتى خرج بحكم جرىء هو صياغة جديدة لرأى مرجليوث ، وذلك قوله : « ان الكثرة المطلقة مما نسميه ادبا جاهليا ليست من الجاهلية فى شىء ، وانما هى منحولة بعد ظهور الاسلام ، فهى اسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم اكثر مما تمثل حياة الجاهليين »(١) .

وقد قسم بحثه الى ثلاثة أقسام : دوافـع الشك فى الشعر الجاهلى ، واسباب الوضع والنحل ، ثم درس فريقا من الشعراء وشك فى نسبة الشعر اليهـم .

تحدث فى دوافع شكه فقال : ان الشعر الجاهلى لا يمثل الحيـاة الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية للعرب الجاهليين (٢) ، وان هذا الشعر بعيد كل البعد عن ان يمثل اللغة العربية فى العصر الجاهلى ، لان هناك خلافا قويا بين لغة حمير ولغة عدنان ، وان القبائل الشمالية والقبائل الجنوبية تختلف من

---

(١) فى الأدب الجاهلى ص ٧١ ـ ٧٢ .
(٢) السابق ص ٨٨ .

حيث اللهجة ، مع ان الشعر الذى وصلنا جاء بلهجة واحدة • وقال : ان فريقا من العلماء اتخذوا الشعر الجاهلى مادة للاستشهاد على ألفاظ القرآن والحديث ، مع ان الشعر لم يصل مدونا بل عن طريق الرواية الشفهية •

ويتحدث عن أسباب الانتحال فيرجعها الى :

السياسة : ويريد بها العصبية القبلية مثل ما كان بين قريش والانصار من عداء ، وما كان بين القبائل من أحقاد قديمة ، ومع ذلك لم يستشهد بشعر جاهلى بل استشهد بشعر اسلامى قيل بعد الاسلام •

الدين : وتطرق الى الشعر الذى قيل قبل البعثة تبشيرا بالنبى أو ما جاء عند المفسرين من ذكر الامم السابقة ، وان الديانة اليهودية والديانة المسيحية لم يظهر لهما أثر فى الشعر الجاهلى •

القصص : وتحدث عن القصص وما كانوا يضعون من الشعر لتزيين القصص والاخبار ، ويقسم ذلك القصص الى : قصص لتفسير الامثال والاسماء والامكنة ، وقصص المعمرين وأخبارهم ، وقصص ايام العرب واخبارها •

الشعوبية : وتحدث عن الخصومة بين العرب والموالى ، وان هؤلاء الشعوبية قد نحلوا اخبارا واشعارا واضافوها الى الجاهليين والاسلاميين وكذلك فعل خصومهم يقول : « وكانت الشعوبية تنحل من الشعر ما فيه عيب للعرب وغض منهم ، وكان خصوم الشعوبية ينحلون من الشعر ما فيه ذود عن العرب ورفع لاقدارهم » (٣) ولكنه لم يقدم شاهدا واحدا على ذلك •

---

(٣) السابق ص ١٨٦ •

الرواة : وتحدث عن فساد مروءة بعض الرواة مثل حماد وخلف وابى عمرو الشيبانى ، وانهم كانوا ينحلون الاشعار ويعبثون بالشعر ، وطائفة أخرى اتخذت الرواية مكسبا اولئك هم الاعراب الذين كان يذهب اليهم رواة الامصار يسألونهم عن الشعر والغريب •

ثم تناول فى القسم الثالث من كتابه الشك فى شعر مجموعة من شعراء الجاهلية مثل امرىء القيس وعلقمة الفحل وعبيد بن الابرص وعمرو بن قميئة والمهلهل وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وطرفة والمتلمس والاعشى ، ثم تحدث عن الشعر المضرى وحاول ان يتخذ له مقياسا فنيا لصحة الشعر ، ذلك المقياس الذي يظهر فى شعر اوس بن حجر وتلاميذه زهير وكعب والحطيئة •

وقد أثار كتاب طه حسين هذا الرأى العام الادبى والدينى ، فانبرى للرد عليه ومناقشته وتفنيده مجموعة من الكتاب والادباء ، منهم الذى يغلب عليه الحماس والعاطفة ، ومنهم الذى اتبع الاسلوب العلمى المتزن فى المناقشة ، فنشر فى الصحف والمجلات الكثير من المقالات والردود ، وألفت كتب فى ذلك ، منها : (نقد كتاب الشعر الجاهلى) لمحمد فريد وجدى و (الشهاب الراصد) لمحمد لطفى جمعة و (نقض كتاب فى الشعر الجاهلى) لمحمد خضر حسين ، و (محاضرات فى بيان الاخطاء العلمية والتاريخية التى اشتمل عليها كتاب فى الشعر الجاهلى) لمحمد الخضرى و (النقد التحليلى لكتاب فى الادب الجاهلى) لمحمد أحمد الغمراوى وله مقدمة طويلة لشكيب ارسلان وفصول فى كتاب (تحت راية القرآن) لمصطفى صادق الرافعى •

ولعل أوثق هذه الكتب واحسنها علما ودقة ـ فيما أحسب ـ هو كتاب النقد التحليلى للغمراوى وقد عرض ناصر الدين الاسد لهذه الكتب واستعرض

الردود والمناقشات فى كتابه مصادر الشعر الجاهلى (١) بدقة ووضوح •

هذه بايجاز قصة نظرية الانتحال كما جاءت عندالقدماء والمحدثين من مستشرقين وعرب (١) وقد آثرت وصفها دون الدخـــول فى مناقشة الاراء وتفنيد المزاعم وتصويب الاخطاء لان ذلك امرا فرغ منه الكاتبون واستقر على ضوء الدراسات الحديثة فى تأصيل الشعر الجاهلى ونفى الموضوع عنه ، ومنهجنا فى تناول الشعر الجاهلى يقوم على أخذ ملاحظات النقاد السابقين الثقات والافادة منها ، اذ لا يمكن الركون الى شعر نبه على بطلانه الاقدمون ، وحــام الشك حوله • ولا نثق كذلك برواية اولئك المتهمين الكذابين الذين عرفوا بوضعهم وتزيدهم ، وضمانة كل بحث أمين ، ان يعتمد على تمحيص الاخبار والاشعار ، وتنقيحها وتحقيقها ، ويجدر بالباحث قبل أن يفيد من الشعر ويبني عليه احكاما معينة ان يعرضه على الحدث التاريخي ، فاذا استجاب له قبله والا رفضه واستبعده ، ولا يجوز ان يبنى عليه حكما او يستنبط نتيجة ، وان يقارن شعر الشاعر بما ثبت وصح من شعره ، فاذا وافقه كان منه والا أعرض عنه ، وعليه ألا يزعم اليقين القاطع لما يتوصل اليه من نتائج واحكام ، فأين اليقين القاطع فى مثل هذه المباحث التى تقوم دلائلها على مناقشة الاخبار واستنطاق الروايات والنصوص •

---

(١) ص ٤٠٢ ــ ٤٢٨ •

(٢) وقد كتب في موضوع الانتحال عند القـــدامي والمحدثين فريق مـــن الباحثين غير من ذكروا هم : فؤاد أفرام البستاني (الشعر الجاهلى) سلسلة الروائع ص ١٧ ــ ٢١ الطبعة الاولى سنة ١٩٢٧ ، وقد أفرد ناصر الدين الأسد الباب الرابع من كتابه (مصادر الشعر الجاهلي) ص ٢٨٧ ــ ٤٢٨ سنة ١٩٥٦ وهو أوسع وأشمل من كتب فى هــذا الموضوع اذ حكى آراء القدامي والمستشرقين والعرب المعاصرين وقد أفاد منه كل من كتب بعده ، وتعرض شوقي ضيف لقضية الانتحال بايجاز فى كتابه (العصر الجاهلى) ص ١٦٣ ــ ١٧٥ سنة ١٩٦٠ م ، وأضاف احمد الحوفى موضوع توثيق الشعر الجاهلى الى الطبعة الرابعة من كتاب (الحياة العربية من الشعر الجاهلى) ص ٢٠ ــ ٥٤ سنة ١٩٦٢ ، والف بعد ذلك عبد الحميد المسلوت كتابا باسم (نظريـــة الانتحال في الشعر الجاهلى) بلا تاريخ ، وكتب علي جواد الطــاهر بحثا بعنوان (الشعر المفتعل الموضوع عند ابن سلام) مجلة الآداب العدد ١٢ كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩٦٥ •

المعلقات

المعلقات قصائد طوال جياد ، اختيرت من احسن الشعر الجاهلى ، قوة ومتانة وجمال اسلوب فهى الصورة الناضجة الكاملة التى انتهت اليها تجارب الجاهليين فى التعبير الادبى ، ولذلك غطت شهرتها ما سواها من الشعر الجاهلى ، وصار لقائليها من الذكر والشهرة ما لم يظفر به غيرهم من الشعراء ، واتخذها الادباء والشعراء - بعد عصرها - قدوة يحاكونها حين ينظمون ، متأثرين بأسلوبها ولغتها وطريقة نظمها وتسلسل أفكارها ، محاولين أن يبلغوا فى قصائدهم مبلغ أولئك الجاهليين فى معلقاتهم .

اتفق القدماء - غير التبريزى - على ان المعلقات سبع ، هى : لامرىء القيس ، وزهير بن ابى سلمى ، وطرفة بن العبد ، ولبيد بن ربيعة ، وعمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة ، وعنترة العبسى (١) . ولم يخالفهم فى هذا الا ابو زيد القرشى - وخلافه فى الشعراء وليس فى عددهم - (٢) فقد اخرج

---

(١) هذا ما ذهب اليه كل من : ابن عبد ربه - العقد الفريد ٥/٢٦٩ - ٢٧٠ وابن رشيق - العمدة ١/٩٦ وابى جعفر النحاس - السبع الطوال مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٤٦٠ آداب وابن الانبارى - شرح القصائد الطوال الجاهليات والزوزنى - شرح المعلقات السبع .

(٢) أثبت النساخ فى جمهرة أشعار العرب قصيدة عنترة مع المعلقات ، والصواب أن موضعها مع المجمهرات ولذلك وهم الدكتور طبانة فى عد اصحاب المعلقات ثمانية ولم يقل بذلك القرشى حين احصاهم ، ينظر معلقات العرب ص ١١ .

من هؤلاء السبعة الحارث بن حلزة وعنترة ، واضاف الى الباقين النابغة الذبياني والاعشى فهم عنده : امرؤ القيس ، وزهير ، وطرفة ، ولبيد ، وعمرو بن كلثوم ، والنابغة ، والاعشى (٣) .

أما التبريزى شارح المعلقات ، فقد جمع بين رأى هؤلاء المجمعين على اصحاب المعلقات ، وبين رأى القرشى ، ثم أضاف اليهم عبيد بن الابرص ، فبلغت المعلقات عنده عشرا . ولم يخلط احد فى هذه المعلقات وفى معرفة اصحابها الا ابن خلدون الذى تحدث عنها وذكر اصحابها وتعليقها ثم قال : « ... كما فعل امرؤ القيس بن حجر والنابغة الذبيانى وزهير بن ابى سلمى وعنترة ابن شداد وطرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة والاعشى وغيرهم من اصحاب المعلقات السبع » (٤) والاضطراب ظاهر فى كلامه حيث احصى سبعة شعراء ثم قال : (وغيرهم من اصحاب المعلقات السبع) فهذه العبارة الملحقة لا مكان لها ، وهو هنا يسقط من شعراء المعلقات لبيد بن ربيعة وعمرو بن كلثوم ، وهما شاعران أجمع الرواة على انهما من شعراء المعلقات ولم يشك بهما أحد قبله ، وان كان كلامه (وغيرهم من أصحاب المعلقات) يشملهما . ثم انه أقحم علقمة بن عبدة بين شعراء المعلقات وهذا ما لم يقل به أحد .

وانى هنا أمام فرض ارجحه ، هو : أن يكون ابن خلدون قد سمى قسما من شعراء المعلقات دون الستة ثم قال : (وغيرهم من اصحاب المعلقات السبع) ثم جاء النساخ فارادوا ان يتموا تسمية شعراء المعلقات فزادوا فى كلامه — عن جهل أو عن خطأ . أما من أين جاء ذكر علقمة بن عبدة ، ولم يذكره أحد فى أصحاب المعلقات ، ففى أكبر الظن ان ذهن النساخ انصرف

---

(٣) جمهرة أشعار العرب ص ٩٥ وما بعدها .
(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٥٨١ .

الى ان المعلقات هى السموط ، وهى كذلك ، وان قريشا اطلقت اسم السمط على قصيدتين لعلقمة ، ففى رواية تسند الى حماد ، ان علقمة بن عبدة ، قدم على قريش فأنشدهم قصيدته التى أولها :

هل ما عَلِمْتَ وما استودعتَ مكتومُ
أم حبلُها اذ نأتْكَ اليومَ مصرومُ

فقالوا : هذه سمط الدهر ، ثم عاد اليهم العام المقبل فأنشدهم :

طحا بك قلبٌ في الحسانِ طروبُ
بُعَيْدَ الشباب عصرَ حان مشيبُ

فقالوا : هاتان سمطا الدهر (١) . فعدوا لذلك علقمة فى اصحاب المعلقات ، وليس ببعيد أن يكون ابن خلدون نفسه قد وقع فى هذا الوهم . وعلى اى حال فان عبارة ابن خلدون لا يمكن ان تؤخذ على ما فيها من خلط واضطراب ، فاذا اعرضنا عن هذه الرواية ـ لاضطرابها وتناقضها وتأخرها ـ (٢) نجد بعد ذلك ان الرواة يجمعون على الشعراء الستة الاوائل ، ولم يختلفوا فى واحد منهم وهم : امرؤ القيس وزهير وطرفة ولبيد وعمرو بن كلثوم وعنترة . وان سابع هؤلاء الشعراء هو الحارث ابن حلزة عند اكثر الرواة ، ولم يخالف فى ذلك الا ابو زيد القرشى الذى أخرج الحارث وعنترة

(١) الأغانى ٢١/١٧٣ ط ليدن .
(٢) توفى ابن خلدون سنة ٨٠٨ هـ .

وأثبت مكانهما النابغة والاعشى ، وان التبريزى وحده اضاف عبيد بن الابرص ، وعلى هذا فالخلاف يكاد ينحصر فى النابغة والاعشى . وكذلك اختلفوا فى قصيدة كل شاعر من هذين الشاعرين ، فأبو زيد القرشى روى للنابغة قصيدته (٣) :

عوجوا فحيُّوا لنُعْمٍ دمنةَ الدارِ

ماذا تحيونَ من نُؤْيٍ واحجار

فى حين أن التبريزى الذى أخذ بقول القرشى فى عد النابغة والاعشى ضمن شعراء المعلقات ، يروى للنابغة قصيدته (٤) .

يا دارَ مَيةَ بالعلياءِ فالسنَدِ

أقوتْ وطال عليها سالفُ الأمد

ويروى أبو زيد للاعشى قوله (٥) :

ما بكاءُ الكبيرِ بالأطلالِ

وسؤالي وما تردُّ سؤالي

---

(٣) الجمهرة ص ١١٢ .
(٤) شرح القصائد العشر ص ٤٥٣ .
(٥) الجمهرة ص ١١٩ .

اما التبريزى فيروى للاعشى قصيدته (٦) :

دعْ هُـريرَةَ إنّ الركبَ مرتحِلُ

وهل تُطيقُ وداعاً أيها الرجلُ

ونخرج من كل ذلك ان شعراء المعلقات سبعة ، وان الخلاف انحصر بين الرواة وابى زيد القرشى حول النابغة والاعشى .

وقد سميت المعلقات بأسماء أخرى تفيد معنى النفاسة والجودة والاختيار والتعليق والعدد ، فمن هذه الاسماء :

السبع الطوال : روى عن أبى جعفر النحاس ان حماد الراوية هو الذى جمع (السبع الطوال) (١) ، وكذلك جاءت عند ابى زيد القرشى ، فقد نقل عن المفضل (٢) ان امرأ القيس وزهيرا والنابغة والاعشى ولبيدا وعمرا

---

(٦) شرح القصائد العشر ص ٤٢٢ .

(١) معجم الأدباء ٤/١٤٠ ووفيات الاعيان ٢/٢٠٥ .

(٢) المفضل هذا هو غير المفضل الضبى ، بل هو ابو عبد الله المفضل بن عبد الله بن محمد بن المجبر بن عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب (ترجمته فى نسب قريش ص ٣٥٦ وجمهرة أنساب العرب ص ١٤٦) وعلى ذلك فان وفاة ابى زيد القرشى التى ذكرها الباحثون سنة ١٧٠ هـ كما عينها سركيس فى معجم المطبوعات غير صحيحة . اعتمادا على أن أبا زيد روى عن المفضل ، والمرجح أن وفاة القرشى تقع خلال منتصف القرن الخامس لان ابن رشيق ذكره وتوفى ابن رشيق سنة ٤٦٢ هـ وينظر مصادر الشعر الجاهلى فى حديثه عن جمهرة أشعار العرب ص ٥٨٤ وما بعدها

وطرفة ، أصحاب (السبع الطوال) التى تسميها العرب (السموط) (٣) •
وذهب الرافعي الى ان حمادا نقل هذه التسمية من الحديث الشريف : « أعطيت مكان التوراة السبع الطوال » وهي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف ، واختلفوا فى السابعة انها يونس أو يوسف أو الكهف (٤) •

أما ابن الانبارى فسماها : (السبع الطوال الجاهليات) (٥) •

ومن أسمائها : (المذهبات) بدعوى أنها كتبت بماء الذهب ، ولعل أقدم رواية في ذلك جاءت عند ابن قتيبة في حديثه عن عنترة العبسى ، قال :
« فكان أول ما قال قصيدة » :

هل غادر الشعراء من متردّم

وهي أجود شعره ، وكانوا يسمونها المذهبة (٦) •

وقد تناول ابن عبد وبه معنى التذهيب بشيء من الوضوح والتفصيل ، فقال : « حتى لقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له أن عمدت الى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة وعلقتها بين أستار الكعبة ، فمنه يقال مذهبة امريء القيس ومذهبة زهير ، والمذهبات سبع ، وقد يقال لها المعلقات (٧) » وتابعه في هذا ابن رشيق القيروانى اذ

---

(٣) جمهرة أشعار العرب ص ٨٠ •
(٤) تاريخ آداب العرب ٣/١٨٩ •
(٥) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، حققه عبد السلام هارون •
(٦) الشعر والشعراء ١/٢٥٢ •
(٧) العقد الفريد ٥/٢٦٩ •

قال : فكتبت فى القباطى بماء الذهب » (٨) .

أما ابو زيد القرشى ، فقد أطلق اسم المذهبات على المجموعة التى اختارها من قصائد الاوس والخزرج خاصة ، وهى لحسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة ومالك بن العجلان وقيس بن الخطيم وأحيحة ابن الجلاح وابى قيس بن الاسلت وعمرو بن امرىء القيس (٩) ، ومن الواضح ان ليس فى هؤلاء أحد من أصحاب المعلقات ، وان أبا زيد سمى القصائد التى اختارها كل سبع قصائد باسم ولم يشرح مدلول هذا الاسم ـ غير اشارة صغيرة لمعنى المشوبات ـ ولعل التسمية متأتية من تشبيه هذه القصائد بالمعلقات التى كتبت بماء الذهب أو انها تستحق أن تكتب بماء الذهب لجودتها وروعتها .

وسميت المعلقات (السموط) ايضا ، وقد مر بنا ان قريشا سمت قصيدتين لعلقمة بن عبدة كل واحدة باسم السمط ، فقالوا : « هاتان سمطا الدهر » (١) . وذكر ابو زيد القرشى بعد أن أحصى شعراء المعلقات فقال : « هؤلاء أصحاب السبع الطوال التى تسميها العرب السموط ، فمن قال ان السبع لغيرهم فقد خالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة » (٢) .

ومن أسماء المعلقات ايضا (القصائد المشهورة) (٣) ، وسماها الباقلانى : (السبعيات) (٤) .

وهكذا نجد ان للمعلقات أسماء كثيرة ، ولكل اسم من اسمائها دلالة

---

(٨) العمدة ١/٩٦ .
(٩) الجمهرة ص ٨٠ ـ ٨١ .
(١) الاغانى ٢١/١٧٣ .
(٢) الجمهرة ص ٨٠ والعمدة ١/٩٦ .
(٣) شرح ابى جعفر النحاس ـ مخطوط .
(٤) اعجاز القرآن ص ١٥٩ .

عليها أو على صفة من صفاتها ، التى تعنى الجودة والنفاسة والطول والعدد والقدم ، ومهما اختلف النقاد والرواة القدماء فى تسميتها أو فى كتابتها ، فانهم متفقون على أنها القصائد المختارة الجيدة الصحيحة التى نزلت من نفوسهم منزلا رفيعا ، فقد اعجبوا بها وأولوها عنايتهم واهتمامهم ، لما فيها من جودة وابداع ونضج ، ولم يشك فى صحتها وجاهليتها أحد ، غير نفر من المعاصرين الذين أسرفوا فى الشك فأنكروا الشعر الجاهلى جملة .

وقد اتضح من الاسماء العديدة للمعلقات انها سميت بالصفات التى عرفت بها ، والمعلقات هو الاسم الذى كانت له الغلبة الاخيرة والشيوع فى العصور المتأخرة ، وتنحت الاسماء الاخرى عن الاستعمال الا فى القليل ، والمراد بالمعلقات ـ كما مر ـ انها القصائد التى وقع عليها الاختيار واستحسنها الناس ، فكتبوها وعلقوها على أستار الكعبة . هذا هو تفسير بعض القدامى لمعنى التعليق، وتصرف بعض المعاصرين فى تفسير التعليق بمسميات أخرى ، لا تجافى المعنى اللغوى للتعليق ، وهم بذلك يحاولون أن يدفعوا معنى التعليق على أستار الكعبة ، ومن تلك التفسيرات : أن لفظ التعليق متأت من تسمية المعلقات بالسموط ، والسمط العقد النفيس الذى يحلى به الجيد ويعلق فى العنق . أو أن المعلقات سميت كذلك لانها كتبت وعلقت فى سقف أو جدار ، أو انها أخذت من قول الملك اذا استجاد قصيدة لشاعر : (علقوا لنا هذه) أى اكتبوها وثبتوها فى الخزائن ، أو أن هذه القصائد لجودتها وامتيازها تعلق فى الاذهان ، أو أن الانسان يعلق بها ، أو أن لها صلة بالعلق بمعنى الثمين النفيس ... وما الى ذلك (٥) . ولا شك أن فى هذه التفسيرات الكثير من براعة التأويل والتفسير ، غير انها تأويلات لا تقوم على أساس من رواية صحيحة أو حجة بينة يمكن الاطمئنان اليها .

---

(٥) لقد أورد الحوفى هذه الآراء فى الحياة العربية ص ٢٠٩ ـ ٢١١ .

وقصة التعليق أو رفضه قديمة ، احاول أن اتتبعها فى عجالة :

إن أقدم الرواة الذين أشاروا الى التعليق صراحة هو ابن الكلبى (ت ٢٠٤ هـ) فقد قال : « أول شعر علق فى الجاهلية شعر امرىء القيس ، علق على ركن من أركان الكعبة ايام الموسم حتى نظر اليه ثم أحدر ، فعلقت الشعراء بعده ، وكان ذلك فخرا للعرب فى الجاهلية ، وعدوا من علق شعره سبعة نفر » (٦) ، وقال بالتعليق كذلك ابن عبد ربه (ت ٣٢٧ هـ) : « لقد بلغ من كلف العرب به (١) وتفضيلها له ان عمدت الى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة ، وعلقتها بين أستار الكعبة » (٢) ، ونص على التعليق ايضا ابن رشيق القيروانى (ت ٤٦٣ هـ) فقال : « وكانت المعلقات تسمى المذهبات ، وذلك لانها اختيرت من سائر الشعر فكتبت فى القباطى بماء الذهب وعلقت على الكعبة ... » (٣) . وتابعهم بعد ذلك ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) الذى قال ان التعليق كان بأركان البيت الحرام (٤) . وقد شرح البغدادى (ت ١٠٩٣ هـ) معنى المعلقة بانه الشعر المكتوب المعلق على ركن من أركان الكعبة (٥) .

هذه النصوص التى وردت فى كتب القدماء فيها شرح وبيان لمعنى المعلقات على أنها كتبت وعلقت ، ولكن غير هؤلاء من الرواة والعلماء تعرضوا لهذه القصائد ، ولشعرائها ، ولم ترد لديهم تسمية المعلقات ولا خبر التعليق ، ومن هؤلاء : ابن سلام (ت ٢٣٢ هـ) والجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) وابن قتيبة

---

(٦) مقدمة السبع الطوال ـ هارون ص ١١ .
(١) أى بالشعر .
(٢) العقد الفريد ٥/٢٦٩ .
(٣) العمدة ١/٩٦ .
(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٥٨١ .
(٥) خزانة الادب ١/٦١ ط بولاق .

(ت ٢٧٦ هـ) والمبرد (ت ٢٨٥ هـ) وابن الانبارى (ت ٣٢٨ هـ) وابو جعفر النحاس (ت ٣٣٧ هـ) والاصفهانى (ت ٣٥٦ هـ) والباقلانى (ت ٤٠٣ هـ) وغيرهم •

واذا كان فريق من العلماء قد أغفل اسم المعلقات والتعليق ، فان منهم من أنكر التعليق ورفض القول به ، وأول المنكرين : أبو جعفر النحاس فى شرحه للمعلقات ، فهو يفسر التعليق ، بأن الملك اذا استحسن قصيدة قال : « علقوا لنا هذه واثبتوها فى خزانتى » وينكر التعليق بالكعبة فيقول : « وأما قول من قال انها علقت بالكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة » (٦) ، وعن ابى جعفر النحاس نقل أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن الانبارى (ت ٥٧٧ هـ) فقال : « ولم يثبت ما ذكره الناس من انها كانت معلقة على الكعبة » (٧) ، وكرر هذا الرأى ياقوت الحموى (ت ٦٢٦ هـ) فى ترجمته لحماد (٨) •

وعلى رأى أبى جعفر النحاس اعتمد بعض الباحثين المعاصرين فانكروا فكرة التعليق ، وساقوا جملة أدلة فى ذلك ، ولكنهم أقروا من ناحية ثانية بصحة هذه القصائد ، وتأولوا تفسيرات كثيرة لتسميتها بالمعلقات ـ كما مر بنا ـ ، وأهم من ذهب هذا المذهب من العرب مصطفى صادق الرافعى (٩) واحمد الحوفى الذى قدم بين يدى بحثه اثنتى عشرة نقطة لانكار فكرة التعليق على الكعبة (١٠) ومن المستشرقين نيكلسون (١١) الانكليزى ، وهنجستنبرج

(٦) شرح القصائد السبع ـ مخطوط •
(٧) نزهة الالباء ص ٣٩ وهذا غير أبى بكر محمد بن القاسم الانبارى (ت ٣٢٨ هـ) شارح السبع الطوال •
(٨) معجم الادباء ٤/١٤٠ •
(٩) تاريخ آداب العرب ٣/١٩٢ وما بعدها •
(١٠) الحياة العربية ص ٢٠١ ـ ٢١٢ ولشوقى ضيف اشارة سريعة الى انكار التعليق ـ العصر الجاهلى ص ١٤٠ ـ ١٤١ •

الالمانى فى المقدمة الالمانية لمعلقة امرىء القيس التى تولى نشرها ، وهوار الفرنسى فى كتابه الادب العربى (١٢) ٠

وقد أفرد الدكتور طبانة كتابا لدراسة المعلقات ، ناقش فى فصل منه دعوى ابى جعفر النحاس فى شىء من التفصيل ، كما رد على حجج الباحثين المعاصرين فى انكار التعليق (١) ٠

ومع أن الحجج التى سيقت لانكار التعليق ، والحجج التى قدمت لاثباته واقراره كثيرة ووجيهة ، ولكنها جميعا تقوم على افتراضات منطقية ، ولست أرى صحة القطع بتعليقها ، كما لست أرى القطع بانكار تعليقها ، اذ ليس لدينا حتى الان الحجة البينة التى يطمئن اليها الباحث لدفع التعليق أو اقراره ٠ ولا شك أن الحجج المنطقية والافتراضات الظنية لا تغنى شيئا فى قضية كهذه ٠ وليس بمنكور على العرب معرفتهم الكتابة ، وكتابتهم القصائد الجاهلية ، ومن ثم تعليقها على الكعبة أو غير الكعبة كالخزائن أو السقوف أو الجدران ، لاجل محدود أو غير محدود ، ومن الممكن الاستئناس بتعليق قريش للصحيفة حين قاطعت الرسول وبنى هاشم (٢) ، وليس لدينا كذلك أدلة ثابتة من رجال قدماء ثقات تقطع بصحة كتابة المعلقات وتعليقها بين أستار الكعبة ، اذ أن الذين رووا قصة التعليق قلة من الادباء أقدمهم ابن الكلبى المعروف بالكذب والتزيد ، لذلك كله آثرت الا أنساق وراء حجج ظنية لا يبدو فيها اليقين القاطع فى قضية كهذه ٠

---

(١١) تاريخ العرب الادبى ص ١٧١ الترجمة العربية ٠
(١٢) ص ٨٩ ٠
(١) معلقات العرب ص ٣١ ـ ٥٧ ٠
(٢) ينظر فى خبر الصحيفة السيرة النبوية ١/٣٥٠ ٠

ومهما يكن من شيءفان المعلقات قصائد مختارة جيدة ، يستطيع الباحث أن يطمئن إلى صحتها وإلى أنها من عيون الشعر العربي وروائع الشعر الجاهلي الذي بلغ درجة كبيرة من النضج والكمال اضافة إلى أنها ترسم صوراً صادقة لحياة العرب السياسية والاجتماعية ، اذ يتصل بعضها بحوادث كبيرة في الجاهلية كمعلقة زهير ومعلقة الحارث بن حلزة ومعلقة عمرو بن كلثوم[٣] ، ويتصل بعضها الأخر بظاهرة اجتماعية واضحة في حياة العرب الجاهلية وهي حياة اللهو والفخر والكرم والفروسية .

وقد لفتت المعلقات أنظار الأدباء وعلماء اللغة منذ زمن بعيد ، فانكبوا عليها يدرسونها ويقتدون منها في كتبهم وفي استشهاداتهم ، وأقبل فريق من الأدباء على شرحها وتفسير غامضها وتوضيح مفرداتها وبيان معانيها ، وقد عرفنا مجموعة من هذه الشروح ، وأكثرها جليل القيمة نفيس بما فيه من شروح لغوية ومسائل نحوية وايضاحات تاريخية[٤] ، والشروح المعروفة لدينا هي :

١ ـ شرح ابن كبسان (ت ٣٢٠ هـ) مخطوط في مكتبة برلين ، ذكره بروكلمان [٥] .

٢ ـ شرح ابن الأنباري محمد بن القاسم (ت ٣٢٨ هـ) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات مطبوع[٦]

---

(٣) تتصل معلقة زهير بحرب داحس والغبراء . وتتصل معلقة عمرو بن كلثوم ومعلقة الحارث بن حلزة بالخلاف بين بكر وتغلب والتحاكم الى عمرو بن هند .

(٤) ينظر في شروح المعلقات وطبعاتها وترجماتها بروكلمان ـ تاريخ الأدب العربي ٦٨/١ ـ ٧٢ .

(٥) تاريخ الأدب العربي ٧٠/١ .

(٦) حققه عبد السلام هارون ط دار المعارف ١٩٦٣

٣ ـ شرح ابن جعفر النحاس (ت ٣٣٨ هـ) التسع الطوال ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٦٠ أدب (٧) .

٤ ـ شرح أبي علي القالي (ت ٣٥٦ هـ) ذكره حاجي خليفة (١) .

٥ ـ شرح الزوزني (ت ٤٨٦ هـ) شرحِ المعلقات السبع ، طبع مرارا .

٦ ـ شرح عاصم بن أيوب (ت ٤٩٤ هـ) ذكره السيوطي (٢) .

٧ ـ شرح التبريزي (ت ٥٠٢ هـ) شرح القصائد العشر ، طبع مرارا .

٨ ـ شرح أبي سعيد الضرير وابن جابر شرح المعلقات السبع ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٩٠٠ أدب .

والملاحظ أن ثلاثة من هذه الشروح هي المطبوعة المتداولة ، أما الشروح لأخرى فبين مفقود ومخطوط ينتظر العناية والتحقيق .

وقد كان للمستشرقين السبق إلى العناية بهذه المعلقات فطبعوها وترجموها وقت مبكر (٣) .

---

(٧) حقق في بغداد وطبع أخيراً .
(١) كشف الظنون .
(٢) بغية الوعاة ص ٢٧٤ ترجمة عاصم بن ايوب البطليوسى .
(٣) أهم الترجمات الانكليزية ترجمة (لادى آن بلنت) ونظمها شعرا بالانكليزية (وبلفرد سكاون بلنت) باسم The seven golden odes of pagon Arabia وطبع في لندن وترجمها كذلك وعلق عليها (ايسكو مع النص العربى بحرف لاتينى وطبع فى لندن ١٧٨٣ وترجمها ايضا مع ذكر النص العربى حوسون Joson باسم القصائد السبع The seven poems وطبع فى لندن سنة ١٨٩٤ وترجمت الى اللغة اللاتينية عن شرح الزوزنى ترجمها (Peipes) وطبعها سنة ١٨٢٨ . وترجم دى ساسى معلقة لبيد الى الفرنسية ونشرها فى آخر كتاب كليلة ودمنة وغير دلك من الترجمات .

وبعـد : فان هذه العناية لم تكن لتبذل لو لم تكن القصائد من الشعر الرفيع الجيد الذى حاز اعجاب الناس وصار قدوة الشعراء فى العصور التالية ، فقد رأوا فيه نموذجا للجودة والنضج والبراعة والاتقان ، وقد نظروا لشعراء هذه المعلقات أو المختارات على انهم كبار شعراء العصر الجاهلى وفحولهم ، فانزلوهم منازلهم الحقيقة بهم من الاعجاب والاكبـــار ، فذاع لذلك صيتهم وخلدت آثارهم ، وكانوا قدوة الشعراء والادباء فى أساليبهم على مر الازمان والعصور .

الفصل الثاني

خصائص الشعر الجاهلي

(١)

الطابع البدوي :

الشعر الجاهلى مرآة انعكست فيها كل مظاهر الحياة العربية ، فقد مثل البيئة خير تمثيل ، تناول كل جانب من جوانب البادية فتحدث عنه بتفصيل ، صور ما فيها من جبال ووهاد وطرق ممتدة ومرابع خضر ، ونبات زاه ، ووصف الاثار والدمن ، كما وصف السحب والامطار والسيول ومدافع المياه ، رسم مشاهد كثيرة لحيوانها ، وقص لكل حيوان قصة ، وصور حال هذه الحيوانات فى طردها وقتالها ، فى أمنها وفى خوفها ، صورها قطعانا مجتمعة ، وأفرادا عازبة ، واستعار منها تشبيهاته وصوره ، تحدث عن المنازل والديار ، كما تحدث عن ارتحال أهلها ، ووصف قوافلهم وهوادج نسائهم ، وتابعها فى سيرها فرسم مخططا لرحلتها مبينا المواضع التى تنزل فيها ، والاماكن التى تمر بها ، ولم ينس أن يصف ما خلف الظاعنون من الحجارة والنؤى والاثافى والثمام .

ولم يغادر الشعر جانبا من جوانب الحياة البدوية الا تحدث عنه وسجله وصوره ، ولذلك نجد فيه صورة للعصر صادقة ، فى الحرب والسلم ، فى

مثله العليا وعاداته وطبيعة أهله ، وصف خير العصر وما فيه من نعمة وبركة ، كما وصف بؤسه وشقاءه وما ينزل به من جدب وقحط ، صور حر الهاجرة ولفح السموم ، كما صور ريح الشمال وجمد الشتاء الذى يخرس النـاس ويكفتهم فى بيوتهم • واقرأ فى اية قطعة أو قصيدة من ذلك الشعر ، فانـك واجد فيها ريح البادية وطعم الصحراء ، فكل صوره ومعانيه منتزعة من بيئته مصورة لها أصدق تصوير ، لا يشذ عن ذلك الا فى القليل النادر ، وهـذا القليل كان من اتصال بعض الشعراء بأسباب الحضارة ، ومن وفادتهم على ملوك الحيرة أو ملوك الشام أو اليمن ، وتجد ذلك واضحا فى شعر الشعراء الذين يفدون الى الحاضرة ، كالاعشى والنابغة الذبيانى ، وشعر شعراء الحاضرة كعدى بن زيد وحسان بن ثابت وأمية بن أبى الصلت •

ولا شك أن هذا الاثر البدوى الواضح الذى ترك وسمه على شعـر الشعراء له جرائره على الشعر الجاهلى ، ذلك أنه حدد أفق الشعراء فى اطار البيئة الذى لا يتجدد ، فضعف خيالهم وتشابهت صورهم ، وظهر من جراء ذلك : التكرار فى الصور والمعانى ، سواء فى ذلك المعانى المتكررة عنـد الشعراء ، أم عند الشاعر الواحد ، ترى ذلك واضحا فى صور الاطـلال وتشبيهها بالخط الدارس ، فقد جاءت هذه الصورة عند كثير مـن شعـراء الجاهلية ، فامرؤ القيس يقول (١) :

لمن طللٌ ابصرتُه فشجاني

كخَط زَبُورٍ في عَسيبِ يماني

---

(١) انظر قوله والابيات التى تليه فى الوساطة ص ١٨٢ ، والبيت فـى ديوانه ص ٨٥ •

وتناول حاتم الطائى هذه الصورة فقال : (٢)

أتعرفُ أطلالاً ونُؤْياً مهدّما
كخطّك في رقٍّ كتاباً مُنَمْنَما

وأخذها أبو ذؤيب الهذلى فقال : (٣)

عرفت الديارَ كرسمِ الكتا
ب يزبُّرهُ الكاتبُ الحميرى

أما لبيد فقد زاد الصورة اتقانا حيث قال : (١)

وجلا السيولُ عن الطلولِ كأنّها
زُبُرٌ تُجِدُّ متونَها أقلامُها

فالصورة نفسها مكررة عند هؤلاء الشعراء وعند غيرهم ، ونراها تتكرر أيضا عند الشاعر الواحد نفسه ، فقد كرر لبيد هذه الصورة ثانية فى

(٢) ديوان حاتم الطائى ص ٢٣ .
(٣) ديوان الهذليين ص ٦٤ وفيه :
عرفت الديار كرقم الدوا ة يزبرها الكاتب الحميرى
وقد فضلت رواية الوساطة ص ١٨٢ .
(١) ديوانه ص ٢٩٩ .

قوله : (٢)

درس المنَا بمُتَالعٍ فأبانِ
وتقادمتْ بالحُبْسِ فالسُّوبانِ
فنعافِ صارةَ فالقَنانِ كأنها
زُبرٌ يرجّعُها وليدُ يمانِ

وهكذا تتكرر الصورة وتعاد مرة واثنتين وثلاثا ، وقل فى مثل هذا فى تشبيه الديار الدارسة بالوشم ، فقد جاءت الصورة عند لبيد قال : (٣)

أو رجعُ واشمةٍ أُسِفَّ نؤورُها
كِفَفًا تعرَّضَ فوقَهُنّ وِشامها

وتناول هذا المعنى زهير فقال : (٤)

ديارٌ لها بالرّقمتين كأنّها
مراجيعُ وشمٍ في نواشِرِ معصمِ

---

(٢) ديوانه ص ١٣٨ .
(٣) ديوانه ص ٢٩٩ .
(٤) ديوان زهير ص ٥ .
(٥) ديوان طرفة ص ٥ .

أما طرفة فيقول : (٥)

لخولةَ أطلالٌ بُبرقَة ثَهمَدِ

تلوح ُكباقي الوشمِ في ظاهر اليدِ

وكذلك يقال في وصف البرق والسحاب والمطر ، فالاوصاف الرائعة عند امرىء القيس الذى يقول : (٦)

ديمةٌ هطَلاءُ فيها وَطَفٌ

َطبقَ الأرضَ تحرّى وتدرْ .... الأبيات

هى نفسها عند عبيد بن الابرص فى قوله : (٧)

سقى الرباب مجلجل

الأكناف لمّاح بروقه ... الابيات

وكذلك هى عند أوس بن حجر فى قوله : (٨)

انى أرِقتُ ولم تأرقْ معي صاحِ

لمستكفٌ ُبعَيْدَ النوم لوّاحِ ... الابيات

---

(٦) ديوان امرىء القيس ص ١٤٤ .
(٧) ديوان عبيد بن الأبرص ص ٨٩ .
(٨) ديوان أوس بن حجر ص ١٥ .

أما لبيد فقد وصف البرق والسحاب والمطر وحكى صوت الرعد فى أول معلقته ، وكرر كذلك الصورة في قوله : (٩)

أصاحِ ترى بريقا هبَّ وهنا

كمصباحِ الشَّعيلةِ في الذُّبالِ

والامثلة على هذا التكرار والتشابه كثيرة ، وليس مرد ذلك الى السرق ـ كما قد يظن ـ ولكن مرجعه الى تأثير البيئة المحدودة المشاهد المتشابهة الصور ، واليها يعزى ضعف الخيال •

ولا بد أن تكون مادة الشاعر التى يصوغ منها معانيه مستمدة مما حوله من بيئته الصحراوية البدوية ، ولذلك فالشاعر لا يلفق معانيه ولا ينتحل صوره ، بل يتناولها من واقعه ومحيطه ، فالصورة التى يقدمها الاعشى فى مدح المحلق في قوله : (١٠)

لعَمري لقد لاحت عيونٌ كثيرة

الى ضوء نارٍ في يَفَاعِ تحرَّقُ

تشَبُّ لمقرورينِ يصطليانِها

وباتَ على النار النَّدى والمحلَّقُ

(٩) ديوان لبيد ص ٨٨ •
(١٠) ديوان الأعشى ص ١٤٩ ـ ١٥٠ •

هى من صور البادية المألوفة ، حتى ان القارىء ليشعر بشدة البرد ولذة الدفء ، وحين يعجب طرفة بصوت قينة تغنيه بصوتها الشجى ، فليس هناك فى بيئته أشد وقعا فى نفسه من تجاوب أصوات الابل حين تحن الى فصالها الهالكة ، يقول : (١)

اذا رجعّتْ في صوتها خلتَ صوتَها

تجاوبَ أظآرٍ على رُبَعٍ ردِي

وحين يصور زهير بشاعة الحرب ومآسيها ، فان صوره مستمدة من حياة البادية حيث الرعى وسقى الابل واصدارها ورعيها فى كلأ تعافه لانه مستوبل متوخم : (٢)

فقضَّوا منايا بينهم ثم أصدَرُوا

الى كَلإٍ مستوبلٍ متوخّمِ

رعوا ما رعوا من ظمئِهم ثم أوردوا

غمارا تفرّى بالسلاح وبالدم

وهذه الابيات فى جملتها فيها طرافة ، وصور بديعة وخيال خصب يعجب السامعين ، ولكنه خيال لا اغراق فيه ولا اسراف ، قريب من أرض الحقيقة ،

(١) ديوان طرفة ص ١٥٢ .
(٢) ديوان زهير ص ٢٤ ـ ٢٥ .

ممثل لواقع الحياة معبر عن طبيعة البادية •

ولم يكن أثر البادية ليقتصر على الصور المستمدة من البيئة والممثلة لما في حياتهم من احداث وادوات وحيوان ، بل تعدى ذلك الى اللغة نفسها واستعمالاتها ، فقد كانت مرتبطة بالبيئة الجاهلية ، فوجوه الصورة البلاغية ومجازاتها من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز ، كل ذلك متصل ومتأثر بحياة البادية واحداثها وطبيعتها ، ويختلف هذا التأثر من بيئة لاخرى بين البادية والحاضرة ، ولكل من هؤلاء وهؤلاء أمزجة وطباع يصدرون عنها في شعرهم ، ويعلل القاضي الجرجاني اثر الطبائع والبيئات في الشعر بقوله : « وقد كان القوم يختلفون في ذلك وتتباين أحوالهم ، فيرق شعر أحدهم ويصلب شعر الاخر ، ويسهل لفظ أحدهم ويتوعر منطق غيره ، وانما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق ، فان سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة ••• وترى الجافي الجلف منهم كز الالفاظ معقد الكلام وعر الخطاب حتى انك ربما وجدت الفاظه في صوته ونغمته ، وفي جرسه ولهجته ، ومن شأن البداوة ان تحدث بعض ذلك ، ولاجله قال النبي صلى الله عليه وسلم : (من بدا جفا) » (٣) • ويضرب بعد ذلك مثلا بعدي بن زيد العبادي وهو شاعر جاهلي سكن الحاضرة فرق شعره وكان أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة وهما اسلاميان •

واذا كان الطابع العام للشعر هو الطابع البدوي الاعرابي ، فان ثمة شعراء سكنوا الحاضرة وهناك شعراء أعراب وفدوا على الملوك وزاروا حواضر العراق أو الشام أو اليمن أو الحجاز ، فظهر للحضارة أثر واضح في شعرهم ، كما

---

(٣) الوساطة ص ١٧ •

نجد ذلك في شعر حسان بن ثابت والأعشى والنابغة الذبياني وغيرهم من الشعراء المتكسبين . الذين كانوا ينادمون الملوك ، أو يفدون عليهم لمصالح قبلية ، فينالون صلاتهم وعطاياهم ، ويحفل شعر النابغة بأوصاف الحضارة التي شهدها في الحيرة والشام . يقول في وصف المتجردة وما عليها من زينة : (١)

في إثرِ غانيةٍ رمتك بسهمِها
فأصاب قلبَك غير أن لم تقصدِ

بالدرِ والياقوت زيّن نحرَها
ومفصَّلٍ من لؤلوءٍ وزبرَجدِ

كمضيئةٍ صدفيةٍ غوّاصُها
بَهِجٌ متى يرها يهلُّ ويسجدُ

أو دميةٍ في مرمر مرفوعةٍ
بنيت بآجرّ يشادُ بقرمدِ

وكذلك وصفه للغساسنة الملوك في اعيادهم (٢) . ولكن الطابع العام – كما قدمنا – الذي صبغ الشعر هو الطابع البدوي الذي بقي أثره في التعابير اللغوية حتى زمن متأخر . فتعابير الشعراء خاصة وصورهم وأمثالهم كان

---

(١) ديوان النابغة ص ٣٠ و٣٣ .
(٢) ديوانه ص ٦٣ .

مستمدا من الابل وما يتصل بها ، والابل هي عماد الحياة في البادية ، فالناس قد قالوا وما زالوا يقولون للرجل اذا عجز عن الكلام : (اعتقل لسانه) ، وان أحسن في أمر مدحه الناس فقالوا : (لله دره) ، وان أفسد بينهم قالوا : (ألقح الشر بينهم) ، وقالوا للحرب الشديدة : (زبون) ، وان احتال للشيء عند غيره وداهنه وتملقه قالوا : (هو يفتل له بين الذروة والغارب) وان أهمل الشيء وتركه وشأنه قالوا : (ألقى حبله على غاربه) ، ونجد تعابير أخر مرتبطة بحياة الناقة أو الجمل في قولهم : وطئه بمنسمه ، وضرسه بأنيابه ، وألقى عليه بجرانه ، وتسنم الامر ، وأناخ عليه بكلكله ، وأخذ بزمامه ، واذا اعتزلوا أمرا قالوا : (لا ناقة لي فيه ولا جمل) ، وهكذا (٣) .

ويستطيع المرء ان يفسر كل مظاهر الشعر ومعانيه وصوره وخياله ومفرداته اللغوية وموصوفاته ونوازع الشاعر وأفكاره ومثله وخلقه وعاداته وعصبيته ، على أنها أصداء للبيئة وتصوير لها ، ولم يسلم من هذا الاثر حتى أولئك الذين سكنوا بيئات أخرى أو بعد بهم الزمان فعاشوا في قرون لاحقة ، وذلك لان الشعر الجاهلي ـ بمؤثراته ـ أصبح قدوة يحتذى ونموذجا يتبع ومثالا يحاكى فصارت سنة الشعراء اقتداء فن الأوائل والنسج على منوالهم ، ولذلك فقد بقي سلطان الشعر الجاهلي على شعر العصور التالية واضحا بارزا بعيد الاثر .

---

(٣) انظر البحث الطريف للدكتور محمد محمد حسين : أساليب الصناعة في شعر الخمر والناقة ص ٥٢ وقد أفدت منه في غير موضع .

(٢)

الواقعية والوضوح :

لعل أبرز هذه الواقعية ان الشعر الجاهلى استمد مادته من الحياة ، فصور البيئة ـ كما تقدم ـ أصدق تصوير ، وهو تصوير واضح جلى لا خفاء فيه ، بسيط لا غلو فيه ، بعيد عن المبالغة والتعقيد ، فمعانى الشعر واضحة بسيطة تلائم الفطرة وتنسجم وطبيعة المجتمع البدوى ، ولا شك ان البساطة والوضوح أثران من آثار البيئة وصفاء الذهن واعتدال المزاج ، وهما يدلان على عقلية هادئة مستقرة لا اضطراب فيها ولا قلق ، فلا غموض ولا تفلسف ، ولا أريد هنا بالبساطة السذاجة والبدائية ـ كما قد يظن ـ فالشعر الجاهلى من حيث معانيه وأخيلته ولغته ، يدل على رقى عقلى وصفاء ذهنى وعناية فنية ومهارة فى صناعة الشعر وصياغة معانيه وصوره ، والبساطة لا تناقض اجالة النظر وصقل الفكرة وشحذ الذهن وغير ذلك من الوسائل التى يجود بها الشعر ، وليس الفن كله معقدا مركبا ، بل منه البسيط الواضح الذى يلائم الفطرة والطبيعة الصحراوية ، ومنه المركب المعقد المغرق فى الخيال الذى هو نتاج الحضارة والمدنية ، والبيئة البدوية مكشوفة مضيئة ، فضاؤها رحب يمتد فيه البصر ، والشمس ساطعة وحياة الشعراء سهلة بسيطة ، فلم تكن ـ لاجل ذلك ـ تراود خيالهم الغاز معمية أو هواجس خفية ، فكان من الطبيعى ان يستمد

الشعراء صورهم وأخيلتهم من الواقع الواضح ، لانهم لا يتخيلون من وراء حجاب ، فجاءت معانيهم واضحة بسيطة لانها عالجت حياة بسيطة واضحة بعيدة عن الحضارة ـ الا قليلا ـ وما يتبع الحضارة من أدب يميل الى الاغراب والمبالغة (١) .

ومن مظاهر هذه البساطة فى الشعر الجاهلى : الصدق فى التعبير وفى نقل الصور والمشاهد نقلا يكاد يكون أمينا ، وبخاصة حين يذكرون المواضع ويناجون الديار ، وحين يفخرون أو يرثون فلا يبالغون فى الخيال ولا يسرفون فى التصور ، وذلك لانهم يتحدثون عن أحوال رأوها وتجارب مارسوها وذكريات أحسوا بها .

ويتمثل الصدق فى انفعالات الشعراء وعواطفهم وفى تسجيل الوقائع والذكريات وتصوير النصر بصورته الحقيقية ، من غير غلو ولا مبالغة ، والاقرار بالهزيمة والنكوص ان دارت الدائرة على قومهم ، وليس أصدق اقرارا بقوة الخصم واعترافا بالفرار من قول الحارث بن وعلة الجرمى فى يوم الكلاب الثانى بين جرم وتميم : (٢)

فدى لكما رجليَّ أمي وخالتي

غداة الكلاب إذ تحزُّ الدوابرُ

---

(١) وحتى الشعراء الذين سكنوا المدن كعدي بن زيد وشعراء مكة والمدينة والطائف ، كانت حياتهم قبلية قريبة الى حد بعيد من حياة البادية ، لأن الامارات التي قامت في الجزيرة كانت على تخوم الدول الكبيرة ، فحياة امراء الحيرة ودومه الجندل وجلق أقرب الى حياة البادية وطباع أهلها .

(٢) المفضليات ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .

نجوتُ نَجاءً لم يرَ الناس مثلَه

كأنّى عقابٌ عند تَيْمَنَ كاسرُ

خداريةٌ سفعاء لبَّدَ ريشَها

من الطَلِّ يومٌ ذو أهاضيبَ ماطرُ

كأنّا وقد حالت حذَنَّةُ دونَنا

نَعامٌ تلاهُ فارسٌ متواتِرُ

فمن يكُ يرجو في تميمٍ هوادةً

فليس لجَرْمٍ في تميمٍ أواصرُ

الى آخر القصيدة التى يصف فيها حاله وفراره وانهزام قومه وشدة تميم عليهم ، وليس بعد هذا من صدق وواقعية .

واذا كان هذا يعنى صدق الوقائع ، فان هناك ضربا آخر من الصدق يتمثل فى التعبير عن الصور المنتزعة من البيئة ونقلها بصدق كما شهدها الشاعر وألفها ، من ذلك قول لبيد واصفا حاله بعد موت أعمامه وابنائهم : (١)

اصبحتُ امشي بعدَ سلمى بن مالكٍ

وبعدَ أبى قيسٍ وعروةَ كالأَجبّ

---

(١) ديوان لبيد ص ١ .

يضُجُ اذا ظِلُ الغُراب دنا له

حِذاراً على باقي السناسِنِ والعَصَبْ

فهو يعرض مشهدا رآه وتأثر به ، مشهد الجمل الذى قطع سنامه أيام القحط والجدب ، فهو يرتعد خوفا وألما كلما أحس بغراب يدنو منه أو يتوهم دنوه ، لما يفعله الغراب من النقر ببقايا سنامه وأعصابه وفقار ظهره ، فهذه صورة مؤثرة ، لانها صادقة انتزعها من الواقع المشاهد ، وقد استطاع الشاعر فى هذين البيتين أن يحقق الصدق الفنى والصدق الواقعى على السواء .

هذا هو الطابع العام فى الشعر الجاهلى ، تعبير مباشر عن حياتهم يستمدون صورهم ومعانيهم من بيئتهم بأساليب رائعة فيها جمال الفطرة وبساطة الصحراء، بعيدة عن المبالغة والغلو والتعقيد ولذلك جاءت معانيهم مفهومة مقبولة ، على أنه شذت بعض الابيات ـ وهى قليلة معدودة ـ وقف عليها القدماء وأنكروا ما فيها من مبالغة ومجاوزة المعقول ، حتى انهم وصفوا قائليها بالكذب ، من ذلك قول مهلهل بن ربيعة :

فلولا الريحُ اسمع أهلَ حجْرٍ

صليلُ البيضِ تُقرعُ بالذكورِ

فقالوا : « هو خطأ وكذب من أجل ان بين موضع الوقعة التى ذكرها وبين حجر مسافة بعيدة جدا » (٢) وكان منزل مهلهل ـ فيما يقال ـ على

---

(٢) الموشح ص ١١٣ .

شاطيء الفرات من أرض الشام وحجر هي اليمامة (٣) وقد أكبروا قول النمر ابن تولب واستكثروا عليه قوله : (٤)

أبقى الحوادثُ والأيامُ من نمِرٍ

أسبادَ سيفٍ قديمٍ إثرهُ بادِ

تظل تحفرُ عنه ان ضربتَ به

بعد الذراعينِ والساقين والهادِي

وكذلك أخذوا على أبى الطمحان القيني قوله : (٥)

أَضاءت لهم أَحسابهم ووجوههم

دُجَى الليل حتى نَظَّم الجزعَ ثاقِبُه

على أن هذه المبالغات فى الشعر الجاهلى قليلة لا تمس الأصل بتغيير كبير ، فالطابع العام هو القصد والاعتدال والصدق والوضوح .

والامر الاخر الذى هو مظهر من مظاهر الواقعية التى أشرت اليها اولا ، هو الايجاز . ولا شك أن طبيعة الحياة الجاهلية وما فيها من نقلة سريعة وحركة دائبة غير مستقرة ولا متروية ، ومناخ الصحراء القاسى الشديد فى حره وقره ،

(٣) الموشح ص ١٠٦
(٤) الموشح ص ١١٣ .
(٥) الموشح ص ١٠٦ .

كل ذلك جعلهم لا يطيلون ولا يتأملون ، يقفون عند المعنى وقفة وسرعان ما يتركونه إلى غيره . أما الوقوف الطويل والتفصيل وتشقيق المعنى على وجوه . كل ذلك لا يلائم طبيعة حياتهم ومزاجهم وعقليتهم ، فالأطناب والتفصيل وتطويل العبارة واجالة النظر والتروي ، كل ذلك يوجب الاستقرار والهدوء والدعة والبطء أيضاً ، ونحن في هذا العصر رغم الحضارة والاستقرار نمل من الاطالة ونسأم من التفصيل ، وانما نريد النتيجة السريعة وتعجبنا اللمحة الدالة ، وتغنينا الاشارة عن الافصاح والحكمة الموجزة عن الخطبة المسهبة ، ولا عجب أن يكثر في الشعر الجاهلي الميل الى الحكم والاكتفاء بالبيت على أنه وحدة تامة المعنى وكان من ذلك أن طبيعة الشعر العربي نفرت من القصة المفصلة التي تلائم الشعر الأوروبي المتميز بالاطالة والتفصيل ، وإذا وجدت القصة في الشعر العربي فانها حكايات ورموز ودلالات سريعة . وانك لتجد المعنى يتناوله اثنان ، واحد من سكنة البادية ذات الحركة والسرعة والتغير ، وآخر من الشعوب التي تميل إلى الإطالة والتفصيل ، كالشعوب الآرية التي ظهرت لديها المهابهارتا والشاهنامة والألياذة والاوديسا ، تجد الفرق واضحاً في تناول المعنى الواحد ، فالعربي يجمل المعنى ويعطيك لمحات طريفة ، والآخر يفصل ويعيد ويكرر حتى يبلغ غايته ، معنى البيت هنا قصيدة هناك ، ومن غريب المصادفة أن يتناول شاعران ، أحدهما عربي هو امرؤ القيس وثانيهما اغريقي هو هوميروس ، معنى يكاد يكون واحداً فنجد امرأ القيس يكتفي ببيتين أو ثلاثة قال فيها ما يريد قوله بإيجاز غير مخل ، أما هوميروس فقد أطال وفصل ووقف عند جوانب جزئية واستطرادات لا يسيغها الذوق العربي ، وقد سبقنا الأستاذ البهبيتى إلى هذه الملاحظات فقال : (١) يقول امرؤ القيس :

فظلّ طُهاةُ اللحم ما بين مُنضجٍ

صفيفِ شِواءٍ او قديرٍ معجَّلِ

(١) تاريخ الشعر العربى ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

ويشرح الزوزني الشعر فيقول : (ظل طهاة اللحم وهم صنفان ، صنف ينضجون شواء مصفوفا على الحجارة فى النار ، وصنف يطبخون اللحم فى القدر) وفى مكان آخر يقول امرؤ القيس :

ويومَ عقرتُ للعذارى مطيتي

فيا عجَباً من كورها المتحمّلِ

فظل العذارَى يرتمينَ بلحمها

وشحمٍ كهُدّاب الدّمقسِ المفتّلِ

هذا الوصف لهذا الصنف من الطعام يجيء عرضا فى القصيدة ، وهو صف مختصر موجز سريع ، الا انه كاف للدلالة على نوعه وصورته وطريقته، ومثله يجيء عند هوميروس ولكنه ينساق مع القصة : (ومد باتروكل امام لمنزل خوانا ، ووضع على الخوان ظهر شاة ، ومعزى سمينة وفقار خنزير كتنز يتلألأ دهنا ، ثم أخذ كل من باتروكل وانتوميدون بجانب فقطعها شيل الالهى أرباعا ، وبعد ذلك جعل أشيل شرائح صفها فوق سفافيد ، على حين كان ابن مينيتيوس ، الانسان الفانى ، المشبه للالهة ، يوقد نارا عظيمة ، ولما اضطرمت النار ، ثم خمد لهيبها ، مد تلك السفافيد فوق وطاء من ضرمها ، ثم رفعها من فوق حاملاتها ، ونشر فوقها ملحا الهيا ، وبعد أن طهى باتروكل اللحم طهيه سله عن السفافيد فجعله فوق جفان وقدم الى كل من حضر المائدة خبزا فى سفاط حلوة ، وكان أشيل هو الذى فرق أنصبة اللحم) (٢) .

ولا شك أن الفرق بين الاسلوبين هو الفرق بين الطبيعتين ، طبيعة حركة

(٢) تاريخ الشعر العربى ص ١٠٦ نقلا عن الألياذة .

سريعة متوثبة ذكية الملاحظة ، وطبيعة متمهلة مستقرة متروية ، تقص وتفصل في القصص وتسمى الاشياء بأسمائها فتطيل فى هذه التسمية . وان فى الشعر الجاهلى أبياتا قليلة فيها من الاحداث والصور الكثيرة التى لو تناولها غير الجاهليين لاطالوا فيها وفصلوا وكرروا حتى يستطيعوا أن يؤدوها بالشكل الذى جاءت عند الجاهليين ، انظر الى قول الحارث بن حلزة اليشكرى : (١)

اجمعوا امرَهم عِشاءً فلمـــا

أصبحوا أصبحتْ لهم ضوضاءُ

من منادٍ ومن مجيب ومن تَصْـ

ـهالِ خيل خلالَ ذاكَ رُغاءْ

تراه يصف حال القوم وعزمهم على القتال ، ونقل صورة حية للرحيل والتهيؤ . ولو أردنا أداء المعنى الذى أراده علقمة بن عبدة فى تصوير الفجر لاحوجنا الى ايضاح كبير وكلام طويـل ، فى حين أنـه أوجز فأجـاد فـى قوله : (٢)

أوردتُها وصدورُ العِيس مُسْنَفَةٌ

والصبحُ بالكوكب الدُّرِيِّ منحورُ

---

(١) المعلقات السبع ـ الزوزنى ص ١٥٨ .

(٢) ديوان علقمة الفحل ص ١١٣ .

وكذلك تجد قول لبيد على ايجازه صورة مفعمة بالحياة والحركة ومشهد الطبيعة الحافل بألوان الزرع على جانبى الوادى وقد أطفلت الظباء والنعام والابقار وهى ترقب أولادها التى تتجمع قطعانا حولها أو تسرح هنا وهناك : (٣)

فعلا فروعُ الأيهُقانِ وأطفلتْ

بالجَلْهَتين ظِباؤُها ونَعامُها

والعينُ ساكنةٌ على أطلائِها

عُوذاً تأجّلُ بالفَضاءِ بِهامُها

وهى صورة قريبة من صورة زهير : (٤)

بها العِينُ والآرامُ يمشين خِلْفةً

وأطلاؤها ينهضنَ من كل مجثمِ

أما بيتا الحارث بن مضاض الجرهمى ، ففيهما قصة طويلة وذكريات حافلة عن عهد ولى وأدبر فخلف الحنين فى القلوب والحسرة فى الصدور : (٥)

كأنْ لم يكنْ بين الحَجُونِ الى الصَّفَا

أنيسٌ ولم يسمرْ بمكةَ سامر

---

(٣) ديوان لبيد ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩ .
(٤) ديوان زهير ص ٥ .
(٥) جمهرة أشعار العرب ص ٤٨ .

بلى : نحن كنا أهلَـها فأبادَ نَـــا

صروفُ الليالي والجدود العوائرُ

ولعل أقرب صور الايجاز تتمثل فى التشبيه ، حيث يقرب المعانى البعيدة ويركزها فى صورة قريبة محسوسة ، ولذلك كان التشبيه فى الشعر الجاهلى أكثر الاغراض البيانية ، أما الاستعارة فعمل مركب فيه تعقيد فهى قليلة وأكثر منها الكناية ، والكناية فيها تقصير العبارة وايجازها ، فهى تحمل المعانى الواسعة المتخيلة فى عبارات قليلة فيها طرافة وجمال .

والمظهر الاخر من مظاهر الواقعية ، ان صور الشعر الجاهلى صور حسية فيها تجسيم وتشخيص ، وهذا أمر طبيعى لان صور الشاعر مستمدة من بيئته ومرتبطة بالبادية ، واذا قلنا ان الصور مادية لا نعنى كل الصور وكل المعانى ـ فلا نعدم ان نجد عناية بوصف الاحوال النفسية ـ بل أن صورهم فى جملتها على هذه الشاكلة ، فاذا أنعمنا النظر فى صور الشعر الجاهلى وبخاصة فى التشبيه ، نجد الصحراء ومعالمها ، والحياة البدوية وحيوانها ونباتها ، ممثلة فى تلك الصور ، ونراها كذلك واضحة بسيطة لا يجد الشاعر مشقة ولا عسرا فى استحضارها ، ولا يجد القارىء ـ حين تيسر له اللغة ـ جهدا فى ادراكها وتذوقها ، فهى واضحة وضوح الصحراء ، بسيطة بساطة البادية .

وهذه الظاهرة الحسية لا تزايل الصورة حتى فى تعبيرها عن أمور معنوية غير ملموسة كالحلم والكرم والوفاء والشرف ، فالشاعر الجاهلى يميل الـى تصوير المعنويات والتعبير عنها مجسمة فى ماديات محسوسة ،أو متعلقة بأشخاص

بأعيانهم ، يتحدث لبيد عن حلم قومه فيقول : (١)

ولهم حُلومٌ كالجبال وسادةٌ

نُجُبٌ وفرعٌ ماجدٌ وأرومُ

فقد عبر عن سعة حلمهم بصورة مادية هي صورة الجبال العالية ، ويقرن طرفة بين ظلم قومه وبين وقع السيف فيقول : (٢)

وظلمُ ذوي القُربى أشدُّ مَضاضةً

على المرء من وقع الحُسَام المُهَنَّدِ

أما تأبط شرا ، فحين يقع فى أمر شديد حرج يحاصره عدوه ويأخذ عليه المخارج نراه يشبه هذا المأزق الذى احتال للخروج منه بالمنخرين الضيقين : (٣)

وأمر كسدِّ المَنْخِرين اعتليتُه

فنفَّستُ منه والمَنَايا حواِضرُ

وهذه النزعة فى تجسيم المعانى وتشخيصها والتعبير عنها بصور مادية

(١) ديوان لبيد ص ١٣٧ ٠
(٢) ديوان طرفة ص ٣٦ ٠
(٣) مقدمة ديوان الشنفرى فى الطرائف الادبية ص ٢٨ ٠

حسية ، كان لها جرائرها على الشعر الجاهلى ولها فوائدها ايضا :

فمن جرائرها انها حادت الخيال والتصور ، وربطت الذهن بمشخصات مادية ، فلم تتح للشاعر ان ينطلق فى تصوير المعنويات ، كالحب والوفاء والسماحة والمروءة وغيرها ، تصويرا شاملا عاما ، بحيث يعالج الفكرة نفسها غير مرتبطة بمشخصات أو صور فى بيئة محددة ، ولم تتح للشاعر ايضا ان يتعمق فى وصف الخواطر والافكار ، أو يحلل العواطف والاحساسات ، ومن هنا جاء وصفهم للمرأة وصفاً حسياً جسدياً ، فلم يتغلغلوا فى أغوار النفس ويتعرفوا على خفاياها ولم يصفوا عواطف المرأة المحبوبة وأشواقها — الا نادرا — بل وصفوها وصفا خارجياً ، فجاءت كالدمية التى لا حياة فيها ، واذا كان لا بد من الشاهد والمثل ، فلنأت الى معلقة امرىء القيس ، فنجده يصور حبيبته بأنها بيضة خدر مكنونة : (٤)

وبيضةِ خدرٍ لا يُرام خِباؤُها
تمتعتُ من لهوٍ بها غيرَ مُعْجَلِ

أما جيدها الصقيل فهو مرآة :

مهفهفةٍ بيضاءِ غيرَ مُفاضَةٍ
ترائبُها مصقولةٌ كالسَّجَنْجَلِ

ولحظها لحظ وحش وجرة :

---

(٤) ديوان امرىء القيس ص ١٣ — ١٧ .

تصدُّ وتُبدى عن أسيلٍ وتتَّقى

بناظرةٍ من وحشِ وَجرةَ مُطفِلِ

وجيدها كجيد الرئم :

وجيدٍ كجيد الرِئمِ ليس بفاحش

إذا هي نصَّتْه ولا بمعطَّلِ

وشعرها كمذق النخلة الكثيف المتداخل :

وفرعٍ يُغَشّى المتنَ أسودَ فاحمٍ

أثيثٍ كقِنْوِ النخلةِ المتعثكِلِ

وخصرها كالزمام الرقيق ، وساقها كالبردى الناصع البياض :

وكشحٍ لطيفٍ كالجديل مخصرٍ

وساقٍ كأنبوبِ السَّقِي المذلَّلِ

وأصابعها كالاساريع وأغصان الاسحل :

وتعطو برخصٍ غير شَثْنٍ كأنه
أساريعُ ظبيٍ أو مساويكُ أُسحَلِ

وحسن وجهها المضيء كمسرجة الراهب :

تُضيءُ الظلامَ بالعِشاءِ كأنها
منارةُ مُمْسَي راهبٍ متبتِّلِ

وهكذا تجد صفات المرأة مجسمة فى صور مادية حسية ، وتستطيع أن تقف على كثير من صفات الرجولة والبطولة والمحامد المعنوية فتراها قد ارتبطت بصور حسية مشخصة ، وهذا هو النهج العام فى التشبيه خاصة ٠

ومن عيوب هذه النزعة المادية الحسية ايضا ، انها جعلت الصور تتكرر ، لان الظواهر الحسية متعلقة بالصحراء ، ومشاهد الصحراء محدودة متشابهة ، وطبيعى أن هذه المشاهد لا تستلطفها الاذواق الحضرية ، وقد تعجب أناسا دون آخرين ٠

أما فوائد هذه النزعة المادية الحسية ، فانها جعلت الشاعر يدقق فى موضوعاته ويفصل فى أوصافها ويولد فى معانيها فيصب المعنى الواحد فى صور مختلفة ونماذج جديدة ، امعانا منه فى الايضاح وزيادة فى استقصاء جوانب الموصوف واستيفاء أجزائه ، كما سيتضح فيما بعد ٠

(٣)

التصوير :

يكثر التصوير فى الشعر الجاهلى كثرة واضحة ، وبخاصة فى الوصف ، حيث يرسم الشاعر مناظر ومشاهد رائعة مكتملة الجوانب ، فهو يلم بالصورة الماما تاما ، ثم يدقق فى أجزائها ، ويحصر أطرافها ، ويستقصى جوانبها ، وهذا ـ لا شك ـ دليل التمكن فى الفن والدقة فى التعبير وخصب الخيال ، فالشاعر الجاهلى يرسم لوحات كاملة ، يعنى بكل تفاصيلها واجزائها على الرغم من ايجازها ولعلك تذكر معلقة لبيد ووصفه الديار المقفرة ، فهو يصف الرسوم الدراسة ويحدد مواقعها ويشبه آثارها ويذكر قدمها وما مر عليها من أشهر طويلة ، وكيف سقطت فيها الامطار ونبتت الاعشاب وعلا نبات الايهقان وولدت فيها الظباء والنعاج وفرخت النعام ، وراحت صغارها تمرح وترتع على مرأى من أمهاتها ، على شاكلة قوله : (١)

عفتِ الديارُ محلُّها فمُقامُها

بمنىً تأبَّدَ غولُها فرِجامُها

---

(١) ديوانه ص ٢٩٧ ـ ٢٩٩ .

فمدافعُ الرَّيانِ عُرِّيَ رسمُها

خَلَقاً كما ضَمِنَ الوُحِيَّ سِلامُها

دمنٌ تجرَّم بَعدَ عهدِ أنيسها

حججٌ خلون حلالُها وحرامُها

رُزِقتْ مرابيعَ النجومِ وصابَها

وَدْقُ الرواعد جَوْدُها فرِهَامُها

من كل سارية وغادٍ مدجنٍ

وعشيةٍ متجاوبٍ إرزامُها

فعلا فروعُ الأيهُقانِ وأطفلتْ

بالجَلْهتين ظِباؤها ونَعامُها

والعينُ ساكنةٌ على اطلائها

عوذاً تأجَّلُ بالفضاء بِهامُها

وجلا السيولُ عن الطلول كأنها

زُبُرٌ تُجِدُّ متونَها أقلامُها

أو رجعُ واشمةٍ أسِفَّ نؤُورُها

كففًا تعرضُ فوقهن وِشامُها

فقد جمع لبيد فى صورته هذه كل ما يمكن أن يجمع فى الصورة المتقنة ، وفر لها عناصر أصيلة لازمة لجمال المشهد ، من ذكر الزمان والمكان والمياه واللون والنبات ، والحركة فى الحيوان والصوت فى رعد السحب ، وهكذا تجده يدقق فى صوره ويستوعب انحاءها ويستكمل جوانبها ويتقنها • وانظر الى هذه الصورة ، صورة حمار الوحش وأتانه وهما يعدوان فيثيران سحابة من غبار ، وتأمل كيف يدقق ويتأنق فى الوصف والتصوير : (٢)

فتنازعا سَبِطا يطيرُ ظِلالُه

كدُخانِ مشعَلَةٍ يُشَبُّ ضِرامُها

مشمولةٍ غُلِثتْ بنابت عرفجٍ

كدُخان نارٍ ساطعٍ أسنامُها

فقد صور الغبار المثار بينهما كغلالة رقيقة يتنازعانها ، وشبه هذا الغبار بدخان نار مشبوبة الضرام وقد كملت الصورة فى هذا البيت ، ولو شاء لاكتفى بها ، ولكنه أراد أن يفصل هذا التشبيه ويتقنه ، ويبين ان هذه النار قد أوقدت بنبات العرفج الطرى الذى يثير الدخان الكثيف ويزيد لهب النار بحيث تسطع أعاليها ، وان ريح الشمال تمر عليها فتزيد فى ضرامها وسطوعها •

(٢) ديوانه ص ٣٠٦ •

وهذه الصورة الدقيقة قريبة فى اتقانها ودقتها من صورة ابى خراش الهذلى لحمار الوحش وأتنه وذلك حيث يقول : (١)

أَرى الدهر لا يَبقى على حدَثانِه
أَقبٌّ تُباريه جَدائِدُ حُولُ

أَبنَّ عِقَاقاً ثم يرمحن ظَلْمَه
إباءً وفيه صولة وذميــــلُ

يظَلُّ على البَرْزِ اليَفَاعِ كأنه
من الغار والخوف المُحِمِّ وبيلُ

وظل لهـــا يوم كأن أُوارَهُ
ذَكا النار من فَيْحِ الفروع طويلُ

فلما رأَين الشمسَ صارت كأنها
فُويقُ البَضِيعِ في الشُّعاعِ خَمِيلُ

فهيَّجها وانشَام نَقْعاً كأنــــه
اذا لفها ثم استمرَّ سَحِيلُ

(١) ديوان الهذليين ٢/١١٧ ـ ١٢١ .

مُنِيبا وقد أمسى تقدم وِرْدَها

أقيدِرُ محموزُ القِطاع نَذِيلُ

فلما دنتْ بعد استماعٍ رَهَفْنَه

بنقبِ الحِجَاب وقعُهن رَجيلُ

يُفَجِّينَ بالأيدي على ظهرِ آجنٍ

له عُرْمَضٌ مستأسِدٌ ونَجِيلُ

فلما رأى ان لا نَجاءَ وَضَمَّهُ

الى الموت لِصْبٌ حافظ وقَفِيلُ

وكان هو الأدنى فخَلَّ فؤادَه

من النبل مفتوقُ الغِرار نَجِيلُ

فقد استطاع الشاعر فى هذه الابيات القليلة أن يصور حمارا وحشيا وأتنه التى ظهرت عليها علامات الحمل ، فهى تعاسره وتتمنع منه ، وهو يعابثها ويباريها ويتبعها ، والحمار خائف مذعور يخشى الصياد وكلابه ، فتراه قد علا مرقبة من الارض يشرف منها على ما حوله ، وبينا هو كذلك مالت الشمس نحو الغروب ، لتودع نهارا قائظا شديد الحر ، والحمار اذ يطارد أتنه وهى تعدو أمامه فتثير غلالات من الغبار ، تمتد كأنها حبال سحيلة لم تبرم ، وتحس هذه الحمر ان صيادا بادى الفقر يتربص بها الغوائل ، فاذا تسمعت حركته وأيقنت منه الموت ، اشتدت فى العدو مفزوعة مذعورة ، فاذا اعترضها ماء آجن

علاه الطحلب وألوان النبات القت بنفسها فى غماره تبغى النجاة ، ويرسل الصياد سهامه المصمية ، فيصيب فؤاد الحمار ، اذ هو أقرب اليه من الاتن .

واذا انعمنا النظر فى هذه الصورة ، نجدها صورة كاملة واضحة المعالم بارزة السمات ، لم يترك الشاعر جانبا من الصورة الا ملأه ووفاه حقه ، سواء فى ذلك الجانب الحركى أو الجانب النفسى أو ذكر الزمان والمكان . ولم يهمل التفاصيل ، بل يؤكدها ويدقق فيها ، وتستطيع أن تلاحظ ذلك فى : ان الاتن قد استبان حملها ، والحمار حذر شديد الحذر ، والغبار ممتد بين الحمار والاتن كخيوط لم تبرم ، وهذا الصياد فقير سىء الحال يتعقبها ويتربص بها ، وحين تقذف الاتن بنفسها فى الماء ، يصف الماء فهو آجن قد فسد ، ويصف ما على الماء من نبات طويل أخضر ، ويمثل حركة ايديها تفج الماء سابحة ، ثم يعين موضع الحمار من اناثه فهو وراءها أقرب الى الصياد منها ، وكان ذلك سببا فى اصابته ، ولا ينسى الشاعر أن يصف السهم الذى كانت رميته مصمية ، فهو سهم كبير شديد عريض النصل .

الشمول فى الوصف ، والتدقيق فى الصورة ، والعناية بالجزئيات والتفاصيل ، كل ذلك دليل عناية الشاعر ، لتأتى صوره كاملة معبرة وافية ، فيها تحبير وتحقيق وتدقيق ، وهذه أبرز صفات الصورة عند فحول الشعراء ومجيديهم .

وقد عرفت الصور الجاهلية فى اكثرها انها تصوير لهيئة الموصوف، وصف لشكله الخارجى وهذا الوصف حسى مادى ، فيه تجسيم وتشخيص ، وفيه جلاء للصورة وتوضيح لجوانبها ، وقد اقتضى ذلك عناية بالاجزاء والتفاصيل ، واهتماما كثيرا بالتشبيه ، وعرض صور كثيرة للمشبه به بحيث يدعو ذلك الى الاستطراد والخروج عن الاصل . وجاءت اوصاف الشعراء معنية بمظهرها

الخارجي وعظم هيكلها ، فطرفة حين وصف ناقته صورها دمية واضحة الاعضاء لم ينس جزءا ولا عضوا ، ولم يغادر عصبا ولا عرقا ، الا وصفه ووضحه ، فهو رسام بارع ينقل صورة ناقته بأعضائها وقسماتها الجسمية ، كما يتضح ذلك في معلقته (١). الا ان وصف طرفة وصف لدمية صماء لا حياة فيها ولا حركة ومثل هذا الوصف عند الجاهلين كثير ، يتناول هيئة الموصوف .

ولكن بعض الشعراء وجهوا عنايتهم الى وصف الحالة ، حالة الموصوف ، سواء أكان حيوانا أم انسانا ، وصفوه وصفا داخليا ، صوروا فيه الحياة والحركة، وتحدثوا عن نزعاته النفسية والعاطفية من حب وكره وخوف وضعف وجرأة واقدام ، صوروا نشاطه ومرحه ، حركاته وسكناته ، زهوه وخيلاءه ، وحتى افكاره في بعض الاحايين ، وقد قرأت فيما تقدم شعر ابى خراش الهذلى فى تصوير أحوال الحمار والاتن ، واقرأ للبيد بن ربيعة قوله فى وصف البقرة التى أكل السبع ولدها ، فراحت تبحث عنه جزعة مذعورة : (٢)

عَلِهَتْ تردَّدُ في نِهَاءِ صُعَائدٍ
سَبْعاً تُؤاماً كاملاً أيامُهـــا

حتى اذا يَئِستْ واسحقَ حالِقٌ
لم يُبْلِه ارضاعُها وفِطامُهـــا

(١) ديوان طرفة ص ١٣ ـ ١٨ .
(٢) ديوان لبيد ص ٣١٠ ـ ٣١١ .

وتوجّستْ رِزَّ الأنيس فراعَها
عن ظهر غيبٍ والأنيسُ سقامُها
فغدت كلا الفرجين تحسَبُ أنَّه
مولى المخَافةِ خلفُها وأَمامُها

فقد بين حزنها وجزعها وهى تبحث عن ولدها سبعة أيام بلياليها، وتحدث عن يأسها بعد طول انتظار وطول غيبة ، وكشف عن مخاوفها وهى تتوجس رز الانيس ، ثم هروبها وهى لا تدرى من أين تأتيها المخاطر وتداهمها المنون •

ومثل لبيد والهذلى ، زهير والاعشى وفريق كبير من الشعراء ، افتنوا فى الاوصاف ، فبينوا احوال الحيوان النفسية ، ومثلوا مخاوفه وعواطفه وهواجسه، وان لم يهملوا هيئته من وصف اعضائه وحسن شياته وهو مذهبهم العام فى الوصف •

وتأتى أوصاف الجاهليين لوحات كاملات يوفرون لها كل أسباب الصور الدالة الموحية المؤثرة ، فيها الجو الملائم من المكان والزمان واللون والحركة ، وحتى الصوت فى كثير من الاحايين ، نجد ذلك فى وصف الطبيعة الصامتة كالمطر والسيول والبرق والغيوم والرمال والرياض ، ونجد ذلك كذلك فى وصفهم للحيوان حين يبينون لون بشرته وقوائمه والتماعه وسط الظلام ، وحركته حين يمرح وحين يعدو فى ذهابه بعيدا يقضى شهور الشتاء ، وفى عودته ساعيا نحو الماء ، فى هروبه من الصياد وكلابه وفى مقاتلته هذه الكلاب وهو يفرى صفاحها • وتستطيع ان تلمس هذه العناصر كاملة فى قصيدة لزهير

يصف بقرة وحشية يطاردها الصياد وقد افترس السبع ولدها ، واستطاع زهير ان يوفر لقصيدته كل اسباب الجمال، وان يفتن في رسم الالوان وبيان الحركات والمطاردة ، ووصف العواطف وتعيين مواطن الفجيعة ، يقول : (١)

كخنساءَ سفعاءِ الملاطمِ حُرَّةٍ
مُسافرةٍ مزْؤُدةٍ أمٌّ فرقَدِ

غَدتْ بسلاح مثلُه يُتَّقَى بـه
ويُؤمِنُ جأشَ الخائف المتوقّدِ

وسامعتين تعرفُ العِتْقَ فيهما
الى جذر مَدْلوكِ الكُعوبِ مُحَدَّدِ

وناظرتين تَطْحَرانِ قَذاهُمَا
كأنهما مكحولتان بإثْمَدِ

طَباها ضَحَاءٌ أو خَلاءٌ فخالفتْ
اليه السِّباعُ في كِناسٍ ومرقَدِ

أضاعتْ فلم تُغْفَرْ لها غَفَلاتُها
فلاقت بياناً عندَ آخرِ معهدِ

(١) ديوان زهير ص ٢٢٥ ـ ٢٣٠ .

دماً عندَ شِلْوٍ تحجِلُ الطيرُ حولَه

وبَضْعَ لِحامٍ في إهابٍ مقَدَّدِ

فجالتْ على وحشيِّها وكأنهـــا

مُسربلةٌ في رازقيٍّ معَضَّـــدِ

وتنفُضُ عنها غيبَ كلِ خميلةٍ

وتخشى رُماةَ الغَوْثِ من كلِ مرَصدِ

ولم تَدْرِ وَشْكَ البين حتى رأتْهُم

وقد قعدوا أنفاقَها كلَّ مقعدِ

وثاروا بها من جانبيها كِليهما

وجالتْ وان يُجْشِمْنَها الشدَّ تَجْهَدِ

تَبُذُّ الأُلى ياتينَها من ورائِها

وان تتقدّمهَا السوابقُ تُصْطَدِ

فأنقذها من غَمْرةِ الموت أنها

رأت أنها إنْ تنظُرِ النبلَ تُقْصَدِ

نَجَاءٌ مُجِدٌ ليس فيــه وَتيرَةٌ

وتذبيبُها عنها بأسحَمَ مِذْوَدِ

وجدت فالقت بينهن وبينهَـا

غبارا كما فارت دواخنُ غَرْقَد

بملتثماتٍ كالخذاريف قوبلتْ

الى جوشَنٍ خاظي الطريقةِ مُسْنَدِ

فهى بقرة خنساء على خدها حمرة مشربة بسواد ، تنطلق فى الصحراء فرقة مذعورة ، تركت وليدها فى كناس ، فهى قلقة مضطربة ، تخشى عليــه غوائل الانسان وسباع الصحراء • ويصف زهير قرنيها فهما سيفــان ماضيان املسان ، ويصف أذنيها المرهفتين تتسمع بهما حركة العدو مخافة ان يفجأها فيصيب منها مقتلا ، وعيناها واسعتان سوداوان كأنهما كحلتا بأثمد ، تتأمل بهما فى حذر شديد أماكن المخافة ومواطن الهلاك والخطر •

فى هذا القسم من القصيدة نظر زهير الى جانب اللون فى البقرة، فوصف لون خدها وعينيها وقرنيها واذنيها واعضاءها ، ثم ينتقل فى الجزء الثانى فيصف حال البقرة ، ولكى يظهر خلجاتها النفسية واضطرابها نراه يستعين بحركاتها ، الحركة الجسمية الظاهرة والحركة النفسية المصورة ، فهى مسافرة مسرعة فى عودتها ، مضطربة قلقــة على ولدهــا من سبــاع الصحراء ، وقد راعها هول المشهد ، مشهد ابنها حين رأته أشلاء ومزقا معفرة ، ودماؤه تصبغ الرمال بلونها

العاتك ، والطير حوله تحجل هنا وهنالك ، ثم عادت تعدو في هذه الصحراء الواسعة ، وهي كثيرة الحركة حركة عدوها السريع ، وحركة تلفتها ذات اليمين وذات الشمال ، وحركة عينيها الزائغتين اللتين لا تستقران في محجر او موق ، ذلك انها تتوقع المهالك وتوشك ان تصيبها سهام الرماة من قبيلة الغوث الذين يقفون لها في كل مرصد ، يرسلون اليها سهامهم ، ويجرون خلفها كلابهم ، تطاردها في هذا الموضع او ذاك ، تسد عليها المسالك ، وهي مجدة في عدوها تسبق الكلاب تارة ، وتسبقها الكلاب تارة اخرى ، ولا تنفك تذب عن نفسها بقرنها الماضيين ، فتطعن هذا وتنوش ذاك ، وما زالت على هذه الحال حتى نجت من براثن الموت وأنياب المنية .

وانك لتعجب من هذا المشهد الذي ملأته الحركة ، حركة العدو والمطاردة ، وحركة العدو واضطراب الاعضاء ، وحركة الكلاب المسعورة ، وحركة قوائم البقرة السريعة الرشيقة المتناسقة وخفتها فهي كخذاريف الصبيان التي تذكرنا بخذروف الوليد عند امرىء القيس (١)، وفي هذا المشهد يعود الشاعر مرة أخرى الى اللون ، فيصف لون البقرة الأبيض الناصع ، وقوائمها المخططة التي تشبه ثوبا جميلا ، ولون قرنها الاسود ، والغبار الذي تثيره البقرة وخلفها كلاب الصيد كأنه دخان نار شجر الغرقد •

واذا رحنا نرصد جانب اللون في الشعر الجاهلي ، نجد كثرة من الالوان ، فهم حين يصفون يلونون أوصافهم ويثبتون أشكالها ، وصفوا اسلحتهم وذكروا الوانها : فالسيف ابيض كالملح ،والرمح أسمر ، وكذلك الترس ، والسهم ازرق ، وكذلك النصل ، والقدح أحمر ، والقوس صفراء تارة وحمراء اخرى •

---

(١) ديوانه ص ٢١ •

اما الحيوان فقد افتنوا فى اوصافه والوانه ، فالابل دهم ، والخيل شقر او حو او كمت ، والحمار اسود ، والثور ابيض ناصع البياض ، واكارعه سود ، وعين البقرة سوداء حوراء كأنها مكحولة بأثمد ، والضباع سود والغزلان عفر •

أما الدم فهو حالك عاتك ، وجلود اعدائهم حمراء كالدم ، ووجوههم مشرقة كالذهب ، ووجوه اعدائهم سود سفعاء ، وكذلك قدورهم التى يحيط بها الغرثى من المرملين المعوزين ، والنبت اخضر فى الربيع ، والديار غبر ، والاثافى سفع ، والاوارى سود ، والبعر أسود كحب الفلفل •

ومن تمام الصورة عناية الجاهليين بالمواضع والمنازل والديار ، مخاطبتها ومناجاتها وتحديد اماكنها وتكرار ذكرها ونسبة بعضها الى بعض ، من واد وجبل وعين ماء ونجد وسهل ، وهذه الظاهرة لها دلالتها النفسية ، فالمنازل اوطان الشعراء وديارهم ، فيها ذكرياتهم ومعاهد صباهم ومساكن أحبتهم وميادين حروبهم ، وما لهم فيها من غارات منتصرة أو جولات خائبة ، فهم يذكرونها بقلوب واجفة ودموع منهمرة •

وليس ذكر المنازل والحنين اليها تقليدا ساروا عليه ـ كما نعهد ذلك فى الشعر العباسى الذى تابع الجاهليين بعد تغير الحال وتبدل الاوطان ـ بل كان تعبيرا عن عواطف صادقة وذكريات عزيزة ، فهم حين يمرون على الديار يقفون وقفة ذكرى عند خرائبها القديمة بعد ان خلت من أحبتهم ، ويلتمسون العبرة من أفاعيل الزمان واحداث الليالى ، فتهز هذه المواضع عواطفهم وتستثير اشواقهم •

ولم يكن ذكر المنازل والديار مقتصرا على شاعر دون غيره ، او طائفة منهم دون اخرى ، بل كان أمرا شائعا عند أكثر الشعراء ، يفتتحون بها

قصائدهم الكبيرة المطولة خاصة ، فهذا لبيد يتتبع فى معلقته مواضع حبيبته نوار، ويبين منازلها ، ويحدد أماكن حلولها أو مرورها ، وهو يستمتع بذكر هذه المواضع ويلتذ حين يسميها أو يشير اليها ، فيقول : (١)

مُرِيَّةٌ حلّت بفَيْدَ وجاورت

أهلَ الحجاز فاين منك مَرامُهَا

بمشارقِ الجبلينِ او بمُحَجَّرٍ

فتضمنَتْها فَرْدةٌ فرُخَامُهَا

فصوائِقٌ إن أيمنتْ فمظِنَّةٌ

فيها وِحافُ القَهْرِ او طِلْخَامُها

ولا يكاد القارىء يمضى فى قراءة هذه الابيات حتى تفجأه هذه المواضع الكثيرة التى ينثرها فى القصيدة نثرا ، كأنه يستمتع بذكرها ويأنس بتسميتها ، وينحو لبيد فى كثير من قصائده هذا المنحى . وكذلك فعل عنترة فى معلقته ، فقد أكثر من ذكر المنازل وبالغ فى تحديدها وتبيين مواضعها ، وبخاصة منازل عبلة ، فهو يقول : (٢)

(١) ديوان لبيد ص ٣٠١ - ٣٠٢ .
(٢) ديوان عنترة ص ١٨٣ و١٨٧ .

يا دارَ عبلةَ بالجِواءِ تكلّمي
وعِمِي صباحاً دارَ عبلةَ واسلمى

ويذكر ديارها وديار أهله :

وتَحُلُّ عبلةُ بالجِواءِ وأهلُنا
بالحَزْنِ فالصمَّانِ فالمتثلّمِ

ويقول كذلك :

كيف المزارُ وقد تربّعَ أهلُها
بعُنيزَتينِ وأهلُنَا بالغَيْلَمِ

ويعنى الحارث بن حلزة كذلك بالمواضع ، ولكنه لا يحدد جهاتها مثل لبيد وعنترة ، فهو يقول فى ديار أسماء : (٣)

بعدَ عهدٍ لنا ببرُقةَ شمّا
ءَ فادنى ديارها الخَلْصَاءُ

(٣) شرح المعلقات السبع ص ١٥٥ .

فالمُحَيَّاةُ فالصِّفَاحُ فأعـلَى

ذى فَتــاقٍ فعاذِبٌ فالوَفاءُ

فرياضُ القَطا فاوديةُ الشُّـرْ

بُبِ فالشعبَتـــانِ فالأَبْلاءُ

ولم يتخلف امرؤ القيس عن هؤلاء فوقف يبكى على منزل حبيبته بسقط اللوى بين الدخول فحومل وكذلك توضح والمقراة التى لم يعف رسمها (٤) ، وظهرت الديار أقل وضوحا عند زهير الذى ذكر دمنة حبيبتـه أم أوفى التى بحومانة الدراج فالمتثلم وكذلك ديارها بالرقمتين (٥) ، أما عمرو بن كلثـوم فيتذكر ايامه التى شرب فيها ببعلبك ودمشق وقاصرين (٦) ، واكتفى طرفة بأن عين أطلال خولة ببرقة ثهمد (٧) •

وقد ذكروا هذه الديار التى تشوقوا اليها وذرفوا الدمع عندها ، مقرونة بذكر النساء الحبيبات حين يصفونهن ظاعنات ويتابعون حمولهن بأبصارهم ، ويسايرونها بخيالهم ، ويعينون المواضع التى تمر بها أو تحل فيها ، ثم يصفون ديارهن وهى خالية خاوية غدت مسرحا للوحش من الحيوان •

وكان التأمل فى الديار يدعوهم الى ذكر آياتهـــا من النؤى والاثافى والثمام وما هطل فيها من مطر أو مرت عليها من ضروب الرياح • وكـان

(٤) ديوان امرىء القيس ص ٢٨ •
(٥) ديوان زهير ص ٤ ـ ٥ •
(٦) شرح المعلقات السبع ص ١١٩ •
(٧) المصدر السابق ص ٤٥ •

وصف الديار وما يتعلق بها جزءا من الصورة به تستكمل جوانبها وتتم ابعادها، فالديار من أبرز مظاهر الصورة الجاهلية .

وكان الشاعر الجاهلي يستعين بضروب من المجاز والمحسنات المعنوية ، التي تأتي دون تكلف أو افتعال ، لاظهار الصورة بأجمل حلة وأزهى اسلوب ، فهو يعنى باستقصاء القول في الوصف واستغراق التشبيه واستيفاء الصورة البيانية استيفاء يتناول دقائقها وتفاصيلها . وكانت هذه الصور والتشبيهات ـ بطبيعتها ـ مستمدة من الواقع ، من طبيعة الحياة ، وكان لشدة احساس الشاعر بالجمال أن صار يجمل الصورة ويخرجها بهيئة رائقة رائعة ، من ذلك أن امرأ القيس يستمد من حياته وما فيها من سهام الميسر وسهام الصيد ، ليكون هذه الصورة البديعة : (١)

وماذرفت عيناكِ الا لتقدحي

بسهميكِ في أعشارِ قلب مقتّلِ

واستمد عنترة صورة حية من الروض فيه الذباب الغرد ، كشارب سكر فترنم ، وقد لاحظ حركة ذراعيه فتذكر صورة المكب على الزناد الذى لا يورى فهو يعالجه باهتمام : (٢)

فترى الذُبابَ بها يغنى وحدَهُ

هَزجاً كفعل الشاربِ المترنّمِ

---

(١) ديوانه ص ١٣ .
(٢) ديوانه ص ١٩٧ ـ ١٩٨ .

غَرِداً يسن ذارَعهُ بذراعِـــه

فعلَ المُـكِبّ على الزِنادِ الأجذمِ

وقد كان امرؤ القيس أول من فتق أساليب البيان وافتن في عرض الصور وأكثر من التشبيهات ، فهو يرسل تشبيهاته متتالية على شاكلة قوله في وصف جبل ثبير حين يهطل عليه المطر : (٣)

كأنَّ ثُبَيراً في عرانينِ وَبْلِه

كبيرُ أناسٍ في بِجَادٍ مزمَّلِ

كأنَّ ذُرَى رأس المُجَيْمِرِ غُدوةً

من السيل والغُثَّاءِ فلكةُ مغزلِ

وألقى بصحراءِ الغبيطِ بَعاعَهُ

نزولَ اليماني ذي العياب المحمَّلِ

كأن مَكاكِيَّ الجِواء غُدَيَّةً

صبحن سُلافاً من رحيقٍ مفلفَلِ

---

(٣) شرح المعلقات السبع ص ٤٠ ـ ٤١ وانظر ديوانه ص ٢٥ ـ ٢٦ وفي روايته خلاف .

كأن السباعَ فيه غرقى عشيّةً

بأرجائه القُصوى أنابيشُ عُنصُلِ

يشبه امرؤ القيس ثبيرا حين أحاط به السيل وتوالى عليه المطر ، بكبير قوم قد تزمل فى ثياب مخططة ثم تناول صورة أخرى فشبه رأس جبل المجيمر وقد غمره السيل وفيه الغثاء والنبات بفلكة المغزل ، وصورة أخرى ، هى صورة طيور المكاكى وقد فرحت بالخصب وغردت مسرورة كأنها نشوان أسكره سلاف الخمر المفلفل ، ثم تناول صورة السباع وقد أغرق السيل آجامها وغرقت فى لججه فبدت رؤوسها كأنها البصل البرى الذى قد نبش .

وصور امرىء القيس هذه صور منفصلة متتابعة موجزة ، كل صورة تستقل بذاتها ، فهى من الصور القديمة الاولى التى لم تتطور بعد فتصبح كصور زهير أو صور النابغة الذى يجيد فى وصف المتجردة ، ويعمل خياله فيصوغ آيات من الجمال فى صور زاهية تروق السمع والعين فى آن واحد ، وقد حشد هذه الصور فى موضوع واحد هو وصف هذه الغانية الفاتنة ، فراح يلتمس لها أسباب الجمال فى حسنها وحركتها وجمال خلقها : (٤)

قامت تراءَى بين سِجْفَى كِلَّةٍ

كالشمس يوم طلوعِها بالأسعَدِ

سقط النَصيفُ ولم تُرِدْ اسقاطَه

فتناولَتْهُ واتقَتْنَا باليـــدِ

---

(٤) ديوانه ص ٣٤ ـ ٣٧ .

بمخضَّبٍ رَخْصٍ كأن بنانَهُ

عَنَمٌ على أغصانِه لم يُعقَدِ

وبفاحمٍ رَجْلٍ أثيثٍ نبتُه

كالكَرْم مالَ على الدَّعام المُسنَدِ

نظرت اليك بحاجةٍ لم تقْضِها

نظرَ المريض الى وجوه العُوَّدِ

فبدت ترائبُ شادنٍ متربِّبٍ

أحوى أحمُّ المقلتين مقلَّدِ

أخذ العذارى عقدها فنظَمْنَهُ

من لُؤلؤٍ متتابعٍ متسَرِّدِ

تجلو بقادمتَي حمامةِ أيكةٍ

بَرَداً أُسِفَّ لثاتُه بالأثمَدِ

كالأقحوان غداةَ غِبِّ سَمائهِ

جفَّتْ أعاليه وأسفلُه نَدِي

فقد وفق النابغة في اظهار بهاء المتجردة وحسنها بتشبيهها بالشمس يوم طلوعها بالاسعد وهو برج الحمل ، حيث تكون الشمس بين غلائل من السحب الشفافة ، فتبدو في أزهى صورة وأجمل منظر ، وكذلك المتجردة حين تظهر بين سجفي الستر ، ثم يشبهها بالدرة تتألق بين صدفتين ، أو دمية من مرمر أبيض ناعم ، ويتناول وصف ثناياها البيض البراقة ولثاتها الحمراء العاتكة ، كالاقحوانة بللها الندى ، وهكذا يرسم الشاعر الصورة بما يهيىء لها من أسباب التشبيه بصورة أخرى ، تظهر للقارىء جمالا من مقارنة الصورتين وابراز الحسنين .

واذا جئنا الى زهير ، نجده يعرض الصورة ثم لا يتركها حتى يستكمل جوانبها ، يلح عليها ويفصل في انحائها ويستوفي جوانب الحسن فيها ، تلمس ذلك في وصفه لامرأة يقول فيها : (١)

تنازعها المَهَا شَبَهاً ودُرُّ
النُحور وشاكَهتْ فيها الظباءُ
فأما ما فُويقَ العِقْد منها
فمن أدماءَ مرتَعُها الخَلاءُ
وأما المُقلتانِ فمن مَهَاةٍ
وللدُّرِّ الملاحةُ والنَقَاءُ

(١) ديوانه ص ٦١ - ٦٢ .

فهو من البيت الاول يعقد الصلة بين جمال صاحبته وبين جمال بقر الوحش والدر والظباء ، يقدم صورة مجملة ثم يبدأ بعد ذلك بتفصيلها واستيفاء محاسنها فى البيتين الاخرين .

واذا وصلنا لبيدا فى نهاية العصر الجاهلى ، نجد صوره انيقة شديدة العناية كثيرة الاتقان ، ترى ذلك جليا فى هذه الابيات التى يصف فيها ثورا تطارده كلاب صياد ضامر البطن كالذئب ، والثور يقاتل كلاب الصيد ، قتال القائد الذى يحمى صحابه ، فهو يطعن بقرنيه المدببين كأنهما أسنة قاطعة ، حتى تنجلى المعركة عن صرعى مضرجة بالدماء كأنها أوعية مملوءة دما ، والدم يتفصد من جوانبها : (٢)

فعَدا على حَذَرٍ مورَّثُ عدةٍ
يهتزُّ فوقَ جبينه رُمْحَانِ

حتى أُشِبَّ له ضِراءُ مكلِّبٍ
يسعَى بهنَّ أقبُّ كالسِّرحانِ

فحمى مقَاتِلَهِ وذاد برَوْقِه
حَمْىَ المحاربِ عورةَ الصُحْبَانِ

شَزْراً على نبض القلوب ومُقْدِماً
فكأنّما يختَلُها بسنانِ

(٢) ديوانه ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .

حتى انجلتْ عنه عَمايةُ نَفرِه

فكأن صرعاها ظروفُ دِنَانِ

هذه الصور جميعها كان عمادها التشبيه ، وجمال التشبيه انه يعرض صورتين يربطهما التماثل ، ويزداد جمال التشبيه اذا كانت الصورتان نادرتين ، يتطلب استحضارهما خيال بارع وذهن خصيب ، وهذه الصور ـ التى مرت ـ فى جملتها بسيطة غير مركبة ، سهلة غير معقدة ، ذلك لانها اتخذت التشبيه وسيلة ، والمقارنة بين صورتين سبيلا .

وهناك صور أخرى أكثر دقة وأبعد خيالا وألصق بالفن والشاعرية ، تلك الصور التى عمادها الاستعارة والكناية ، واذا كان التشبيه يمثل طور البداية وهو أول مراحل التصوير ، فان الاستعارة تمثل مرحلة النضج والدقة الفنية وقوة التصور ، والخيال البعيد ، ولذلك فلا تتهيأ الاستعارة الجيدة لكل الشاعرين أو القائلين . ويقال (١) إن أول استعارة جاءت فى الشعر الجاهلى قول امرىء القيس : (٢)

وليلٍ كموج البحرِ أرخى سدولَه

علىّ بأنواع الهمــومِ ليبتلى

فقلت له لمّـا تمطّـى بجَـوْزِهِ

وأردفَ أعجازا وناءَ بـكلـكلِ

---

(١) العمدة ٢٧٦/١ .
(٢) ديوانه ص ١٨ .

والصور التى تعتمد الاستعارة أسلوبا تدل على رقة فى الاحساس وشعور بالجمال والحياة ، ويكفى أن ننظر فى هذه الصور لنجد مدى احساس الجاهليين بالجمال وقوة خيالهم وخصب قرائحهم ، وهى صور تلائم الفطرة السليمة والنفس الصافية ، يقول تأبط شرا واصفا قوة صاحبه : (٣)

اذا هزَّهُ في عَظمٍ قِرْنٍ تهلَّلتْ

نواجِذُ أفواهِ المنايا الضَّواحِكِ

فقد جعل النواجذ تتهلل وتلمع لمعان البرق فى فم المنايا التى تضحك كأنها انسان فرح مسرور . ويقول زهير مصورا حبه : (٤)

صحا القلبُ عن سلمى وأقصرَ باطلُه

وعُرِّيَ أفراسُ الصِّبَا ورواحِلُه

وهى صورة نادرة غريبة ، اذ جعل أسباب حبه لصاحبته أفراسا ورواحل يمتطيها الى صاحبته وقد عريت الان فذهب الحب وصحا قلبه وأقصر عن باطله ، أما لبيد فيتحدث عن كرمه وقت الجدب والبرد ، وكيف دفع عن الجياع هذه الشدة : (٥)

(٣) شرح الحماسة ـ المرزوقى ١/٩٨ .
(٤) ديوانه ص ١٢٤ .
(٥) ديوانه ص ٣١٥ .

وغداةَ ريحٍ قد وَزعتُ وقَرّةٍ

إذ أصبحتْ بيدِ الشّمالِ زمامُها

فانظر الى هذا التخييل وكيف جعل للغداة زماما وللشمال يدا تتحكم فى زمام الغداة ، ويقف عند منظر غروب الشمس وحلول الظلام فيقول : (٦)

حتى إذا ألقتْ يدا في كافرٍ

وأَجنّ عوراتِ الثُّغور ظَلامُها

فقد ألقت الشمس يدها فى يد الليل وهو الذى سماه كافرا أى ساترا ٠ وصور لبيد التى تقوم على الاستعارة كثيرة ، وهى من النوع الذى يسميه البلاغيون بالاستعارة (المكنية) ، وهى أعز مطلبا وأبعد منالا من (التصريحية)، وسر الجمال فيها هذا الخيال البعيد الذى لا يتأتى الا للشعراء القادرين المبدعين ٠

ونجد كذلك استعارات جميلة عند فريق آخر من الشعراء مثل أوس بن حجر فى قوله : (٧)

وانى امرؤٌ اعددتُ للحرب بعدما

رأيتُ لها نابَاً من الشرّ أعصَلا

---

(٦) ديوانه ص ٣١٦ ٠

(٧) ديوانه ص ٨٣ ٠

وعند طفيل الغنوى فى وصف ناقته : (٨)

وجعلتُ كُورى فوقَ ناجيةٍ
يقتاتُ شحمَ سنامها الرحلُ

وقول النابغة في الليل : (٩)

وصدرٍ أراحَ الليلُ عازبَ همِّهِ
تضاعف فيه الحزنُ من كل جانبِ
تقاعس حتى قلت ليس بمنقضٍ
وليس الذي يرعى النجومَ بآيبِ

وكما عبروا عن الصور الجميلة بالاستعارة ، فقد عبروا عنها بالكناية ، وهى اسلوب من التعبير يعتمد على ايجاز العبارة أو ادماج اجزائها ، واجادة التعبير بالكناية تدل على براعة الشاعر فى صياغة معانيه بأسلوب رفيع وعبارة موجزة دالة موحية ، فيها ضرب من الجمال لا يتأتى اظهاره بدونها ، يقول النابغة فى رفاهية الغساسنة وعفتهم : (١)

---

(٩) ديوانه ص ٥٤ — ٥٥ .
(١) ديوانه ص ٦٣ .

رقاقُ النِعال طَيِّبٌ حُجُزاتُهم

يُحَيَّون بالرَّيحانِ يومَ السباسِبِ

ويقول لبيد فى ذكر الموت : (٢)

وكلُّ أناسٍ سوف تدخلُ بينَهم

دُويهيَّةٌ تصفرُّ منها الأناملُ

ويعبر عن كثرة فرسان قومه بنى جعفر فيقول : (٣)

ولقد أراني تارةً من جعفرٍ

في مثل غيثِ الوابل المتحلِّبِ

أما صورة الاعشى ففيها دقة وابـــداع ، يقول فى سرعة ناقتـه عنـد الظهيرة : (٤)

بجُلالةٍ سُرُحٍ كأن بغرزِهَا

هِرًّا إذا انتعلَ المَطِيُّ ظِلالَها

(٢) ديوانه ص ٢٥٦ .
(٣) ديوانه ص ١٥٧ .
(٤) ديوانه ص ٢٣ .

وهكذا نجد الشعراء الجاهليين لم يتركوا جانبا من جوانب التعبير الفنى والتصوير البديع الا طرقوه وأفادوا منه ، سواء كان ذلك باستعمالهم وسائل التحسين البيانية المعنوية ، أو المحسنات البديعية اللفظية وكلها تدعم الصورة وتملاء جوانبها حسنا وجمالا .

* *

(١)

بنية القصيدة :

في الشعر الجاهلى ضربان من القصائد ، الضرب الاول قصائد طويلة كاملة ، تعالج ـ فى غالبها ـ أكثر من موضوع واحد ، أى ان فيها مجموعة تجارب مجزأة الى مراحل وموضوعات ، مرتبطة أحيانا ومفككة فى أحيان أخرى ، ولذلك أسبابه وعلاته ، وهذا الضرب من الشعر هو الذى اعتنت به الدراسات قديما وحديثا ، ويتمثل فى القصائد الطويلة المشهورة وأهمها المعلقات •

أما الضرب الثانى من الشعر الجاهلى فهو القصائد القصار والمقطعات ، وفيها نجد التجارب الشعورية الكاملة والصور الصادقة للحياة الجاهلية ، وأصداء أمينة لخفقات قلب الشاعر وترجمانا لعواطفه وأحاسيسه ، ذلك لانها قصائد أصيلة لم تصدر عن صناعة أو تكلف ، وتتمثل فى هذه القصائد وحدة الموضوع والتجربة الشعورية الصادقة على ما فيها من سرعة وايجاز • وعلى هذا فالحديث عن بناء القصيدة ومراحل تكوينها لا ينصرف الا الى القصائد الطوال ، هذه القصائد التى تتعدد فيها الموضوعات وتسير على نظام معين ونسق موروث سنه القدماء منذ عهد متقدم فى الجاهلية ، وتبعه المتأخرون فى صدر الاسلام وسار

على نهجهم كثير من شعراء العصر الاموى والعباسى على تفاوت فى مقدار التبعية والالتزام .

ولم تك موضوعات القصيدة أو اجزاؤها مرتجلة على غير نظام ، بل يمهد الشاعر للموضوع الذى يختاره ، فيجعل له مقدمة طللية ، ينتقل بعدها وبعلاقة من تداعى الخواطر الى ذكر أهل هذه الاطلال ، وتذكر أيام الصبا والهوى ، ثم يفخر أمام حبيبته ببطولته وكثرة وقائعه وشدة بلائه ، ويتداخل فخره بنفسه بفخره بقبيلته ، لانه واحد منها ومجده من أمجادها ، ومن مفاخر نفسه تجشمه الاهوال وسعيه فى سبيل المجد ، وكثرة ترحاله وطول أسفاره وفى هذه الاسفار يصحب الحيوان وبخاصة الناقة ، فحديثه عن الناقة جزء من رحلته ، وفى الرحلة مشاهد كثيرة من طبيعة قاسية فى ليل مظلم وصحراء لافحة ومطر هطال ، وفى هذه اللوحة من الطبيعة مسارح للحيوان ومعارك لها مع الصائدين ، فينصرف الذهن الى قصة هذه الحيوانات وما تتعرض له من مخاطر وبخاصة مخاطر الصياد وكلابه ، فهناك اذا صراع بين الطبيعة وسكانها من انسان وحيوان ، ووصف هذا الصراع وتلك المعارك هو وصف للبطولة وتعبير عن ذات الشاعر ممثلا فى انتصار الثور أو فوز الحمار بأتانه وانفراده بها بعيدا عن أعين الرقباء وتربص الصيادين ، وقد تكون هذه أو تلك أمانى الشاعر فى أن ينتصر أو يخلو بحبيبته ، يعيرها هذا الحيوان أو ذاك ، وبعد أن يشبع الشاعر حاسته الفنية من رسم هذه اللوحات المتحركة ، والقصص الممتع ، يعود الى ذاته ويستيقظ من احلامه فيجدد القول فى عرض آخر يريده أو يتعرض له من حيث لا يقصد ولا يتعمد ، وغالبا ما يلخص بعد ذلك تجاربه فى حكم شاردة وتأمل فى هذه الدنيا وغاية الانسان فيها ومصيره وخبر من باد من الناس أو هلك من الغابرين ، هذا هو نظام القصيدة فى عمومه ، ولكل جزء من أجزاء القصيدة نظام خاص وعرف ـ عند الشعراء ـ متبع ، فلنقف عند كل جزء ، لعلنا نرى فيه رأيا .

المطلـــــع :

لقد انصرفت عناية الشعراء منذ القديم الى الاهتمام بمطالع قصائدهم ، لانها أول ما تفاجأ السامع فلا بد أن يكون لها وقع حسن ، ولذلك فقد حمد النقاد للشعراء مطالعهم الحسنة التى تكون واضحة سهلة المأخذ مـع القـوة والجزالة (١) ، وقد لاحظوا كذلك التناسب بين الشطر والعجز وترابط المعنى بينهما ، وكذلك لاحظوا مناسبة المطلع لموضوع القصيدة ، فاذا كان المقام مقام حزن كان الاولى بالمطلع أن ينبىء بذلك من أول بيت ، واذا كان المقام مقام تهنئة أو مديح كرهوا الابتداء بما يتشاءم به ، ولعلك تذكر قول جرير فى مديح عبد الملك بن مروان : (٢) أتصحو أم فؤادك غير صاح ...

فقال له عبد الملك : « بل فؤادك يا ابن الفاعلة » فقد ساءه هذا المطلع ، مع ان عبد الملك يعلم ان الشاعر يخاطب نفسه ، وكذلك وقع ذو الرمة فيما وقع فيه جرير ، حين دخل على عبد الملك وأنشده قوله : (٣)

ما بال عينك منها الماء ينسكب ...

« وكانت بعين عبد الملك ريشة وهى تدمع أبدا ، فتوهم أنه خاطبه أو عرض به ، فقال : وما سؤالك عن هذا يا جاهل ، فمنعه وأمر باخراجه » وكذلك كان أمر ابى النجم العجلى مع هشام بن عبد الملك حـين أنشـده ارجوزته : (٤)

---

(١) العمدة ١/٢١٨ .
(٢) و (٣) العمدة ١/٢٢٢ .
(٤) المصدر السابق والصفحه .

والشمس قد كادت ولما تفعلِ

كأنها في الأفق عينُ الأحولِ

وكان هشام أحول ، فأمر به فحجب عنه مدة . وأسوأ من هذا وذاك قول أبى مقاتل فى المديح : (٥)

لا تقل بشري ولكن بشريان

غُرّةُ الداعي ويومُ المهرجان

فأخذ عليه ذلك وأوجع ضربا ، وقيل له لو قلت : « ان تقل بشرى فعندى بشريان » . وقد مدحوا المطالع التى تناسب الحال والمقام ، كقول أوس بن حجر فى ابتداء مرثيته : (٦)

أيتها النفس اجملي جزعـــا

ان الذي تحذرين قـــد وقعا

وكذلك قول النابغة الذبيانى الذى صور خوفه من النعمان وخوالجـه النفسية فى قصيدة الاعتذار فبدأها بقوله : (٧)

---

(٥) الصناعتين ص ٤٣٢ .
(٦) الصناعتين ص ٤٣٣ وديوانه ص ٥٣ .
(٧) الصناعتين ٤٣٣ وديوان النابغة ص ٥٤ .

كليني لهـــمّ يا أميمةُ ناصبِ

وليلٍ أقاسيه بطيءِ الكواكبِ

واذا جئنا الى القصائد الطويلة التى هيأ الشاعر لها كل أسباب فنه ومواهبه، نجدها تبدأ بالديار والوقوف على الاطلال وبكائها والتأمل فيها ، فالديار هى ديار الحبيبة ، ديار الذكريات ، فهى قطعة من الماضى العزيز الذى يثير فـى نفسه الشوق والحنين ، وهذا هو أسلوب المعلقات فى الاستهلال ، فامرؤ القيس يقف على الديار ويستوقف : (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) وكذلك فعل طرفة حين وصف أطلال خولة : (لخولة أطلال ببرقة ثهمد) وتبعهما لبيد فى وصف الديار : (عفت الديار محلها فمقامها) وزهير يتحدث عن دمن أم أوفى : (أمن أم أوفى دمنة لم تكلم) وعنترة يتعرف على الديار بعد طول توهم : (هل غادر الشعراء من متردم) والحارث بن حلزة يعدد مواقع أسماء ويحددها : (آذنتنا ببينها أسماء) ، ولم يشذ عن هذه السنة من أصحـاب المعلقات الا عمرو بن كلثوم فقد كان مندفعا الى الكأس وشربها ليهىء نفسه لعتاب عمرو بن هند فبدأها بقوله : (ألا هبى بصحنك فاصبحينا) .

هذا هو الاسلوب العام فى ابتداء المطولات ، البدء بالديار وحديثهـــا وذكرياتها ، ولكن هذا لا يعنى أن كل الشعر الجاهلى كان يفتتح بذكر الديار ، فكما شذت معلقة عمرو بن كلثوم ، فقد نشزت قصائد كثيرة عن هذا الاسلوب ، فمن الشعراء من استبدل الديار بالغزل والحديث عن النفس كما فعل زهير بن أبى سلمى فى قصيدته التى يمدح بها حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى : (١)

---

(١) ديوان زهير ص ١٢٤ .

صحا القلبُ عن سلمى وأقصرَ باطلُه
وعرِّيَ أفراسُ الصِّبا ورواحِلُه
وأقصرتُ عما تعلمين وسُدِّدَتْ
عليَّ سوى قصدِ السبيل معادِلُه

ثم يمضى فى وصف الطبيعة والصيد حتى يصل الى قصده من المديح ٠
ولعل زهيرا كان يتابع فى قصيدته هذه أستاذه أوس بن حجر فى مطلعه وفى
مراجعة نفسه : (٢)

صحا قلبُه عن سُكرةٍ فتأمَّلا
وكان بذكرى أمِّ عمروٍ موكَّلا
وكان له الحَيْنُ المتاح حَمولةً
وكلُّ امرىءٍ رهنٌ بما قد تحمَّلا

وعلى هذه الشاكلة من الخروج على قاعدة البدء بالديار شعر الصعاليك فى
أكثره ، فهو يستعيض عن الديار بمحاورة النساء اللواتى يشفقن عليهم من
خوض الغمرات والوقوع فى المهالك ، على شاكلة قول عمرو بن براقة
لصاحبته سليمى : (٣)

(٢) ديوان أوس بن حجر ص ٨٢ ٠
(٣) الامالى ٢/١١٩ وانظر شعر الصعاليك ص ٢٦٧ ٠

تقول سُلَيمى لا تعرَّض لتلفةٍ

وليلُك عن ليلِ الصعاليك نائمُ

وكيف ينامُ الليلَ من جُلُّ مالِه

حُسامٌ كلونِ المِلحِ أبيضُ صارمُ

وكذلك يخاطب عروة بن الورد امرأته سلمى ابنة منذر بأن تدعه وشأنه في حياة الصعلكة جريئا غازيا يبيع نفسه لموت شريف : (٤)

أقلِّي عليَّ اللومَ يا ابنةَ منذرٍ

ونامي فإن لم تشتهي النومَ فاسهري

ذريني ونفسي أمَّ حسّانَ إنني

بها قبلَ أن لا أملك البيعَ مشتري

أحاديثُ تبقى والفتى غيرُ خالدٍ

اذا هو أمسى هامةً تحتَ صيِّرِ

والذي بين أيدينا من مطولات الشعر الجاهلي تدور مطالعها حول الديار ، واذا اضربت عن ذكر الديار ، فالى ذكر المرأة والتشبيب بها ، وأحاديث النفس

(٤) الاصمعيات ص ٤٣ .

حولها ، ونريد أن نتلمس أسباب ذلك • حقا ان بعض القصائد لم تذكر الديار ولا المرأة ، وبخاصة القصائد القصار والمقطوعات ، وهذه لا يقاس عليها ، لانها تجربة شعورية محدودة ، ولكن طوال القصائد تتناول هذين الموضوعين : المرأة والديار ، والديار ديار المرأة ، وذكر المرأة فى موطن الذكريات وهى الديار •

أما القدامى فلديهم رأيان ، الاول نقله ابن قتيبة عن بعض أهل الادب ولم يسمه قال : « سمعت بعض أهل الادب يذكر أن مقصد القصيد انما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والاثار ، فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها ، اذ كانت نازلة العمد (١) ، فى الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لانتقالهم عن ماء الى ماء ، وانتجاعهم الكلاء ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ، ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الوجد وألم الفراق ، وفرط الصبابة والشوق ، ليميل نحوه القلوب ويصرف اليه الوجوه ليستدعى به اصغاء الاسماع اليه لان التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب لما قد جعل الله فى تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء ، فلا يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقا منه بسبب وضاربا فيه بسهم حلال أو حرام ، فاذا علم أنه قد استوثق من الاصغاء اليه والاستماع له ، عقب بايجاب الحقوق فرحل فى شعره وشكا النصب والسهر وسرى الليل وحر الهجير وانضاء الراحلة والبعير ، فاذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأميل وقرر عنده ما ناله من المكاره فى المسير بدأ فى المديح فبعثه على المكافأة وهزه للسماح ، وفضله على الاشباه وصغر فى قدره الجزيل » (٢) •

---

(١) نازلة العمد : يريد البدو من عمود الخباء ، ونازلة المدر : أى الحضر سكان القرى والمدر التراب والطين •
(٢) الشعر والشعراء ص ٧٤ ـ ٧٥ •

ورأى ابن قتيبة هذا يصدق في شعر المديح والتكسب حيث يقدم الشاعر بين يدى ممدوحه هذه المقدمات ، ويصف ما لاقاه من مكاره وما تجشم من ضعاب في سبيل الوصول اليه ، وقد يصح هذا فى عصر صار الشعر فيه وسيلة للارتزاق وبخاصة في العصر الاموى وفى بيئات الشام والعراق ، أما شعر العصر الجاهلى ، فلا أظن أن فيه من الذين سألوا فى الشعر أو مدحوا تكسبا ، غير الحطيئة والاعشى ـ وأحاشى النابغة على ما يظن به فقد كان مديحه للملوك سياسيا في سبيل قومه ـ ولا أظن أن القصائد الطويلة التى قيلت وفيها ما فيها من مقدمات طللية وغزلية تتصل فى أكثرها بالمديح ، بل كانت فخرا وهجاء ووصفا وعتابا واعتذارا ، وحتى المديح الجاهلى فانه كان مديحا للقبيلة وهو ضرب من الفخر ، وما كانت غاية الشاعر أن يهز السامعين للسماح والعطاء ، بل ما كان هم الشاعر أن يرضى السامعين بقدر ما كان همه التعبير عن خلجات نفسه وتصوير عواطفه واحساساته ، ورأى ابن قتيبة يجرد الشاعر من عفويته وأصالته واحساساته وصدقه فى ذكرياته وحنينه وحبه ، ويمسخ هذا الشعر الاصيل الى شعر تكلف وصناعة بعيدين عن الطبع الاصيل . ولعل ابن رشيق فى هذا أقرب الى طبيعة الشاعر الجاهلى وحقيقة شعره ، فقد قال : « وسئل ذو الرمة ، كيف تعمل اذا انقفل دونك الشعر ؟ فقال : كيف يقفل دوني وعندى مفاتيحه ... الخلوة بذكر الاحباب » ويعلق ابن رشيق بقوله : « فهذا لانه عاشق ولعمرى انه اذا انفتح للشاعر نسيب القصيدة فقد ولج من الباب ووضع رجله فى الركاب ، على أن ذا الرمة لم يكن كثير المدح والهجاء ، وانما كان واصف اطلال ونادب أظعان ، وهو الذى أخرجه من طبقة الفحول » (٣) . ان رأى ابن رشيق هذا فى ذى الرمة فيه خير رد على ابن قتيبة ، لان ذا الرمة لم يكن كثير المدح والهجاء ، فغزله كان تنشيطا لنفسه واستجابة لنوازعه النفسية وقدحا لملكته الفنية المبدعة ، وكذلك كان شأن هذه

---

(٣) العمدة ١/٢٠٦ .

المقدمات الطللية عند الشعراء .

ان هذه المقدمات الطللية او الغزلية (١) تمثل جزءا من حياة الجاهلى ، وهو حين يقف عندها يستحضر ذكرياته ويعود لايامه وصباه ، فتثير فى نفسه الوانا من الاسى والشجو والحنين ، فيندفع فى مناجاة هذه الديار ومخاطبتها ووصف آثارها وتصور ما كان فيها ، فهو فى الحقيقة يعبر عن احساسات صادقة وعواطف صحيحة تملاء شعاب نفسه ، والديار بالنسبة للجاهلى تمثل الوطن المهجور والاهل والصحب والاحبة ، فهى ليست فى اساسها تقليدا كما صارت عند المتأخرين من امويين وعباسيين ، بل هى حياة عاشها وذكريات عزيزة عليه، فشعره فيها صادق العاطفة ينبع من فيض دافق من المشاعر والاشواق تكاد تمتزج امتزاجا بهذه الديار ، ان الشاعر حين يقف فى الديار المهجورة تفيض نفسه بشتى العواطف ويمتلىء صدره بخلجات من المشاعر المبهمة وتغرورق عيناه بالدموع ، لما تثيره فى نفسه من ذكريات ، تكاد تلمس هذا فى مطلع بشامة ابن الغدير حيث يقول : (٢)

لمن الديارُ عَفوْنَ بالجَزْعِ
بالدَّوم بين بُحارَ فالشَّرْعِ
درستْ وقد بقيت على حِجَجٍ
بعد الأنيس عفونهَا سَبْعِ

---

(١) انظر هنا تطور الغزل ـ شكرى فيصل ص ٣٩ ـ ٦٣ شعر الوقوف على الاطلال عزة حسن ص ٥ ـ ١٥ .
(٢) المفضليات ص ٤٠٧ .

الا بقـــايا خيمةٍ درستْ

دارت قواعدُها على الرَّبعِ

فوقفتُ في دارِ الجميع وقد

جالت شؤونُ الرأس بالدمعِ

كعُروضِ فيّاضٍ على فَلَجٍ

تجري جداولُه على الزرعِ

فوقفتُ فيها كي أسائلَهـــا

غَوْجَ اللَّبَانِ كمِطْرَقِ النبْعِ

أما المطالع الغزلية ففيها احساس دقيق بالجمال وتذوق لمحاسن المرأة ، والقارىء لمشاهد الارتحال والفراق ، يشعر بهزة من شوق ورهبة وحنين لهذا الفراق ، وحين تذكر المرأة وتوصف محاسنها نجد فى هذا الشعر اقبالا على الحياة وامتزاجا بها وتعلقا بمباهجها ، واقرأ فى معلقة الاعشى على ما فى الاعشى من وقار وتعقل ، فانك تلمح فى مقدمته الغزلية جمالا وبهجـــة وصورة فيها حياة وحركة وصدق وعاطفة : (٣)

ودّعْ هُريرةَ إن الركبُ مرتحلُ

وهل تطِيقُ وَداعا أيُّها الرجلُ

(٣) ديوان الأعشى ص ١٤٤ .

غَرّاءُ فرعاءُ مصقولٌ عوارِضُها

تمشي الهُوينا كما يمشي الوَجى الوَحِلُ

كأن مِشْيتَها من بيت جارتِها

مَرُّ السحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

تسمع للحَلْي وَسْواسا إذا انصرفت

كما استعانَ بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ

ليست كمن يكره الجيرانُ طلعتَها

ولا تراها لسرّ الجار تختَتِلُ

يكاد يصرعُها لولا تشدُّدُها

إذا تقوم الى جاراتها الكسَلُ

اذا تُعالجُ قِرناً ساعةَ فترتْ

واهتزَّ منها ذنوبُ المتنِ والكَفَلُ

مِلءُ الوِشاحِ وصفرُ الدِّرْعِ بهكنةٌ

اذا تأَتّى يكادُ الخَصْرُ ينخَزِلُ

التخلص :

واذا انتهينا من مقدمات القصائد ، نسير مع الشاعر خطوة اخرى ، لنراه كيف يغادر الموضوع الذى ابتدأ به الى موضوع آخر ، أينتقـــل فجأة دون تمهيد ، او يمهد لذلك بأبيات وهل هناك علاقة بين الديار والغزل وما بعدهما من ذكر الناقة او الوصف او الفخر ؟

الشاعر المجيد هو الذى يحسن الانتقال ، فيغادر موضوعه الاول الى الذى يليه دون خلل او انقطاع ، ويجعل معانيه تنساب الى الموضوع الآخر انسياباً بحيث لا يشعر قارئه بالنقلة ، بل يجد نفسه فى موضوع جديد هو استمرار للاول وامتداد له ، وبين الموضوعين تمازج والتئـام وانسجام (١) ويمدحون لزهير بعض انتقالاته الى المديح فى مثل قوله : (٢)

ان البخيلَ ملومٌ حيث كان ولـ

ـكن الجوادَ على عِلاّتِه هَرِمُ

ولزهير أساليب فى الانتقال ، فاذا كان فى سياق الحديث عن صد صاحبته وهجرها يحدث نفسه ان يقطع حبال وصلها مثل ما قطعته ، وينهض راحـلا على ناقته القوية المتينة فيقول : (٣)

---

(١) العمدة ١/٢٣٤ .
(٢) ديوانه ص ١٥٢ .
(٣) ديوانه ص ٦٢ ـ ٦٣ .

فصرّمْ حبلَها إذ صرَّمتْهُ

وعادَكَ أن تُلاقيها العَدَاءُ

بآرزةِ الفَقَارة لم يخُنْها

قِطافٌ في الركاب ولا خِلاءُ

ومثل زهير فى هذا لبيد فى معلقته : (٤)

فاقطعْ لبانةَ من تعرَّضَ وصلُه

ولشرُّ واصلِ خُلَّةٍ صرَّامُها

بطليحِ أسفارٍ تركن بقيةً

منها فأحنقَ صُلْبُها وسنامُها

وقد يتخذ الانتقال شكل التساؤل ، وبخاصة فى سياق رحيل الاحبة ، كقول عنترة : (٥)

هل تبلِغَنى دارَها شدَنيَّةٌ

لُعِنَتْ بمحروم الشراب مُصَرَّمِ

---

(٤) ديوانه ص ٣٠٣ .
(٥) ديوانه ص ١٩٩ .

وتابعه فى هذا زهير فقال (٦)

هل تلحِقَنّي وأصحابي بهم قُلُصٌ
يُزجى أوائِلَها التبغِيلُ والرَتَكُ

وهناك أساليب كثيرة فى التخلص والانتقال، وقد يستخدم الشاعر لذلك : الاستفهام او الاشارة او بعض الحروف كالفاء والواو ورب وبل ، ومن جميل الانتقال بالاشارة قول لبيد : (٧)

تلك ابنةُ السعدي اضحتْ تشتكي
لتخونَ عهدي والخَيانَةُ ذامُ

او الاشارة والاستفهام معا كقوله : (٨)

أفتلكَ أم وحشيةٌ مسبوعةٌ
خَذَلتْ وهاديةُ الصُّوارِ قِوامُها

وقد يتخذ الجاهليون الانتقال المفاجىء بالقطع ، وذلك بأن يقول :

---

(٦) ديوانه ص ١٦٨ ·
(٧) ديوانه ص ٢٩١ ·
(٨) ديوانه ص ٣٠٧ ·

(دع ذا) أو (فدعها) أو (عد عن ذا) ، وهذه أساليب ليست مما تمدح فى انتقالاتهم ، كقول الاعشى بعد ان كان يتحدث عن صاحبته انتقل الى الناقة فجأة : (٩)

فدْعها وسَلّ الهمّ عنك بجسرةٍ
تَزَيّدُ في فضلِ الزّمامِ وتَغْتَلي

وقول المثقب العبدى : (١٠)

فسلّ الهمّ عنك بذاتِ لُوْثٍ
عُذافِرةٍ كمطــرقةِ القيونِ

الخاتمة :

وقد لاحظ النقاد ان لخاتمة القصيدة أثرا فى النفس ووقعا مهما ، لانها آخر معنى يبقى فى الاذهان ، وفى الشعر الجاهلى نهايات جميلة أعجبت النقاد قديما ، من ذلك قول تأبط شرا : (١)

(٩) ديوانه ص ١٤٢ .
(١٠) ديوانه ص ٣٤ .
(١) الصناعتين ص ٤٤٤ .

لتقرعَنَّ عليَّ السِنَّ من نَدَمِ

اذا تذكرتَ يوماً بعضَ أخلاقي

وكذلك يعجبهم انتهاء الشنفرى فى قوله : (٢)

وانى لحلوٌ إن أُريد حلاوتي

ومرٌّ اذا نفسُ العزوف أمرّتِ

أبيٌّ لما آبى قريبٌ مقادتي

الى كل نفسٍ تنتحي في مسرتي

فقد جمع خلاصة فخره فى هذين البيتين بلفظ حسن ومعنى واضح .

وكثيرا ما يختتم الجاهليون قصائدهم بالحكمة ، وهى خلاصة تجاربهم ونظرتهم الى الحياة ، ومن جميل ذلك قول امرىء القيس : (٣)

ألا إنَّ بعد العُدْمِ للمرء قِنْوةً

وبعد المشيب طولَ عمرٍ ومَلْبَسَا

---

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) ديوان امرىء القيس ص ١٠٨ والصناعتين ص ٤٤٣ وفيه : وبعد الشباب .

وأوجز لبيد حكمته فى احدى قصائده فقال : (٤)

وإنّا وإخوانا لنا قد تتابعوا

لكالمغتدى والرائحِ المتهجّرِ

هل النفسُ الا متعةٌ مستعارةٌ

تُعار فتأتى ربَّها فَرْطَ أشهرِ

على أن هناك نهايات تشعر ان المعنى ما زال مستمرا حيث ينهى الشاعر قصيدته فجأة وعلى غير ختام ، ويبقى المعنى بحاجة الى تكملة واستمرار كقول امرىء القيس فى معلقته فقد انهاها بقوله : (٥)

كأنّ مُكاكىّ الجِواء غُدَيّةً

صبِحنَ سُلافاً من رحيقٍ مُفَلفلِ

كأن السِّباعَ فيه غرقى عَشيةً

بأرجائهِ القُصْوى أنابيشُ عُنْصُلِ

والقارىء هنا يشعر ان للكلام بقية وللوصف تتمة ، فالسياق يقتضى ملء الصورة التى رسمها .

---

(٤) ديوان لبيد ص ٥٧ .

(٥) شرح المعلقات السبع ـ الزوزنى ص ٤١ وفى ديوانه ص ٢٦ خلاف وحتى رواية الديوان بحاجة الى ختام فهى تشعر بالانقطاع .

الوحدة الموضوعية :

أ ـ البيت فى الشعر العربى يقوم بمعناه ، وهو مستقل بنفسه لا يتعلق بما بعده ، ذلك لان العربى يؤثر الايجاز ويفضل المثل السائر الـذى تلتقطه الذاكرة ويجرى على ألسنة الرواة ، ويفضل النقاد القـدامى البيت المكتمل لمعناه على المحتاج الى غيره ، بل يرون البيت الذى حوى معنيين ، أجود مـن الذى اكتفى بمعنى واحد ، وفى ذلك يقول قدامه : « ان الشاعر اذا أتى بالمعنى الذى يريد او المعنيين فى بيت واحد كان فى ذلك أشعر منه اذا أتى بذلك فى بيتين ، وكذلك اذا أتى شاعران بذلك ، فالذى يجمع المعنيين فى بيت ، أشعر من الذى يجمعهما فى بيتين» (١) ٠

وقد عابوا الشعر الذى لا يستقل البيت فيه بمعناه ، بل يحتاج الى سواه ، وسموا ذلك البيت (مبتـورا) (٢) ، ومثـل قدامة لذلـــك ببيت عـروة بن الورد : (٣)

فلو كاليوم كانَ عليَّ أمري
ومن لك بالتدبُّر في الأمورِ

(١) نقد النثر ص ٨٩ ٠
(٢) نقد الشعر ص ٢١٧ والموشح ص ١٢٩ ٠

اذاً لملكتُ عصمةَ أم وهبٍ

على ما كان من حَسَكِ الصدورِ

فالبيت الاول لا يستقيم معناه ولا يتم الا بورود البيت الثاني . وقد يسمى مثل هذا بـ (التضمين) ويكون هذا أشد قبحا اذا تعلقت القافية او لفظة مما قبلها بما بعدها ، واستشهد ابن رشيق لهذا بقول النابغة الذبياني : (٤)

وهم وردوا الجِفَارَ على تميمٍ

وهم أصحابُ يومِ عُكَاظَ إنّي

شَهِدتُ لهم مواطنَ صالحاتٍ

وثقت لهم بحسن الظنِ منّي

وتسامحوا في البيتين اذا اقتضى الاول مجيء الثاني ، وافتقر الثاني الى الاول ، وسموا ذلك (اقتضاء) ومثلوا له بقول امرىء القيس : (٥)

وتعرفُ فيه من أبيه شمائِلاً

ومن خاله ومن يزيدَ ومن حُجُرْ

---

(٤) العمدة ١/١٧١ وفي ديوانه ص ١٩٩ :
مواطن صادقات اتيتهم بنصح الصدر مني .
(٥) الموشح ص ٤٩ وديوانه ص ١١٣ .

سماحةَ ذا وبِرٌّ ذا ووفاءَ ذا

ونائلَ ذا إذا صحا واذا سَكِرْ

وقد خرج ابن الأثير (٦) على جمهرة النقاد الذين عابوا تعلق معنى البيت بغيره ولم ير فى ذلك بأسا ، واستشهد على المقبول من ذلك بقول امرىء القيس : (٧)

فقلت له لما تمطَّى بصُلْبه

وأردفَ أعجازا وناءَ بكلكلِ

ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا انجلِ

بصبحٍ وما الأصباحُ منك بامثلِ

أما اذا تعلق معنى البيت العام بأبيات بعده ، ولم يكن فيه ما يشعر بالتوقف والانقطاع فذلك أمر مقبول ، وقد يكون هذا من أسباب ربط المعنى فى القطعة .

وكما لاحظوا استقلال البيت فى معناه ، لاحظوا أيضا التناسق بين شطرى البيت الواحد من حيث المعنى ، وان يكون الشطر مشاكلا لاخيه غير غريب عنه ، ولا خارج عن مستواه ، فقد عابوا على الاعشى قوله : (١)

---

(٦) المثل السائر ص ٢٩٤ .
(٧) المصدر السابق والصفحة وفى ديوانه ص ١٨ : فيك بأمثل .
(١) الموشح ص ٧٢ وفى ديوانه ص ١٠٩ : لو صارع الناس عن احلامهم صرعا .

أَغرُّ أبيضُ يُستسقى الغَمامُ به

لو قارع الناسَ عن أحِسابِهم قرَعا

اذ لا علاقة ولا ارتباط بين معنى الشطر الاول ومعنى الشطر الثانى ، ومثله قول طرفة بن العبد : (٢)

ولستُ بحلاّلِ التِلاعِ مخافةً ،

ولكنْ متى يسترفدِ القومُ أرفدِ

ففى صدر البيت يتحدث عن شجاعته ، بحيث لا يحل التلاع العالية خوفا من لقاء الخصوم ، ثم استدرك فى عجز البيت معنى جديدا هو الكرم ، وكان المفروض ان يستدرك فى معنى الشجاعة • وقد أخـذوا على امرىء القيس عدم التلاؤم فى بيتيه بين الشطر والعجز : (٣)

كاني لم أركبْ جواداً للذةٍ

ولم أتبطنْ كاعبا ذاتَ خَلْخَالِ

ولم أسبأ الزقَّ الرويَّ ولم أقلْ

لخيلي كُرى كرةً بعد آجفالِ

---

(٢) الموشح ص ٧٣ وديوان طرفة ص ٣٩ •
(٣) ديوان امرىء القيس ص ٣٥ •

فيصح المعنى اذا قدم عجز البيت الثانى الى الاول ويناسبه فى الحديث عن الخيل والفروسية فيكون :

كاني لم أركب جواداً ولم أقلْ
لخيلي كرى كرةً بعد اجفال

ويستقيم البيت الثانى مع عجز الاول فى الحديث عن شرب الخمر واللهو والغزل ، ويكون :

ولم أسبأ الزقَ الرويَّ للذةٍ
ولم اتبطن كاعبا ذاتَ خلخالِ

ولاحظوا أيضا التناسب بين شطرى البيت من حيث القـوة والضعف ، وأنكروا قول جميل : (٤)

ألا أيها الركبُ النيامُ ألا هبوا
أسائلكمُ هل يقتلُ الرجلَ الحبُ ؟

وقالوا : « ان النصف الاول من البيت كأنه أعرابى فى شملة ، والنصف الاخر كأنه مخنث مفكك » ، « كأنه والله من مخنثى العقيق » .

---

(٤) الاغانى ١١٤/٤ وينظر ديوان جميل ص ٢٥ وفيه :
ألا أيها النوام ويحكم هبوا

ب ـ الوحدة الموضوعية (١) تقوم على أساس تنمية الشاعر لاقسام القصيدة تنمية عضوية بحيث ينشأ كل جزء من سابقه نشوءاً طبيعياً مقنعاً : ويستدعى الجزء الذى يليه استدعاء حتميا ، حتى تتكامل اجزاء القصيدة وتشملها عاطفة موحدة • وتتحقق هذه الوحدة فى القصائد ذات الموضوع الواحد ، وهى القصائد القصيرة والمقطوعات ، او القصائد الطويلة ذات الموضوعات القصصية ، وكذلك تتحقق فى القصائد الطويلة ذات الموضوعات المتعددة كل جزء على انفراد وليس يعنى هذا ان يكون بين موضوعات القصيدة انسجاما فى طريقة التخلص او الانتقال ، والشعر الجاهلى ـ والشعر القديم بعامة ـ لا تتوفر فى قصائده الطوال هذه الوحدة الا قليلا ، ومن الخطأ والتعسف الفاحش تطبيق المفاهيم الاوربية الحديثة على الادب القديم ، مع اختلاف طبيعة كل أدب فى النظرة والموضوع ، فقد دخلت الادب الحديث قيم ومفاهيم جديدة بحيث صارت الوحدة الموضوعية والعضوية ضرورة لا غنى عنها ـ على قلة توفرها فى الشعر الحديث نفسه ـ ، وليس كذلك الادب القديم ، وعلينا أن نتفهم الشعر القديم فى حدوده وظروفه ومقاييسه فى عصوره تلك •

فالوحدة الموضوعية ، او الوحدة المعنوية كما يسميها الدكتور طه حسين (٢) ، تتحقق فى الشعر الجاهلى فى أجزاء من القصائد الطويلة فى الموضوع الواحد وتتحقق فى الشعر الذى يسرد قصة أو يصور أحداثا بعينها ،

---

(١) انظر هنا ما كتبه طه حسين فى حديث الاربعاء ١/ ٣٠ وما بعدها عن قصيدة لبيد ، وينظر الشعر الجاهلى ـ سلسلة الروائع لفؤاد افرام البستاني ص٣٠ ـ ٣٢ والشعر الجاهلى للنويهى ص٤٣٥ وما بعدها، ص ٣٠ ـ ٣٢ ، ولعبد الجبار المطلبي بحث في مجلة كلية الآداب بغداد نيسان ١٩٦٤ بعنوان : في الشعر العربي القديم ونقده .

(٢) حديث الاربعاء ص ٣٠ ، وقد أسماها النويهى ـ الشعر الجاهلى ٢/ ٤٣٥ : الوحدة الحيوية ، وأسماها البستانى ـ الروائع الشعر الجاهلى ص ٣٠ : الوحدة الشعورية •

وتتحقق فى كثير من القصائد القصار ، وقصائد الغزل وقصائد الرثا واستطيع أن اسمى بعض هـــذه القصائد ، فمن ذلك قصيـــدة المرقش الاكبر التى مطلعهـا : (٣)

سرى ليلاً خيالٌ من سُلَيمى

فارقَّني وأصحـــابِي هجودُ

وقصيدة طرفة بن العبد : (٤)

أتعرف رسمَ الدارِ قفرا منازُله

كجفنِ اليماني زخرفَ الوشى ماثِلُه

وقصيدة تأبط شرا : (٥)

ان بالشّعْبِ الذي دون سَلَعْ

لقتيلا دَمُـــه مـــا يُطَلْ

وقصيدة عروة بن الورد : (٦)

---

(٣) المفضليات ص ٢٢٣ ٠
(٤) ديوانه ص ١١٤ ٠
(٥) شرح الحماسة ـ المرزوقى ٨٢٧/١ ٠
(٦) ديوانه ص ١٠٧ ٠

أرى أمَّ حسَّانَ الغداةَ تلومُني

تخوّفُني الأعداءَ والنفسُ أخوفُ

بل ان أكثر شعر الصعاليك تتوفر فيه الوحدة الموضوعية (٧) ، وليس هذا لان شعر الصعاليك مقطوعات ولكن حتى القصائد الطويلة تجدها مترابطة متلازمة تتداعى أفكارها ، وان شئت فاقرأ رائية عروة بن الورد التى يستهلها بقولـــه : (٨)

أقلِّي عليَّ اللومَ يابنتَ منذرٍ

ونامي وان لم تشتهي النومَ فاسهري

فستجد فيها وحدة متناسقة وترابطا بين أبياتها وتلازما فى معانيها بحيث لا تستطيع ان تستغنى عن بيت فيها فى موضعه الذى حدده الشاعر .

وقد تحدث الدكتور طه حسين (١) عن الوحدة المعنوية فـى القصيدة الطويلة وقال : انها وحدة متقنة متمة اتماما لا شك فيه ولا غبار عليه ، وقال ان أجزاء القصيدة جاءت ملتئمة الاجزاء قد نسقت أحسن تنسيق وأجمله وأشده ملائمة للموسيقى ، وعزا الخلل والتفكك والانقطاع فى بعض القصائـــد الى قصور ذاكرة الرواة ، وما أحدثت من الاضاعة والخلط والاضطراب .

---

(٧) ينظر الشعراء الصعاليك ص ٢٦٢ ــ ٢٦٣ .
(٨) ديوانه ص ٦٦ .
(١) حديث الاربعاء ١/٣٠ .

وتناول معلقة لبيد فحللها وقال : انها بناء متقن محكم لا تستطيع ان تقدم فيه وتؤخر أو تضع بيتاً مكان بيت دون أن تفسد القصيدة وتشوه جمالها ، ودون أن تفسد البناء كله وتنقضه نقضا .

ان محاولة الدكتور طه حسين كانت منصبة على ابراز الترابط العضوى فى الموضوع الواحد من القصيدة ، وهى حقيقة قائمة فى معلقة لبيد وفى كثير من القصائد الطوال ، ولكن ليس معنى هذا ان هناك ترابطا عضويا فى اجزاء القصيدة الواحدة ، ولو انه لاحظ الانتقال او التخلص من موضوع الى آخر فيه يسر وعفوية وبراعة •

ان التئام اجزاء القصيدة لا يعنى الوحدة الموضوعية او العضوية ، ان الوحدة تتحقق فى كل جزء من اجزاء القصيدة لدى لبيد او غير لبيد من شعراء الجاهلية المجيدين ، فاذا اعتبرنا كل قسم من أقسام القصيدة وحدة مستقلة ، نستطيع ان نلتمس الوحدة الموضوعية فى هذاالجزء او ذاك •

وأقسام القصيدة هذه ، هل كانت تأتى عفوية وعلى غير نظام ، ام ان الشاعر كان يلمح فيها نظاما ، او يريد ترابطا فى موضوعاتها ومعانيها لعل طبيعة الحياة هى التى أوجبت ذلك التسلسل فى الموضوعات وجعلت بينها تداعيا فى المعانى وتلازما فى الافكار ، وقد مر بنا رأى ابن قتيبة فى توافق الموضوعات وتنظيمها وتعليل ذلك ، حين تحدث عن الشاعر الاول (مقصد القصيد) (٢) • وقد صار اسلوب الاوائل فى نظام القصيدة تقليدا فنيا ، وهو ـ فى حقيقة الامر ـ ليس بعيدا عن واقع الحياة فى البادية العربية ، فحياة البادية نقلة وأسفار ، فالشاعر يمر فى أسفاره وغزواته أو رحلة صيده ، على

---

(٢) الشعر والشعراء ١/٧٤ ـ ٧٥ •

ديار الاحبة وقد ظعنوا ، فتهيج هذه الديار مشاعره ويتذكر صلاته بأهلهـا ، وقد تكون له فيها ذكريات طفولة وصبا ، وقد تكون ايام حب وهوى ، فيتغزل بحبيبته ويذكر أيامه واياهـا ، ثم يصف وداعها حين سارت الظعائن وبعـدت الحمول ، فيتابعها ببصره ، فاذا غابت فى لجج السراب تابعها بذهنه وخيالـه ، فيذكر المواضع التى مرت بها أو حلت فيها ، ثم يصحو من هذه الذكريـات فيركب ناقته ويعاود رحلته فى هذه البادية المقفرة الموحشة التى ليس فيها مـا يؤنس وحدته ويطرد عنه الوحشة غير ناقة جسرة عيرانة ، فيأخذ فى وصفها والثناء عليهـا ، ويذكر صفاتها من الصبر والقوة والجرأة والسرعـة ، ويقرب هذه الصفات بتشبيهها بحيوانات الصحراء ، فيتوهم لهذه الحيوانات قصصا طريفا يجد فيه تعبيرا عن خوالج صدره وتنفيسا عن همومه ، فيقص ويصف ما تقع عليه عينه او ما يحيط به خياله ، وهو بذلك يرضى نزعتين من نوازع نفسه ، يخفف همومه ويطرد مخاوف الوحدة من ناحية ، ويرضى نزعته الفنية بتحبير قصيدة او جزء من قصيدة من ناحية ثانية .

وهذه الرحلة فيها مصاعب ومتاعب يحرص على تسجيلها ، فيذكر صبره وحسن بلائه وبعد همته وقوة عزيمته ، ويدعوه هذا الى الفخر بنفسه وذكر أمجاده وخصاله ، ثم يدعوه واجبه القبلى ان يذكر قومه ويشيـد بفعالهم ويتغنى بأمجادهم ، وهو فى اثناء ذلك يتأمل فى الحياة ومصير الماضين ، فيسوق الحكم والامثال والمواعظ .

وهكذا نجد الصلة وثيقة بين موضوعات القصيدة الواحدة ، فكل جزء فيها يذكر بجزء بعده ويستجيب لجزء قبله ، فاذا المعانى موصولة يأخذ بعضها برقاب بعض ، لان الافكار متداعية ، هذا إذا أحسن الشاعر التخلص والربط بين الموضوعات ولائم بين الاجزاء ، ولم يكن فى القصيدة قطع أو بتر او خلل واضطراب ، والشاعر الجيد هو الذى يحسن وصل فكرة بأخرى بحيث تبدو امتدادا لهـا .

لغة الشعر الجاهلي :

لكل كلمة جرس نغمى تؤديها الحروف المنطوقة ، ولا شك ان بعض القبائل كانت تختلف عن الاخرى فى طريقة أداء اللفظ ونبر الكلمة من حيث نطق الحروف ، كالشدة ، والتفخيم ، والامالة ، والاخفاء ، والاظهار، والسرعة والتأنى ، وغير ذلك • وهذا ـ لا شك ـ لا يؤثر على المعنى ، لان طريقة الاداء لا تغير من معنى الكلمة ، كما ان هذه الحالة لا تنقل فى الشعر، اذ ان كل راو يروى الشعر بنطقه هو فلا يترتب على ذلك خلل فى الوزن او تغير فى المعنى ، ولذلك فاللهجات التى يتحدث عنها اللغويون بين القبائل وبخاصة بين عرب الشمال وعرب الجنوب لا تظهر فى الشعر ولا تنقل فى الرواية •

وهناك خلاف يظهر فى النطق وفى رسم الكلمة ، كالقلب الذى يحصل بين الهاء والهمزة فعرب الشمال يقلبون الهاء همزة في مثل : هراق وأراق ، وهيا وأيا • وخلاف آخر فى معنى الكلمات المستعملة بين الشماليين والجنوبيين فى مثل كلمة (بعل) التى تعنى صاحب عند الجنوبيين ، وزوج عند الشماليين ، وكلمة (وقه) التى تعنى أجاب عند الجنوبيين وأطاع عند الشماليين ، والملاحظ ان هناك علاقة قريبة بين المعنيين •

ويرى علماء الساميات أن هذه اللغات كانت متقاربة فى أول أمرها، وكان العرب يفهمون اللغات السامية المجاورة ويتفاهمون مع أهلها ، واذا كان الامر

كذلك فمن الطبيعي أن يفهم العرب اللهجات التي كانت سائـــدة فى الجزيرة قبل أن يوحدها القرآن الكريم وخاصة بين القبائل العدنانية والقبائل القحطانية، ويعلل جرجي زيدان نشاط العرب التجاري ونجاحهم فيه بمعرفتهم بلهجات القبائل ولغات الامم المجاورة ، يقول : « وقد ساعد العرب على التـوسع في وسائل التجارة فضلا عن توسط بلادهم ، أنهم كانوا يتكلمون لغة قريبة من لغات أكثر الامم المتمدنة في ذلك الحين ، لان اللغات السامية كانت يومئذ لا تزال متقاربة لفظا ومعنى ، فالعربي والكلداني والاشوري والعبراني والحبشي والفنيقي كانوا يتفاهمون بلا واسطة لقرب عهد تلك اللغات من التشعب ، بما يشبه حال اللغات العامية العربية اليوم من اللغة الفصحى ، فكان العربي مـن حمير او مضر اذا جاء العراق لا يحتاج في مخاطبـــة الكلداني او البابلي او الاشوري الى ترجمان ، وكذلك ذا يمم فينيقية أو الحبشة فانه يفهم لسان أهليها كما يفهم الشامي لسان أهل مصر اليوم ، ويؤيد ذلك ما جاء في التوراة عـن ابراهيم الخليل ، فانه تزوج من بلاد الكلدان في نحو القرن العشرين قبـل الميلاد ، فاجتاز سوريا وفينيقية وبـــلاد العرب وخالط اهلها ولـم يفتقر في مخاطبتهم الى مترجم » (١) .

ونعود نسأل ، أين الخلاف بين اللهجات في الشعر الجاهلي ؟ ان أقدم ما وصلنا من الشعر الجاهلي لا يتجاوز القرنين قبل الاسلام ، وكانت لغة الشمال قد استأثرت بالالسن ، واصبحت اللغة الادبية التي ينظم بها الشعر وتلقى بها الخطب ، وكان ذلك بفضل الاسواق التي تقام في الحجاز ، ثم مكانة مكة الدينية والاقتصادية ، يضاف الى ذلك ان لغة اليمن كانت قد بدأت بالتنحي وصارت تبتعد عن لغة النقوش الحميرية القديمة ، وعلى هذا فلغة امرىء القيس واضرابه من اليمنيين كانت غير لغة اليمن التي حفظتها النقوش قبل امرىء القيس بمئات

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ١/١٠ .

السنين ، وكان من اسباب ذلك ايضا، مجاورة العربية الشمالية لليمنية القديمة، والاحتكاك الذى يحصل بين اللهجتين وغلبة اللهجة الارقى أدبا والاغزر مفردات والايسر أداء ، فكان ان سادت لغة الشمال فى اواخر العصر الجاهلى لنفوذ أهلها التجارى والسياسى والثقافى والدينى ، ويبدو ان كل الظروف كانت ملائمة لغلبة لغة الشمال على لغة الجنوب .

وقد حفظ الشعر الجاهلى جانبا من اللهجات التى نقلها الرواة عن الاعراب ، ولم يكن علماء اللغة ليصرفوا همهم الى العناية باللهجات واختلافها الا فيما يحتاجون اليه للشاهد والتدليل على قاعدة او معنى ، وهذا جانب قليل نادر ، من ذلك أبيات خنافر الحميرى التى رواها ابو على القالى ، وفيها الفاظ يمنية يختلف مدلولها عن الالفاظ الشمالية ، قال :

ألم تر ان الله عاد بفضله

فأنقذ من لفح الزخيخ خنافرا

وكشف لي عن جحمتيّ عماهما

وأوضح لي نهجي وقد كان داثرا

دعاني شصار للتي لو رفضتها

لأصليت جمراً من لظى الهوب واهرا

وقال : الزخيخ معناها النار ، وفسر الجحمتين بالعينين ، والهوب بالنار ،

والواهر بالساكن مع شدة الحر ، وهذه كلمات يمنية(١) .

وتستعمل طيء (ذو) اسما موصولا عاما ، ويستشهدون لذلك بقول سنان الفحل الطائى : (٢)

فإن الماء مـــاء أبي وجـــدي

وبئري ذو حفرت وذو طويت

ويستعمل أهل الجنوب (أم) أداة للتعريف مكان (أل) ، يقول بجير ابن عنمة الطائى :

وان مولاي ذو يعـــيرني

لا احنة عنده ولا جرمه

ينصرني منك غير معتذر

يرمي ورائي بامسهم وامسلمه

يريد بالسهم والسلمة (٣) .

وتستعمل هذيل (متى) بمعنى (من) وتجر بهـا من ذلك قول أبى

(١) الأمالى ١/١٣٣ .
(٢) شرح الحماسة ـ المرزوقى ٢/٥٩١ .
(٣) المؤتلف والمختلف ص ٧٥ .

ذؤيب الهذلي : (٤)

شربن بماء البحر ثم ترفعت

متى لجج خضر لهن نئيجُ

وقد يستبدلون حرفا مكان حرف كقولهم (أنطى) بمعنى (أعطى) قال الاعشى : (٥)

جيادك في الصيف في نعمة

تصان الجلال و تُنطي الشعيرا

او تستبدل السين تاء كما في قولـه :

يا قبَّـــح اللهُ بني السعلاةِ

عمرو بن يربوع شرار الناتِ

ليسوا اعفّاء ولا أكياتِ

يريد : شرار الناس ، ولا أكياس (٦) .

---

(٤) ديوان الهذليين ١/٥٢ .
(٥) الأمالي ٢/٦٧ وانظر ديوانه ص ٧١ .
(٦) الأمالي ٢/٦٧ .

وقد يغيرون بعض الكلمات المجرورة ياء ، كقول النمر بن تولب يصف عقــابـا :

لها أسارير من لحم تتمّره

من الثعالي ووخز من أرانيها

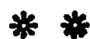
يريد بالثعالى : الثعالب ، والاراني : الارانب (٧)٠

واذا احصينا هذه الشواهد التى تنم عن اختلاف اللهجات نجدها قليلـة معـدودة ٠

اما صورة الشعر الجاهلى الذى قاله الجنوبيون والشماليون ، فقد جـاء بلغة سليمة موحدة فيها قوة وجزالة ، عبارته متينة وألفاظه رصينة ، والشعر الجاهلى بعامة يبدو ـ لاول وهلة ـ صعبا غريبا مغرقا فى البداوة ، وخاصة فى الموضوعات التى يتعرض فيها لوصف الصحراء او حيوانها ، وليس مرد هذه الصعوبة الى المعانى والاخيلة ، بل مرجعها الى اللغـة التى يكثر فيهـا الغريب وتشيع فيها ألفاظ البادية وأسماء مواضعها وصفات حيوانهـا ٠ ولا ننسى أن اكثرية الشعراء الجاهليين كانوا من البادية ، وحتى الذين سكنوا الحاضرة كانت حياتهم أقرب الى البداوة ، أو هم على صلة دائمة بالبادية ، فهــم يصوغون شعرهم فى لغة بدوية ويصفون بيئات صحراوية وفى هذه البيئات يكثر الغريب والوحشي والنادر ٠ على ان اللغة ـ لغة الشعر الجاهلى ، كلما تأخر زمنهــا زادت صقلا واتقانا ، ورسخت على أسس سليمة ونزر فيها الشاذ والمخطؤ ٠

(٧) تاريخ آداب العرب ـ الرافعى ١/٥٥ ٠

ومن المعلوم ان هناك صلة وثيقة بين الموضوع الذى يتناوله الشاعر وبين اللغة ، فموضوعات الوصف التى تتحدث عن بيئات البادية ومشاهدها ، يكثر فيها الوحشى والغريب ، ويعبر الشاعر عن مناظر الصحراء بأسلوب قوى متين يختار الالفاظ الجزلة التى تقـــوم بتأدية المعانى الشديدة التـــى تمثلها قسوة الصحراء وخشونة عيشها ، وبخاصة فى موضوعات الحماسة والفخر والوصف، أما فى الموضوعات العاطفية ، فالشاعر يرق ويتخير الفاظا عذبة هادئـة سلسة سهلة ، تعبر عن الحب والحنان والعطف والرقة .



الفصل الثالث

فنون الشعر الجاهلي



الغزل

أهم الفنون وأبرز الموضوعات وأعلقها بالقلب وأقربها الى طبيعة الانسان هو فن الغزل ، وقد لقى الغزل عناية كبيرة من الشعراء ، سجلوا فيه عواطفهم وخواطرهم ، تناولوا المرأة فذكروا محاسنها وصفاتها وسحرها ، وما يفعل فيهم من الشوق والحنين ، ولم يحفل العرب بشىء احتفالهم بالغزل ، سواء أكان صادرا عن القلب تفرد له القصائد وتحبر له الاشعـــار أم كان تقليدا مستحبا تفتتح به المطولات ويستراح اليه بعد رحلة الشعر ، فيوصل به الحديث ويعقد عليه الحوار .

وترد ـ فى هذا المجال ـ كلمتان مع الغزل ، هما النسيب والتشبيب ، وكلها مستعملة فى الموضوع نفسه ، فهل لكل منهما مدلول معين ، أو انها استعمالات لمدلول واحد ؟

ان بعض كتب اللغة تجعل هذه الكلمات بمعنى واحد ، يقول ابن سيدة : « ان الغزل تحديث الفتيان الجوارى ، والتغزل تكلف ذلك ، والنسيب التغزل بهن فى الشعر ، والتشبيب مثله » (١) ، وفى اللسان : « والغزل حديث الفتيان الفتيات ، واللهو مع النساء ومغازلتهن : محادثتهن ومراودتهن والتغزل : التكلف لذلك ، وفى المثل : هو أغزل من امرىء القيس » (٢) . ويقول فى

(١) المخصص ٤/٥٤ ـ ٥٥ .
(٢) اللسان : (غزل) .

النسيب : « نسب بالنساء ينسب نسبا ونسيبا ومنسبة : شبب بهن فى الشعر وتغزل » (٣) • أما فى التشبيب فيقول : « شبب بالمرأة : قال فيها الغـزل والنسيب ، وهو يشبب بها أى ينسب بها » (٤) وكذلك يذهب صاحب تاج العروس ويذكر أن هناك من يفرق بين هذه الكلمات (٥) •

وحاول بعض القدامى أن يعطى كل كلمة مدلولا مختلفا ، فقـال السريرى : « النسيب ذكر الشاعر المرأة بالحسن والاخبار عن تصرف هواها به ، وليس هو الغزل ، وانما الغزل : الاشتهار بمودات النساء والصبـوة اليهن ، والنسيب : ذكر ذلك والخبر عنه » (٦) • أما قدامة بن جعفر فهو على طريقة أهل المنطق يحب التحديد والتقنين يقول : « ان النسيب ذكر خلق النساء وأخلاقهن وتصرف أحوال الهوى به معهن ، وقد يذهب على قوم أيضا موضع الفرق بين النسيب والغزل ، والفرق بينهما أن الغزل هو المعنى الذى اذا اعتقده الانسان فى الصبوة الى النساء نسب بهم من اجله فكأن النسيب ذكر الغزل ، والغزل المعنى نفسه ، والغـزل انما هو التصابى والاستهتار بمودات النساء » (٧) فعنده أن الغزل معنى وان النسيب التعبير عن هذا المعنى أى عن الغزل • والذى نخرج به من آراء اللغويين ، أن النسيب هو بمعنى التشبيب وأن الغزل هو التحدث الى النساء •

وترد الكلمات الثلاث فى كتب الادب والنقد مترادفة ، يقـول ابـن رشيق : « والنسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد ، وأما الغزل فهو

---

(٣) اللسان : (نسب) •
(٤) اللسان : (شبب) •
(٥) التاج : (شبب ، نسب ، غزل) •
(٦) شرح ديوان الحماسة ١١٢/٣ •
(٧) نقد الشعر ص ٦٥ ط بريل ص ١٢٣ ط مصر •

الف النساء والتخلق بما يوافقهن » (٨) وقد استعمل كثير من الكتاب والنقاد القدامى الكلمات الثلاث بمعنى واحد ولم يفرقوا بينها تفرقة دقيقة (٩) •

ومهما يكن من شيء فلا فائدة ترجى من التفريق بين الكلمات الثلاث ، والاولى اعتبارها من المترادف ، وأخف الكلمات وأكثرها شيوعا واستعمالا هى الغزل فعليها المعول :

والغزل لغة العاطفة ، صوروا فيه أشواقهم واحساساتهم نحو المرأة وما يلقون منها من وصال أو هجر ، من وعد واخلاف ودل وغنج ، صوروا فيه سعادتهم وشقاءهم آمالهم وآلامهم ، واستطاع الشعراء أن يرضوا نزعاتهم الفنية بتحبير القصائد الرائعة التى تصور حبهم وتسجل وقائع هواهم • ولذلك كان الغزل الفن الكبير الذى اعتنوا به وصرفوا اليه أكثر شعرهم ، فشاع بينهم ودارت عليه قصائدهم ، خصصوا له قصار القصائد وطوالها وشارك الموضوعات الباقيــة •

وكان من شغفهم بالغزل أن جعلوه أول موضوع يبتدئون به القصائد الطوال ، سواء أكانوا يذكرون الغزل مباشرة ، أم يذكرون الديار ـ ديار الحبيبة ـ لتنقلهم الى ذكرها والتغزل بها وسرد ذكرياتهم واياها • وقد لاحظ القدامى هذه الظاهرة فقال ابن قتيبة : « وسمعت بعض أهل الادب يذكر أن مقصد القصيد انما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والاثار فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها » (١) •

(٨) العمدة ٢/١١٧ •
(٩) ينظر تفصيل ذلك فى الغزل فى العصر الجاهلى ص ٦ ـ ١٠ •
(١) الشعر والشعراء ص ٧٤ •

ثم يذكر ابن قتيبة أن غرض الشاعر من ذلك أن يميل اليه القلوب والاسماع لان الغزل أقرب الفنون الى النفوس وأعلقها بالافئدة : « لان التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل والف النساء ، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقا منه بسبب وضاربا فيه بسهم حلال أو حرام » (٢) .

وابن قتيبة يجعل الغزل سببا فى استمالة نفوس الناس واصغائهم ، وهذا جانب منه ، وهناك جوانب أخرى تتعلق بعاطفة الحب وبالصنعة الفنية ، وأريد بالصنعة الفنية : أن الشاعر يشحذ قريحته بذكر الغزل ويستنزل معانيه بأن يعيش فى جو عاطفى يهيء نفسه ويستثير انفعالاته ، روى ابن رشيق : « ان ذا الرمة سئل : كيف تفعل اذا انقفل دونك الشعر ؟ فقال : وكيف ينقفل الشعر دونى وعندى مفاتيحه ، قيل له : وعنه سألناك ما هو ؟ قال : الخلوة بذكر الاحباب » ويعلق ابن رشيق بقوله : « فهذا لانه عاشق ولعمرى انه اذا انفتح للشاعر نسيب القصيدة فقد ولج من الباب ووضع رجله فى الركاب » (٣) .

والمرأة هى موضوع الغزل ، وقد تناول الشاعر جمالها ، وأول ما لفت نظره جمال وجهها وجمال أعضائها ، ووصف الجمال الجسدى هو الامر العام الطاغى على الغزل ، أما وصف المحاسن الخلقية والنفسية وتصوير عواطف المرأة وحكاية الحب بين الرجل والمرأة ، فيأتى كل ذلك بالمرتبة المتأخرة من وصف الاعضاء ، ان الشاعر يقف أولا عند الصورة الخارجية للمرأة ، الصورة التى تحرك فيه عواطف الجنس وعواطف الحب والجمال .

---

(٢) المصدر السابق ص ٧٥ .
(٣) العمدة ٢٠٦/١ .

لقد تعارف الجاهليون ـ ومن جاء بعدهم ـ على مقاييس فى الجمال أحبوها فى المرْأة وصورها أكثر من شاعر ، وأجملها ـ ممن أجملها ـ امرؤ القيس فى معلقته ، فهو يقص حكايته معها بعد أن فاجأها وهى تنضو ثيابها للنوم ، ثم خرج بها الى منعقد الرمل فى بطن خبت ، وصار يغازلها ويصف مفاتنها بقوله : (١)

اذا قلتُ هاتي نَوّليني تمايلتْ
عليَّ هضيمَ الكَشْحِ رَيَّا المخلخَلِ
مهفهفةٌ بيضاءُ غيرُ مُفاَضةٍ
ترائبُها مصقولةٌ كالسَّجنجَلِ
كبِكْرِ مُقَاناةِ البياض بصُفْرةٍ
غذاها نَميرُ الماء غيرَ المحلَّلِ
تَصُدُّ وتُبدي عن أسيلٍ وتتَّقِي
بناظرةٍ من وحش وجرةَ مُطْفِلِ
وجيدٍ كجيد الرئم ليس بفاحش
اذا هي نصَّته ولا بمعطَّلِ

---

(١) ديوان امرىء القيس ص ١٥ ـ ١٨ .

وفرع يُغَشّي المتنَ أسودَ فاحمٍ

أثيثٍ كقِنو النَّخْلة المتعثكِلِ

غدائرُه مستشزَرات الى العُلا

تضلُّ المدارَى في مُثَنًّى ومُرْسَل

وكشحٍ لطيفٍ كالجديل مخَصَّرٍ

وساق كأنبُوب السَّقِيِّ المذَلَّلِ

وتعطو برَخْصٍ غير شثنٍ كأنه

أساريعُ ظبيٍ أو مساويكُ إسْحَلِ

تضيء الظلامَ بالعِشاء كأنها

منارةُ مُمسى راهبٍ متبتِّلِ

وتُضحي فتيتَ المِسك فوق فراشِها

نئومُ الضحا لم تَنْتَطِقْ عن تفَضُّلِ

الى مثلها يرنو الحليمُ صَبابةً

اذا ما اسبكرَّتْ بين دِرْعٍ ومِجْولِ

لقد وصف امرؤ القيس كل ما شاهد من حبيبته أو لمس ، فهى لطيفة الكشح مملوءة الساقين ضامرة البطن ، بيضاء صافية اللون ، صدرها صقيل متلألئ كالمرآة الصافية ، أسيلة الخدين ، واسعة العينين ، طويلة العنق قد زينته بالحلى ، شعرها طويل مسترسل على ظهرها أسود فاحم مجعد ، قد عقصت جدائل منه فوق رأسها ، فهو كثير منه المعقوص ومنه المرسل ، وخصرها لطيف وساقها رائق صاف كأنبوب البردى ، وهى مترفة مخدومة تنام الضحى طيبة الرائحة ، وترفها هذا جعلها ناعمة الاصابع رقيقة البنان ، أما وجهها فصبيح وضاء يغلب نوره ظلام الليل ، وهى طويلة القد مديدة القامة لم تدرك الحلم وان جاوزت سن الجوارى الصغار .

وعلى الرغم من جرأة امرىء القيس وما عرف عنه من الاوصاف الحسية فى تصوير جسم المرأة والمجاهرة بالخلوات المريبة ، فان عمرو بن كلثوم كان أكثر تكشفا وصراحة حين وصف حبيبته وقد كشفت عن مفاتن جسمها ، فهو يصورها وقد تعرت على خلاء وأمنت عيون الناس ، ويصف أعضاءها وصف من قد رأى : (٢)

تُريك إذا دخلتَ على خَلاءٍ

وقد أَمِنَتْ عيونَ الكاشحينا

ذراعَيْ عَيْطَلٍ أدماءَ بِكْرٍ

هِجانِ اللون لم تَقْرَأْ جنينا

(٢) شرح المعلقات السبع ـ الزوزنى ص ١٢٠ ـ ١٢١ .

وثدياً مثلَ حُقِّ العاج رَخْصا

حَصاناً من أكُفِّ اللامسينا

ومتنَيْ لدنةٍ سمقتْ وطالت

روادِفُها تنوءُ بما وَلِينَا

ومأكمةً يضيقُ البابُ عنها

وكشحاً قد جُنِنتُ به جنونا

وساريتي بِلَنْطٍ أو رُخَامٍ

يَرِنُّ خِشاشُ حَلْيِهما رنينا

فقد رأى الشاعر منها ذراعين ممتلئتين كذراعى ناقة بكر ، طويلة العنق سمينه بيضاء لم تحمل ولم تلد ، وثديا مثل حق العاج أبيض مستديرا مصونا لم يمسه أحد ، ومتنى قامة طويلة لينة ، وأردافا مكتنزة ثقيلة ، ووركا عظيما ممتلئا ، وكشحا جميلا جن من حسنه ، وساقين كاسطوانتين من عاج أو رخام أبيض فيهما الخلاخيل لها خشخشة ورنين .

وهذا الوصف الدقيق لاعضاء المرأة يتداوله كثرة الشعراء الجاهليين ، لم يخرجوا على هذه المقاييس فى وصف المحاسن ، وان اختلفوا فى كيفية عرض الصورة المحسوسة من الجسم ، وقد تكررت هذه الاوصاف عند النابغة والاعشى والمرقش الاكبر وغيرهم .

والملاحظ أن الشاعر الجاهلى صريح فى أوصافه وحديثه عن المرأة ، وفى عرضه لمفاتنها الجسمية ، بل يفتن فى وصف الاعضاء المستورة كالنحر والثدى والروادف والساقين والبطن والكشح وغيرها ، ولا يجدون فى ذلك حرجا ، ولعل لطبيعة حياتهم البسيطة الصريحة الواضحة التى لا تعرف المواربة والتغطية والحياء الكاذب المصنوع ، لعل لكل ذلك أثرا فى هذا الاقبال على الغزل الحسى الصريح فالشاعر ـ والسامع ـ يجد فى عرض هذه المفاتن لذة ومتنفسا لعواطفه وغرائزه ٠

وحقا كان الاهتمام منصرفا الى المحاسن الجسمية وهو الطابع العام الشائع فى الشعر العربى عامة والشعر الجاهلى خاصة ، الا أنهم لم ينسوا الجوانب الخلقية والنفسية ، فقد ذكروا المرأة بالحياء والعفة والتمنع ، وان لم يطيلوا فى ذلك ، ووردت هذه الصفات ضمن الاوصاف الجسدية ، من ذلك ان الاعشى يصف صاحبته هريرة ذاكرا وجهها وفمها ومشيتها وحلاها وطيب نشرها ويشبه ذلك بطيب الزنبق ويقارن بين رائحتها الطيبة ورائحة الروض الذى جاده الغيث ، ويذكر ضمن كل ذلك أخلاقها : فهى حبيبة الى الجيران كما هى حبيبة الى نفسه ، وهى عفيفة كتوم للسر لا تفضح اسرار جيرانها ولا تلوك سيرتهم : (١)

ليست كمن يكره الجيرانُ طلعتَها
ولا تراها لسرِّ الجارِ تختَتِلُ

والاعشى وان لم يقف عند المحاسن الجسدية بل فصل فى نشرها اللذيذ ،

---

(١) ديوان الأعشى ص ٤٢ ٠

فانه لم يقف أيضا عند محاسنها الخلقية وقفة متأنية ، وأحسن من وقف عند صفات حبيبته ووصف عفتها وأخلاقها وحياءها ، الشنفرى الازدى في قصيدته التى أولها : (٢)

ألا أمُّ عمرو أجمعت فاستقلتِ

وما ودَّعتْ جيرانها اذ تولَّتِ

يقــول :

لقد أعجبتني لا سُقوطاً قِناعُها

اذا ما مشَتْ ولا بذاتِ تَلفُّتِ

تبيت بُعَيْدَ النوم تُهدي غَبوقَها

لجارتها اذا الهديةُ قَلَّتِ

تَحُلُّ بمنجاةٍ من اللوم بيتَها

اذا ما بيوتٌ بالمذَمَّةِ حُلَّتِ

كأن لها في الأرض نِسْياً تَقُصُّه

على أمها وان تكلِّمْكَ تَبْلَتِ

(٢) المفضليات ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

أميمةُ لا يُخزِي نَثَاها حليلَها
اذا ذُكِرَ النِّسوانُ عفَّتْ وَجلَّتِ

اذا هو أمسى آبَ قُرَّةَ عينهِ
مآبَ السعيدِ لم يَسَلْ أين ظَلَّتِ

فدقَّتْ وجلَّتْ واسبكرَّتْ وأكمِلَتْ
فلو جُنَّ انسانٌ من الحُسْنِ جُنَّتِ

فهى حيية خجول ذات جمال وأدب ، كريمة تهدى لجيرانها وتبرهم وتحفظ مودتهم ، وهى شريفة عزيزة عفيفة بعيدة عن الريب ، اذا سارت لا تتلفت بل تنظر أمامها كأنها تبحث عن شيء ضيعته فهى تقصده ، وهى الى عفة نفسها عفيفة اللسان طيبة السمعة ، اذا ذكرها الناس حمدوها ، وهى زوجة صالحة تسر زوجها وتحسن معاشرته ، ولذلك فزوجها يعود اليها تائقا مشتاقا ، يلقاها قرير العين لم تبرح بيتها فى غيابه ، وهى الى كل ذلك جميلة تكاد تجن من حسنها لو جن أحد من الحسن قبلها .

وهناك طائفة أخرى من الشعراء لم تصرف همها الى وصف محاسن المرأة وأعضائها ، ولم تتغن بفضائلها وأخلاقها ، ولكن راحت تصور ما يلقاه العاشق المحب من شوق ووجد وهيام ، وما يعانيه من ألم الفراق ولوعة البعاد ، وكيف يسهر الليل ويرقب النجوم ، يتغنى بخيالها ويمنى النفس بزورة من طيفها ، وهو سهر متأمل فى طول الليل وثبات النجوم ، أرق مضطرب لما يلقاه

من حب عنيف يكاد يخبل العقل ، وتقف قصيدة سويد بن أبى كاهل فى طليعة هذا الضرب من الغزل الذى يصور ما يعانيه الشاعر من وجد واشتياق : (١)

بسطت رابعةُ الحبل لنا

فوصلنا الحبلَ منها ما اتَّسَعْ

هيَّجَ الشوقَ خيالٌ زائرٌ

من حبيب خَفِرٍ فيه قَدَعْ

شاحط جازَ الى أرْحلِنا

عُصَبَ الغاب طُروقا لم يُرَعْ

آنِس كان اذا ما اعتادَني

حال دونَ النوم منّى فامتنعْ

وكذاك الحبُّ ما أشجعَه

يركب الهولَ ويَعصِي من وَزَعْ

فأَبيتُ الليلَ ما أرقدهُ

وبعينيَّ إذا نجمٌ طلعْ

(١) المفضليات ص ١٩١ ـ ١٩٢ .

وإذا ما قلت ليلٌ قد مضى

عطفَ الأولُ منه فرجعْ

يسحب الليلُ نجوما ظُلَّعاً

فَتواليها بطيئاتُ التَّبَعْ

ويُزَجيها على إبطائها

مُغْرَبُ اللونِ اذا اللونُ انقشعْ

فدعاني حُبُّ سلمى بعدما

ذهب الجِدَةُ مني والرَّيَعْ

خبلتني ثم لمّا تشفِني

ففؤادي كلَّ أوبٍ ما اجتمعْ

ودعتني بُرِقَاها إنها

تُنزل الأعصم من رأس اليَفَعْ

تُسْمِعُ الحُدَّاثَ قولاً حَسَنا

لو أرادو غيرَهُ لم يُستمعْ

وتعد هذه القصيدة من عيون الشعر العربى فى الغزل وتصوير العواطف والصدق فى المشاعر والاحساسات •

وراح فريق آخر من الشعراء يصورون قصص الحب وما يتساقاه الاحبة من كؤوس الحب والوصال وما يسقاه المحب من كؤوس الصد والهجر ، كل ذلك فى شعر صادق أصيل فيه عفة ونبل ، تصونه المثل العليا وتحوطه القيم الجاهلية فى المروءة والشرف ، ولدينا من قصص الحب الشىء الكثير ، ومن أبرز تلك القصص : قصة المرقش الاكبر مع بنت عمه أسماء بنت عوف (٢) ، والمرقش الاصغر مع حبيبته فاطمة بنت المنذر (٣) ، وقصة عبد الله بن علقمة العامرى مع حبيبته حبيش (٤) ، وقصة عبد الله بن العجلان النهدى مع هند (٥) ، وغير هؤلاء ممن تفيض بأخبارهم كتب الادب وأخبار العشاق والمحبين •

* *

---

(٢) الشعر والشعراء ١/ ٢١٠ والاغانى ٦/١٢٧ •
(٣) الشعر والشعراء ١/ ٢١٤ والاغانى ٦/١٣٦ •
(٤) الاغانى ٧/ ٢٨٠ •
(٥) الاغانى ١٩/١٠٢ وتزيين الاسواق ص ٨٠ •

الحماسة

الحماسة لغة : القوة والشدة والشجاعة (١) ، وقوم حمس متشددون في الدين ، وحمس غيره شجعه وحرضه ، والحماسة فن الحرب والقتال والشجاعة والتغنى بصفات البطولة والرجولة وركوب المخاطر وخوض غمرات القتال ، ووصف ما فى الحرب من كر وفر وعدد وسلاح ودماء وجرحى وقتلى ، ودعوة للحرب وأخذ بالثأر وما الى ذلك ، فهو بجملته فن البطولة .

وما دام هذا الضرب من الشعر يصور البطولة والمثل العليا للفروسية التى تقوم عليها حياة الصحراء كان لا بد لهذا الشعر أن يكون ـ مع الغزل ـ فى طليعة الفنون انتشارا ، وأقربها الى نفس البدوى خاصة والعربى عامة . ولذلك فليس غريبا أن يكون حظ المجاميع الشعرية من الحماسة هو الحظ الاوفر فكثير من شعر المفضليات والاصمعيات والوحشيات هو شعر حماسة ، بل غلبت على مختارات ابى تمام والبحترى فكانت الفن الاول الذى ابتدأ به ، وغلب

---

(١) والاحمس : الشجاع والشديد الصلب فى الدين والقتال ، وسميت قريش وكنانة حمسا لتشددهم فى دينهم فى الجاهلية . الصحاح واللسان (حمس) .

اسمها على الكتابين (٢) فسمى أبو تمام (ت ٢٣١ هـ) مختاراته (ديوان الحماسة) وكذلك فعل البحترى (٢٨٤ هـ) (٣) .

وشعر الحماسة ـ الى كثرته ـ من أصدق الاشعار وأقواها وأشدها أثرا فى النفوس ، ذلك لان الشعراء كانوا أنفسهم فرسانا يخوضون غمرات القتال فيعبرون عن واقع مشهود وتجارب نفسية صادقة ، وان لم يكن بعضها يخلو من المبالغة ومجاوزة الواقع .

والمعركة هى الميدان الفسيح الذى يستمد الشاعر منه معانيه الحربية ، فيعرض فى شعره صورا من أهوال القتال وما يكون فيه من كر وفر وجرحى

(٢) كان أبو تمام قد جمع في حماسته كل معاني البطولة والفروسية من وصف الحرب وما ينجم عنها وما يتفرع عنها من صفات خلقية كالنخوة والصبر على المصيبة والتجلد في المحن . أما البحتري فقد فصل في ذكر جزئيات من الحماسة ، فأبيات فيما قيل في الفتك وأخرى في مكاشفة الأعداء وترك التستر منهم وثالثة في حمل النفس على المكروه أو فيما قيل في التحريض على القتل بالثأر وهكذا فقد جزأ في أفكار الحماسة وموضوعاتها ، ولذلك جاءت حماسته في اربعة وسبعين ومائة باب ، بينما جعل أبو تمام حماسته في عشرة أبواب .

(٣) وتابعهما ابن الشجري (٥٤٢ هـ) فسمى كتابه حماسة ابن الشجري (طبع في الهند ١٣٤٥ هـ وطبع في دمشق ١٩٧٠ باسم : الحماسة الشجرية) وصدر الدين بن أبي الفرج البصري (٦٥٩ هـ) سمى كتابه : الحماسة البصرية (طبع في الهند) . وذكرت المصادر بعض الكتب التي سميت بالحماسة مما لم يصلنا أو وصل ولم يطبع بعد ، فمن ذلك : الحماسة لابن المرزبان محمد بن خلف (٣٠٩ هـ) والحماسة المحدثة لابن فارس (٣٧٩ هـ) والحماسة العسكرية لابي هلال العسكري (٣٩٥ هـ) وحماسة الأعلم الشنتمري (٤٧٦ هـ) وحماسة الشاطبي محمد بن يحيى (٥٤٧ هـ) والحماسة للشميم الحلي (٦٠١ هـ) والحماسة المغربية ليوسف بن محمد الأندلسي (٦٥٢ هـ) وحماسة الظرفاء لعبدالله بن محمد العبدلكاني وغيرها . انظر مقدمة الحماسة البصرية ص ٣ ـ ١٦ .

وقتلى وصياح وقتام ، وما يلتمع فيه من مغافر وتروس ودروع وسيوف ، وتكاد تسمع أصوات الرماح تتكسر على التروس ، والسهام وهم يتراشقون بها فتستقر فى الصدور والافئدة ، وهذا الحصين بن الحمام المرى يعرض جانبا من معركة خاضها وأبلى فيها وقومه عظيم البلاء ، يقول : (١)

ولمّا رأيت الوُدَّ ليس بنافعي

وان كان يوما ذا كواكب مظلما

صبرنا وكان الصبرُ فينا سجيةً

بأسيافنا يقطعن كفًّا ومِعْصَما

يُفَلِّقْنَ هاماً من رجالٍ أعزَّةٍ

علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما

وجوهُ عدوٍّ والصدورُ حديثةٌ

بِوُدٍّ فأودى كلُّ ودٍّ فأنعما

فليت أبا شِبْلٍ رأى كَرَّ خيلِنَا

وخيلِهمُ بين السِّتَارِ فأظلَمَا

(١) المفضليات ص ٦٥ .

نطاردُهم نستنقذ الجُـرْدَ كالقنا

ويستنقذون السَّمْهريَّ المُقَوَّما

عشِيَّةَ لا تُغنِي الرماحُ مكانَها

ولا النبلُ الا المشْرَفيَّ المُصَمِّمَا

لدنْ غدْوة حتى أتى الليلُ ما ترى

من الخيل الا خارجيًّا مُسَوِّمَا

وذهب الشعراء يباهون ببطولتهم ومضاء أسلحتهم ويتغنون بالمثل العليا التى جعلتهم فرسانا لا يهابون الموت ، فهم شجعان أبدا يقذفون أنفسهم فى المخاطر ويخوضون غمرات المنية ويأبون الذل ويأنفون من الصغار والجبن والهزيمة ، والنصر حليفهم فى المعارك ولذة النصر ونشوته جعلتهم يكثرون من ذكر المعارك التى أوقعوا فيها بأعدائهم وما كسبوا من مغانم ، أهمها سبى نساء أعدائهم .

وأقسى ما تلقاه القبيلة أن تسبى نساؤها ، ولذلك لا يسكت على السبى أو يترك نساءه بيد عدوه الا الضعيف الجبان ، فهم يفخرون حين يسبون نساء أعدائهم ويفخرون أيضا حين يستردون نساءهم اللاتى سباها الاعداء ، ولذلك يعاظم طفيل الغنوى بقوله : (٢)

---

(٢) ديوان طفيل الغنوى ص ٣٧ .

فنحن منعنا يومَ حَرْسٍ نساءكم

غداةَ دعانا عامرٌ غيرَ مُؤْتَلِي

رددنا السَّبايا من نُفيلٍ وجعفرٍ

وهن حُبالى من مُخِفٍّ ومُثقِلِ

وما دامت النساء عرضة السبى وهدف العدو المغير ، ولذلك كان الحفاظ عليهن غاية المحارب يستميت دونهن ويفديهن بروحه ، وقد كان المقاتلون يصطحبون نساءهم فى القتال ليزدن فى شجاعتهم ويحرضن على القتال ويمنعن الهارب الجبان ، يصف عمرو بن معد يكرب الزبيدى نساء قومه عند المعركة وهن خائفات مذعورات وبينهن حبيبته لميس ، ظهرت محاسنها فبدت كبدر التمام اذا ظهر ، وهو عندئذ لا يرى بدا من منازلة كبش القوم وفارسهم : (٣)

لما رأيت نساءَنا

يفحصن بالمعزاء شَدّاً

وبدت لميسُ كأنها

بدرُ السماء اذا تبدّى

(٣) ديوانه ص ٦٨ ـ ٦٩ .

وبدت محاسنُها التي

تخفي وكان الأمرُ جدًّا

نازلت كبشَهم ولم

أرَ من نِزال الكبش بُدًّا

وللمرأة فى هذه المعارك شعر تحرض فيه المقاتلين على القتال وتحث على طلب الثأر وتعير بالهزيمة وتحذر من قبول ديات القتلى ، فهذه كبشة أخت عمرو بن معد يكرب الزبيدى تحرض قومها على الثأر لاخيها عبد الله ، وكانت قد تخوفت أن يقبل أخوها عمرو الدية ، فصاغت هذه الابيات على لسان القتيل تعرض بعمرو وتقول لقومها انكم ان قبلتم الدية وأطعتم عمرا فعمرو جبان فرار وانكم أذل الناس ، فليس لكم أن تردوا الماء الا بعد أن يفرغ الناس وتفرغ النساء الطاهرات منهن واللواتى عليهن الحيض : (١)

وأرسل عبدُ الله اذ حان يومُه

الى قومه الا تُخَلُّوا لهم دمى

ولا تأخذوا منهم إفَالا وأبكُرًا

وأُتركُ في بيتٍ بصَعْدةَ مظلمِ

(١) الامالى + الذيل والنوادر ٣/١٩١ ـ ١٩٢ .

ودعْ عنك عمرا إن عمْرا مسالمٌ

وهل بطنُ عمرو غيرُ شبرٍ لمطعَم

فإن انتمُ لم تقتلوا واتَّدَيْتمُ

فمشُّوا بآذان النَّعَامِ المصَلَّمِ

ولا تشربوا الا فضولَ نسائِكم

اذا أُنهِلَتْ أعقابُهن من الدم

جدعتم بعبد الله آنفَ قومه

بني مازن أن سَبَّ ساقي المُخَزَّمِ

وكان للنساء أثرهن أيضا فى ادامة الحروب واضرام نار القتال ، فكلما خبت نار حرب سعرنها بالتحريض على طلب الثأر ، وكثير من الحروب التى نشبت كان النساء من أسباب قيامها ، فحرب البسوس استعرت بسبب لجاجة امرأة وصخبها حول ناقتها البسوس التى لم ترض بها بدلا ، بل أن عويل النساء وبكائهن صباح مساء ، هو الذى كان يدفع الرجال للثأر والغارة ، على أن الثأر كان متأصلا فى نفوسهم ، تنخر أحقاده قلوبهم لا يستطيعون السكوت عليه أو الصبر على الواترين ، وقد حفل شعرهم بالايمان الغليظة والعهود الشديدة التى كانوا يقطعونها على أنفسهم وما يتبع ذلك من حرمان أنفسهم من أطايب الحياة حتى يدركوا بثأرهم ، فهذا المهلهل يتعهد لكليب وهو فى

قبره ، أن يحرم على نفسه لذيذ الطعام والخمر ويهجر النساء ويمكث لا يغير ملابسه ولا يخلع درعه أو يلقى سيفه حتى يثأر له ويشفى غليله : (٢)

خذ العهدَ الأكيدَ عليَّ عمري
بتركي كلَّ ما حوتِ الديارُ
وهجري الغانياتِ وشربَ كأسٍ
ولبسى جُبّةً لا تُسْتَعارُ
ولستُ بخالعٍ درعي وسيفي
الى أن يخلعَ الليلَ النهارُ
والا أن تبيدَ سَراةُ بَكرٍ
فلا تبقى لها أبدا أثارُ

الفخــــر :

أما الفخر فضرب من الحماسة وهو التغنى بالفضائــــل والمثل العليــا ، والتباهى بالسجايا النفسية والصفات القومية ، والزهو بالفعال الطيبة ، وألذ أحاديث المرء عنده هو حديثه عن نفسه وخصاله وفعاله ، من الشجاعة والكرم

(٢) أخبار المراقسة وأشعارهم ص ٤٩ وشعراء النصرانية ص ١٦٤ .

والمروءة وحماية الجار وطيب المنبت وعراقة الاصل وكثرة المال والولد الى غير ذلك مما يزهو به الانسان ويختال به على غيره •

ويكره الناس الحديث عن النفس والتباهى بالخصال ويعدونه غرورا وادعاء ، الا فى الشعر فانه مقبول مستساغ ، وقديما أشار الى ذلك ابن رشيق بقوله : « ليس لاحد من الناس أن يطرى نفسه ويمدحها فى غير منافرة ، الا أن يكون شاعرا ، فان ذلك جائز له فى الشعر غير معيب عليه » (١) • ولعل ذلك أن القارىء للشعر يتعاطف مع الشاعر ويشاركه مشاعره حين يتغنى بالمثل العليا ، فيكون قد عبر عن خواطر وأمنيات القارىء ، واذا كان الفخر يستساغ ويستملح فى الشعر فذلك لان عنصر المبالغة التى تسود شعر الفخر مقبولة فى الشعر مرفوضة فى غيره •

والفخر انما يحسن اذا كان الشاعر يمتدح بالفضائل النفسية والخصال الخلقية بعيدا عن التباهى بالامور المادية والقوة الجسدية أو التفاخر بالانساب والاصول والقبائل ، واذا كان هذا الضرب من الفخر مقبولا فى العصر الجاهلى ، فان العصور التالية صارت تستسمج ذلك ، ولذلك فان خير الفخر ما كان تغنيا بالفضائل وتمدحا بالمثل العليا دون مبالغة مفرطة ولا مجاوزة للمألوف ، ولذلك استجيد قول حاتم الطائى لانه تعبير عن واقع مألوف وحقيقة صادقة : (٢)

أما والذي لا يعلم الغيبَ غيرُه

ويحيي العظامَ البيضَ وهي رميمُ

(١) العمدة ١/٢٥ •
(٢) ديوان حاتم الطائى ص ٣٤ •

لقد كنت أطوى البطنَ والزادُ يشتهى
مخافة يوما أن يُقالَ لئيمُ

وقد دارت قصائد الفخر على الشجاعة والبأس والنجدة ومنح الجارات واجارة المولى واطعام الفقراء واكرام الضيف وبذل المال وايثار الاخرين .

وأشهر قصيدة عرفت فى الفخر هى قصيدة عمرو بن كلثوم التى بلغت أربعة أبيات ومائة وكلها فخر وحماسة ، وقد كانت تغلب قبيلة الشاعر تعظم هذه القصيدة وتحتفل لانشادها ، حتى هجاهم لذلك أحد الشعراء فقال : (٣)

ألهى بني تغلب عن كلِ مكرمةٍ
قصيدةٌ قالها عمروُ بن كلثومِ
يروونها أبداً مُذْ كان أولُهم
يا للرجال لشعرٍ غيرِ مسئومِ

والقصيدة احدى المعلقات السبع التى يبدأها بذكر الخمر متجاوزا الوقوف على الديار : (٤)

---

(٣) الاغانى ١١/٥٤ .

(٤) المعلقات السبع ـ الزوزنى ص ١١٨ ـ ١٣٥ .

ألا هُبِّى بصحنكِ فاصبحينا

ولا تُبْقِى خمورَ الانْدرينا

وهى شائعة معروفة .

ومن الشعراء من يؤثر قومه فى الفخر فينسب اليهم كل فضيلة ، ويتحدث عن فضائله من خلال فضائل قومه ، ومن جيد الشعر هذا قول عمرو بن الاطنابة : (٥)

إنى من القوم الذين إذا انتدَوا

بدأوا بحقِ الله ثم النائلِ

المانعين من الخَنَا جاراتِهم

والحاشدين على طعام النازلِ

والخالطين فقيرَهم بغنيِّهم

والباذلينَ عطاءَهم للسائل

والضاربينَ الكبشَ يبرق بيضُه

ضربَ المُجَهْجِهِ عن حياضِ الآبلِ

(٥) شرح الحماسة ـ المرزوقى ٤/١٦٣٤ .

والقاتلين لدى الـوَغَـى أقرانهم
إنَّ المنيّـةَ من وراءِ الوائلِ

خزر عيونُهم الى اعـــدائهم
يمشون مشَـى الأُسْـدِ تحت الوابلِ

والقائلين فـلا يُعاب كلامُـهم
يومَ المقـامةِ بالقضاء الفاصلِ

ليسوا بأنكاسٍ ولا مِيـلٍ اذا
ما الحربُ شبّت أشعلوا بالشاعل

فقد جمع الشاعر فى قومه كل خصال الخير والشرف والكرم والمروءة والحلم والشجاعة وحسن البلاء ٠

ولا يعدم الشعر الجاهلى بعض القصائد التى فيها غلو ومجاوزة حـدود المعقول ، فقد أخذت العصبية عمرو بن كلثوم فجعل الناس خولا لقبيلتـه وعبيدا لقومه ، وبلغ به الغرور كل مبلغ فكان يقول فى بعض معلقته : (١)

(١) المعلقات السبع ص ١٣٤ ـ ١٣٥ ٠

وقـد علم القبائلُ من مَـعَـدٍّ

اذا قُببٌ بأبطحها بُنينـــا

بأنا المطعمون اذا قـدرنا

وأنا المهلكون اذا ابتُلينا

وانا المــــانعون لما أردنا

وانا النـــازلون بحيث شينا

وانا التاركون اذا سَخِـطنا

وانا الآخـذون اذا رضينا

وانا العاصمون اذا أُطِعنا

وانا العـازمون اذا عُصينا

ونشرب ان وردنا الماء صفواً

ويشرب غيـرُنا كَـدِراً وطينا

ملأنا الـــبرَّ حتى ضاق عنا

وماءَ البحر نمــــلوءه سفينا

اذا بلغ الفطامَ لنـــا صبيٌ
تَخِرُّ له الجبابِرُ ساجدينا

وأفضل من هذا الصياح المتعالى ، فخر من يفتخر بشجاعته وقوته ويقر للاخرين بالفضل والبسالة ، وهذا الاقرار أقرب الى روح الفروسية والرجولة، والفارس فى المعركة لا يحقق النصر دائما فالحرب سجال يوم له ويوم عليه ، فاذا انتصر افتخر بقوته وشدة بأسه ولا يهجو عندئذ أعداءه المندحرين ، بل يذكر صبرهم فى الحرب وحسن بلائهم ، واذا اندحر الفارس ونال منه خصمه أقر بقوة عدوه وكثرة رجاله وشدة بأسهم ، وأنه قد صبر وأبلى ففاته النصر ، وهذا الضرب من الشعر الذى لا يحتكر الشجاعة لجانب دون آخر ، هو الذى عرف بشعر الانصاف وقصائده المنصفات ، وقد ذكرها الجاحظ فى جملة قوله : « وقد أدركت رواة المسجديين والمربديين ، ومن لم يرو أشعار المجانين (٢) ولصوص الاعراب ونسيب الاعراب ، والارجاز الاعرابية القصار، وأشعار اليهود ، والاشعار المنصفة ، فانهم كانوا لا يعدونه من الرواة » (٣) . وفى الخزانة : « وللعرب قصائد قد أنصف قائلوها أعداءهم وصدقوا عنهم وعن أنفسهم فيما اصطلوه من حر اللقاء وفيما وصفوه من أحوالهم فى أمحاض الاخاء قد سموها المنصفات » (٤) .

وقد شهر من هؤلاء الشعراء مجموعة من أبطال الجاهلية والاسلام منهم : عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، والعباس بن مرداس السلمى ، وعنترة بن

---

(٢) أى العشاق .
(٣) البيان والتبيين ٤/٢٣ .
(٤) خزانة الادب ٣/٥١٧ .

شداد العبسى ، والمفضل النكرى ، وعبد الشارق بن عبد العزى ، والطفيل الغنوى ، وخداش بن زهير العامرى ، وغيرهم كثير (٥) • ومن جياد قصائد الانصاف قول عبد الشارق بن عبد العزى الجهنى : (٦)

ألا حييتِ عنَا يا رُدَيْنَا
نحييها وان كَرُمَتْ علينا

رُدينةُ لو رأيتِ غداةَ جئنا
على أضمَاتِنا وقد احتوينا

فأرسلنا أبا عمروٍ رَبيئا
فقال ألا انعموا بالقوم عَيْنا

ودَسُّوا فارسا منهم عِشاءً
فلم نغدرْ بفارسهم لدينا

فجاءوا عارِضا بَرِدا وجئنا
كمثلِ السيف نركبُ وازعينا

(٥) جمع عبد المعين الملوحى شعر الانصاف وأصدره بكتاب باسم المنصفات • ط دمشق ١٩٦٧ •
(٦) شرح الحماسة ـ المرزوقى ١/٤٤٢ ـ ٤٥٠ والمنصفات ص ٤١ ـ ٤٧ •

فنادوا يا لبُهثةَ اذ رأونا

فقلنا أحسني ضربا جُهَيْنَا

سَمِعنا دعوةً عن ظهر غيب

فجُلنا جولةً ثم ارعوينا

فلما أن تواقفنا قليلاً

أنخْنَا للكلاكل فارتمينا

فلمّا لم ندع قوسا وسهما

مشينا نحوهم ومشَوا الينا

تلألؤَ مزنةٍ برقت لأخرى

اذا حَجلوا بأسياف ردينا

شددنا شدةً فقتلتُ منهم

ثلاثةَ فتيةٍ وقتلتُ قَيْنَا

وشدوا شدّةً أخرى فجروا

بأرجلِ مثلهم ورموا جُوينَا

وكان أخى جُوَينٌ ذا حِفاظٍ
وكان القتلُ للفِتيان زَيْنَا

فـآبوا بالرِماح مكسَّراتٍ
وأبْـنَا بالسيوف قد انحنينا

فباتوا بالصعيدِ لهم أحَـاحٌ
ولو خَفَّتْ لنا الكَـلمى سرينا

والقصيدة حكاية للمعركة بين الفريقين ، فقد أرسلوا أبا عمرو ربيئـا يتحسس مواضع العدو ويرقب تحركاته ، وأرسل العدو فارسا يتعرف أخبار القوم ، وقد عرفوه ولكنهم لم يغدروا به ، وبدأت المعركة وهجم خصومهم بجمع كثيف كأنه قطعة من السحاب ، وقابلوهم بهجوم مثله بجمع غفـير انساحوا اليهم كالسيل الذى يحطم ما يلقاه ، وتعالى صياح الحرب واشتـد وقعها ، وتراشقوا بالنبال حتى نفدت فمشى بعضهم الى بعض بالرماح والسيوف ، واجتلد القبيلان حتى سقط القتلى ، أربعة من بهثة وأربعة من جهينة قبيلة الشاعر ، منهم أخوه جوين ، وكثر الجرحى وتكسرت رماح بهثة ، وانحنت سيوف جهينة ، فحجز الظلام بين الفريقين •

فترى الشاعر هنا قد وصف المعركة وأقر بقوة الخصم ، ولم ينكر عليهم بلاءهم العظيم فى هذه الوقعة وما نالوه منهم ، فقد قتل كل فريق أربعة من الفريق الاخر ، وفى كلا الطرفين جرحى فكلاهما قد نال من صاحبه فلم

يكن النصر حليف فريق دون آخر ، ولم يشأ الشاعر أن ينحاز لقومه فيغبن عدوه أو يستهين بقوته وشدة بأسه ، وقد كان من حبه للفروسية وتقديسه لمثلها أنه ذكر أخاه الذى خر صريعا فى المعركة ، ولم يبال بذلك ، فجعل قتله وقتل كل فتى شرفا للفتوة والرجولة وأطلقها حكمة مأثورة : « وكـان القتل للفتيان زينا » .

وحسبنا بهذه القصيدة مثلا على بطولة الابطال وانصاف الخصوم واشاعة روح الفروسية ، وقد كانت الحماسة بحق لغة الفروسية والتغنى بتقاليدهـا الاصيلة ومثلها العليا .



الرثاء

الرثاء من الفنون التى جود فيها الشعراء ، لانه تعبير عن خلجات قلب حزين ، وفيه لوعة صادقة وحسرات حرى ، ولذلك فهو من الموضوعات القريبة الى النفس ، لان الرثاء الصادق تعبير مباشر قلما تشوبه الصنعـة أو التكلف ، والحياة الجاهلية حياة حرب ودماء وغارات يسقط أثرها القتلى ، فيبكى الاهل والاصحاب قتلاهم ، ويثيرون ببكائهم دموع قبائلهم ويؤججون أحزانهم فيدفعونهم لشحذ سيوفهم استعدادا لجولة جديدة تطفىء نار غيظهم وتشفى أحقادهم بالفوز بثأرهم والظفر برؤوس أعدائهم .

وتلقانا فى شعر الرثاء ثلاثة أنواع أو أساليب ، فمنه :

١ ـ بكاء ونواح وعويل على الميت بألفاظ حزينة مؤلمة كثيرة الحزن تستمطر الدموع من العيون ، وكان النساء يجتمعن فى مناحة صاخبة ، يصحب ذلك لطم على الوجوه والصدور بالاكف أو قطع الجلود أو النعال ، ويعرف هذا الضرب من الشعر الذى يقال فى هذه المناحات بـ (الندب) ، وقـد برعت النساء فى هذا الضرب ، وصف الربيع بن زياد احدى هذه المناحات

التى أقيمت اثر مقتل مالك بن زهير فقال : (١)

من كان مسروراً بمقتل مالكٍ

فليأتِ ساحتَنا بوجهِ نهارِ

يجد النساءَ حواسرا يندبْنَه

يلطمْنَ أوجههن بالأسحارِ

قد كُنَّ يخبأنَ الوجوهَ تسترا

فاليوم قد أبرزن للنظّارِ

يضربن حُرَّ وجوههن على فتى

عَفٌّ الشمائل طَيّبِ الأخبارِ

وقد وصف أبو ذؤيب الهذلى ما تفعله بناته بعد موته من ضرب صدورهن بنعال السبت فقال : (٢)

---

(١) شرح الحماسة ـ المرزوقى ٢/٩٩٥ ـ ٩٩٦ • وكذلك وصف مهلهل بن ربيعة مناحة على مقتل كليب • ينظر شعراء النصرانية ١/١٦٢ ولبيد بن ربيعة فى موت عمه أبى براء ـ ديوان لبيد ص ٥١ و٣٣٢ •

(٢) ديوان الهذليين ١/١٢٢ •

وقام بناتي بالنِّعالِ حواسرا

وألصقنَ ضربَ السِّبْتِ تحت القلائدِ

وجاء الاسلام فنهى عن كل هذه الافعال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية » (٣) ، وقال : « ان رسول الله بريء من الصالقة والحالقة والشاقة » (٤) ، ولذلك نهى لبيد في الاسلام أبنتيه أن تأتيا أعمال الجاهلية في النواح عليه بعد موته : (٥)

فقوما فقولا بالذي قد علمتما

ولا تَخْمُشا وجها ولا تَحْلِقا شَعَرْ

ولم يقتصر الندب على النساء ، فقد احترفه بعض الرجال ، وعرف منهم في الاسلام الغريض المغنى في مكة ، فقد كان لصوته الشجي أثر في استثارة النفوس وابكاء الناس ، وكان يصاحب هذا الشعر في النواح ضرب بالصنوج ونقر بالدفوف ، لزيادة هذا الجو حزنا وأسى وفجيعة .

٢ ـ وضرب آخر من الرثاء كان يتخذ شكل الثناء على الميت ـ أو قد يكون حيا أيضا ـ وذكر فضائله وتعداد محامده ، ويكون ذلك عند زيارتهم

---

(٣) صحيح البخارى ٢/٣٢٢ .
(٤) صحيح البخارى ٢/٣٣٥ .
(٥) ديوان لبيد ص ٢١٣ .

للقبور أو اجتماعهم فى مجلس يعقد لذكرى الفقيد ، ويسمى ذلك (التأبين) ، وكثيرا ما ينحلون الميت جميع الفضائل والمثل العليا ، من الشجاعة والمروءة والنجدة والوفاء وحماية الجار والحلم والحزم والسماحة والسيادة ، وما الى ذلك من خصال الخير ، واذا قرأنا فى شعر الخنساء نجدها تبكى فى أخيها كل هذه الخصال •

٣ ـ وضرب ثالث من الرثاء يتجه الى التفكر فى رحلة الحياة ومصير الناس وحتمية الاقدار ونزول البلاء وضعف الانسان أمام نوازل الدهر ومصائب الزمان ، فيلتمس فى كل ذلك السلوة والصبر والرضا بما نزل به والاستسلام للقدر ، ويعرف هذا الضرب بـ (العزاء) • وقد عبرت الخنساء عن تعزيها بكثرة من نكبوا بأهلهم وكثرة الباكين حولها اذ تقول : (١)

فلولا كثرةُ الباكين حولى
على إخوانهم لقتلت نفسي
ولكن لا أزال أرى عَجولا
ونائحةً تنوحُ ليوم نَحسِ
هما كلتاهما تبكي أخاها
عشية رُزئهِ أو غِبَّ أمسِ

(١) شرح ديوان الخنساء ص ١٥٢ ـ ١٥٣ •

وما يبكينَ مثلَ أخى ولكن

أُسَلِّى النفسَ عنه بالتَّأَسِى

وقد برعت النساء فى الرثاء ، ولعله الفن الوحيد الذى أجادت فيه المرأة ، ومن يقرأ الشعر الجاهلى يعجب لكثرة الشواعر اللواتى أنشدن أشعارا فى رثاء القتلى أو التحريض على الثأر من القاتلين ، ويرتبط شعرهن بالوقائع وأيام العرب •

وقد بلغ من اشتهار المرأة بالرثاء وافتخارها بفضائل قتلاها ومكانتهم ان صارت تفاخر غيرها بعظم مصيبتها كما فعلت الخنساء حين فاخرت هند بنت عتبة وعاظمتها بأنها أكثر مصيبة ، فقد رزئت بأبيها عمرو بن الشريد وأخويها صخر ومعاوية ، وقد قالت فى ذلك : (٢)

أبكى أبى عَمْرا بعين غزيرةٍ

قليلٌ اذا نام العيونُ هُجودُها

وصِنوىّ لاأنسى مُعاويةَ الذي

له من سَراةِ الحَرَّتين وفودُها

وصخرا ومن ذا مثلُ صخرٍ اذا غدا

بساهمةِ الآطال قُبٍّ يقودُها

(٢) ديوانها ص ٥٨ ـ ٥٩ والاغانى ٤/٢١١ •

فذلك ياهندُ الرزيَّةَ فاعلمى

ونيرانُ حرب حين شُبَّ وقودُها

ففاخرتها هند بأبيها عتبة وعمها شيبة وأخيها الوليد فهى أعظم مصيبة حيث تقول : (٣)

أبكى عميدَ الأبطحينِ كليهما

وحاميهما من كل باغٍ يُريدها

أبى عتبةُ الخيراتِ ويحكِ فاعلمي

وشيبةُ والحامى الذمارَ وليدُها

أولئك آلُ المجد من آلِ غالبِ

وفي العزِّ منها حين يُنْمَى عديدُها

ولا شك أن المرأة أشد من الرجل حزنا وأرق عاطفة وأكثر جزعا وأعظم لوعة ، وطبيعتهن أقرب الى الرثاء والبكاء واللوعة والاسى ، ولكن المرأة — مع كل ذلك — لم تستطع أن تصور فى رثائها ما تلاقيه من آلام مبرحة على فقد ابنها أو زوجها أو أخيها ، فقلما تتحدث عن آلامها النفسية بأصالة وعمق ،

(٣) الاغانى ٤/٢١٢ .

وآثرت في رثائها البكاء والعويل ، وذكر الجوانب العامة من حياة القتيل ، وأكثرها يتعلق بالنواحي المادية ، فهو الحامي والمعيل والكريم والشجاع وما الى ذلك من فضائل المرثي ، ولذلك صار رثاء المرأة أشبه برثاء الرجل ، وقلما نجد في رثائها سمات تعبر عن عاطفتها الانثوية ، ولعل لسرعة بكاء المرأة وعويلها وجزعها ان جعل لها متنفسا لاحزانها ، فاذا أرادت التعبير لم تجد في صدرها ما تفصح به غير لغة الدموع ، أما الرجل فيكبت أحزانه ويتجلد ويستغرق في المصيبة والاسى المفجع ، فاذا أراد التعبير انفجرت همومه وأحزانه ، وصار الشعر متنفسه الى الراحة من ثقل الهموم ، وتناولت المرأة في رثائها تصوير ضعفها وذلتها ، فتتحدث الخنساء عن شيبها قبل أوان مشيبها وعجزها وضعفها وجزعها وذلتها وكثرة دموعها ، وهي خير من صورت ما تلقاه في هذا ، تقول في رثاء صخر : (١) .

تقولُ نساءٌ شِبْتِ من غيرِ كَبْرَةٍ
وأيسرُ مما قد لقيتُ يُشِيبُ

أقول ابا حسانَ لا العيشُ طيِّبٌ
وكيف وقد أُفرِدتُ منك يطيبُ

ذْكَرْتكَ فاستعبرتُ والصدرُ كاظمٌ
على غُصَّةٍ منها الفؤادُ يذوبُ

(١) ديوان الخنساء ص ١٥ ــ ١٦ .

لعمري لقد أوهيتَ قلبي عن العَزَا

وطأطأتَ رأسي والفؤادُ كئيبُ

لقد قُصمتْ مني قناةٌ صَلِيبَةٌ

ويُقْصَمُ عودُ النَّبْعِ وهو صَليبُ

ولكثرة نواح المرأة وبكائها ، صار شعرها يدور حول موضوعات واحدة لا يجاوزها ، تتصل بوصف الفراغ الذى تركه المرثى وتعداد فضائله ، فمعانيها تدور فى اطار ضيق ، ولذلك قلما نجد فى شعرها الحكمة والتأمل والنظر الى فلسفة الحياة والمصير ، ونظرتها بعامة جزئية فردية ، وتكثر فى شعر النساء أيضا عبارات وألفاظ تتكرر وتعاد مثل : (لهفى) و (ويلى) و (سيدنا) و (مولانا) وما الى ذلك (٢) .

وقد كان الرجل فى الجاهلية يأتى أفعالا تشبه ما تأتيه المرأة من أفعال الجزع والهلع من ذلك أنه كان يعقر الابل على قبر من يحب اكراما له وتحية لمثواه ، وكان ممن عقرت الابل على قبره ، ربيعة بن مكدم (٣) ، وقال الشاعر الذى عقر ناقته على قبر النجاشى : (٤)

---

(٢) ينظر مثلا ديوان الخنساء ص ٢١ ، ١٢٤ ، ١٥٣ .
(٣) العقد الفريد ١/١١٦ .
(٤) الكامل ٣/١٢٥٠ .

عقرت على قبر النجاشيّ ناقتي

بأبيضَ عضْبٍ أخلصتْهُ صياقلُه

على قبرِ من لو أنني متُّ قبلَه

لهانت عليه عند قبري رواحِلُه

وكان بعضهم يحيي رفيقه بعد موته بصب الخمر على قبره ، ولعل ذلك جاء مما يفعله الندمان عند ما يشربون الخمر عند قبر صديقهم ، مثل الاعشى الذي شهر بالخمرة ، فيقال ان رفاقه وندماءه صاروا بعد موته يشربون عند قبره ، وتدور الكأس ، فاذا جاء نصيب الاعشى صبوا الخمر على قبره ولهذا كان قبره رطبا نديا • (٥) ويقول الاسدى في رثائه لنديميه : (٦)

أقيم على قبريكما لستُ بارحا

طوال الليالي او يُجيب صداكما

أصبُّ على قبريكما من مُدَامةٍ

فان لم تذوقــاها أبلُّ ثَراكما

(٥) الاغانى ٩/١٢٦ ـ ١٢٧ •
(٦) شرح المرزوقى للحماسة ٢/٨٧٧ ـ ٨٧٨ •

وأبكيكما حتى الممات وما الذي

يردُّ على ذي عَولةٍ ان بكاكما

أو أن يلجأ فى استعظام المصيبة الى المبالغة واشراك الطبيعة فى أحزانه ، يقول النابغة الذبيانى فى رثاء حصن بن حذيفة الفزارى ، كيف تبقى الجبال راسخة لم تجنح للوقوع ، ولم تنشر القبور موتاها ، ولم تسقط السماء نجومها ، وقد جاء النعاة بنعى حصن بن حذيفة : (١)

يقولون حصنٌ ثم تأبى نفوسُهم

وكيف بحصنٍ والجبالُ جنوحُ

ولم تلفظِ الأرضُ القبورَ ولم تزل

نجومُ السماء والأديمُ صحيحُ

فعمّا قليلٍ ثم جاش نعيُّـــه

فباتَ نَدِيُّ القوم وهو ينوحُ

وقد ذهب بعض الرثاة الى استبكاء أسلحة الفقيد وأمواله ، فذكروا بكـاء

(١) ديوان النابغة ص ٢١٣ .

فرسه بعده وجمله وسيفه ودرعه وغير ذلك (٢) ٠

ولعل خير المراثي وأطرفها هي التي قالها الشعراء في رثاء أنفسهم عند احساسهم بدنو أجلهم أو وقوعهم في شدة أو أسر أو مرض ، وكثير أولئك الشعراء الذين ذكروا الموت وناحوا على أنفسهم وأوصوا أهلهم بما يفعلونه بعد موتهم ، أو أرسلوا خيالهم فيما سيكون من أمرهم بعد الموت ، ومن ذلك قول المتلمس يوصي أصحابه بعد موته : (٣)

خليليَّ إما متُّ يوما وزُحزحتْ
منايا كما فيما يُزحزحـــه الدهرُ

فَمُرّا على قبري فقوما فسلما
وقولا سقاكَ الغيثُ والقطرُ يا قبرُ

كأن الذي غيّبتَ لم يلهُ ساعةً
من الدهرِ والدنيا لها ورق نَضْـرُ

ويتساءل السموأل ، ماذا تقول النساء في نواحه بعد موته : (٤)

---

(٢) ديوان الخنساء ص ٤٠ ٠

(٣) ديوان المتلمس ص ٢٥٦ ٠

(٤) ديوان السموأل ص ٨٦ وفي طبقات الشعراء ص ٢٤٠ منسوبة لشعية ابن الغريض ٠

ياليت شعري حين أندُبُ هالكا

مــاذا تؤبنني بـــه أنواحى

أيقلن لا تبعُدْ فربَّ كريهةٍ

فرّجتُهـــا بشجاعةٍ وسَمَاحِ

وقد أسرت تيم عبد يغوث بن صلاءة ، وشدوا لسانه بنسعة لئلا يهجوهم ، ثم أطلقوا لسانه وقطعوا عرقه الاكحل فصار ينوح على نفسه ويبكيها : (٥)

أقول وقد شدُّوا لساني بنسعةٍ

أمعشرَ تَيْمٍ اطلقوا من لسانيا

أمعشرَ تيمٍ قد ملكتم فأسْجِحُوا

فان اخاكم لم يكنْ من بوائيَا

أحقا عبادَ الله أن لستُ سامعا

نشيدَ الرِعاءِ المعزبينَ المتاليا

وكذلك فعل أفنون (صريم بن معشر) الذى لدغته حية فى موضـع

(٥) الامالى ٣/١٣٣ والعقد الفريد ٣/٣٩٦ .

الالاهة ، فقال يرثى نفسه ويخاطب أخاه معاوية : (٦)

ألا لستُ في شيءٍ فروحا مُعاوِيا
ولا المشفقاتُ اذ تَبِغْنَ الحَوازِيا

فلا خيرَ فيما يكذبُ المرءُ نفسَهُ
وتقوالهِ للشيء يا ليت ذا ليا

فطأ مُعْرِضاً ان الحتوفَ كثيرةٌ
وانك لا تُبقي بمالكَ باقيـــا

لعمرُك ما يدري امرؤٌ كيف يتّقي
اذا هو لم يجعلْ له اللهُ واقيا

كفي حزَناً أن يرحل الحيُّ غُدْوَةً
وأصبِـــحُ في اعلى إلآهَةَ ثاويا

(٦) المفضليات ٢٦١ والعقد الفريد ٣/٤٧ ٢ـ ٢٤٨ .

ويمتزج هنا الالم بالحكمة والتبصر بعواقب الحياة ، وبمثل هذه النظرة الحكيمة الى الموت نظر أعشى نهشل ، وهو يتفكر في موته ومصيره ويلتمس العزاء بمن سبقوه الى القبور (١) ، أما الممزق العبدى فقد كان أحسن من غيره خيالا وتصويرا لما يكون من أمره بعد أن يسقى كأس المنية ويجرى عليه حكم الدهر الذى لا يخطىء أحدا ، فيصور كيف سيرجلون شعره ويلبسونه ثيابا جديدة هي أكفانه ، ويحملونه على نعش ويوسدونه التراب ، ثم يطبقون عليه حفرته ويتركونه ثم وحيدا تتناوح على قبره الرياح ، ويوصى من بعده ـ أو يوصى نفسه ـ بان لا يجزع فالكل الى ذهاب ، وان للدهر رمية بسهام خفية لا ريش لها ولا فواق : (٢)

هل للفتى من بناتِ الدهر من واقِ
أم هل له من حِمَامِ الموتِ من راقِ

قد رَجَّلوني وما رُجِّلتُ من شَعَثٍ
وألبسونى ثيـــابا غيرَ أخلاقِ

ورَفعونى وقالوا أيُّما رجلٍ
وأدرجوني كأنى طيُّ مِخْراقِ

(١) شعره في ديوان الاعشى ـ الصبح المنير ص ٣٠٦ .
(٢) المفضليات ص ٣٠٠ .

وأرسلوا فِتيةً من خيرهم حسَبا

لِيُسنِدوا في ضريح التُرب أطباقي

هَوِّنْ عليك ولا تَوْلَعْ بإشفاقِ

فإنّما مالُنا للوارث الباقي

كأنني قد رماني الدهر عن عُرُضٍ

بنافِذاتٍ بلا ريشٍ وأفوَاقِ

أما علقمة بن سهل ، فان نفسه تتبع ماله بعد الموت ، فيذكر أن ماله بالامس سيكون لغيره غدا ، بعد أن يقتسم ذووه ومواليه أمواله ، ويتركه هو فى قبره وحيدا لا يعنى به أحد : (٣)

فلن يَعْدَمَ الباقون قبراً لجثتي

ولن يعدَم الميراثَ مني المواليا

حراصٌ على ما كنت أجمع قبلَهم

هنيئاً لهم جمعى وما كنتُ واليا

(٣) الحيوان ١/١٢١ .

ودُلّيتُ في زوراءَ ثمت أعنقوا

لشأنِهمُ قد أفردوني وشانيا

فأصبح مالي من طريفٍ وتالدٍ

لغيري وكان المالُ بالأمسِ ماليا

واذا جئنا الى العصر الاسلامى سنجد هدبة بن الخشرم يذكر نفسه عندما يقدم لتضرب عنقه قصاصا ، وله أشعار كثيرة فى ذلك (٤) .

وأروع ما قيل فى رثاء النفس قصيدة مالك بن الريب غير مدافع ، التى قالها حين كان فى جيش سعيد بن عثمان بن عفان قافلا من أرض فارس ، وقد نهشته أفعى ، فقال قصيدته الطويلة الرائعة التى أولها : (٥)

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً

بجنب الغَضا أُزجي القِلاصَ النواجِيَا

وفيها تصوير دقيق لاحوال المحتضر الذى يشعر بالموت يدب فى جسمه ، فهو يوصى أصحابه كيف يؤدون حقه بعد الموت ، وينظر ما سيكون من أمر أهله وبكائهم عليه .

---

(٤) الاغانى ٢١/٢٦٤ ـ ٢٧٦ ، وينظر شعر هدبة بتحقيقنا .
(٥) ذيل الامالى والنوادر ٣/١٣٦ ـ ١٣٨ . وجمهرة أشعار العرب ص ٢٦٩ ـ ٢٧٢ .

وأكثر الرثاء كان متوجها للرجال ، ذوى الشأن والمكانة فى القبيلة خاصة ، وهناك أشعار فيها جوانب انسانية من البر والحنان والوفاء والصحبة ، هى تلك الاشعار التى قيلت فى رثاء الزوجات ، ومن الازواج الذين ذكروا زوجاتهم فى الجاهلية عمرو بن قيس بن مسعود المرادى ، الذى خاطب سعيدة أخت زوجه أو ابنتها بقوله : (١)

سُعَيدُ قومي على سُعدى فبكّيها
فلستِ محصيةً كلَّ الذي فيها
في مأتم كظباء الروض قد قرحتْ
من البكاء على سُعدى مآقيها

وكذلك فعل العوام بن كعب المازنى (٢) . وقد كثر هذا الضرب من البكاء على النساء فى العصور المتأخرة ، وقد لاحظ القدامى أن هذا الضرب من الشعر صعب ، ولعل مرجع ذلك الى العرف السائد فى أن يكون الرجل جلدا صبورا قليل الجزع ، ولذلك يقول ابن رشيق : « ومن أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثى طفلا أو امرأة لضيق الكلام عليه فيهما وقلة الصفات » (٣).

ويلاحظ فى قصائد الرثاء عامة ــ وبخاصة القصائد الطويلة الجيدة ــ أنها تبدأ بالحكمة والتفكر فى الايام وصروف الزمان ، وقد يطيل الشاعر فى ذكر

(١) معجم الشعراء ص ٦٠ .
(٢) معجم الشعراء ص ١٦٤ .
(٣) العمدة ٢/١٥٤ .

الحكمة وتقليب الرأى فى أفاعيل الزمان ، كما فعل لبيد فى كثير من قصائده فى رثاء أخيه أربد أو فى رثاء النعمان بن المنذر الذى يبدأ قوله فيه بهذا التساؤل : (٤)

ألا تسألانِ المرءَ ماذا يحاولُ

أنحبٌ فيُقضَى أم ضلالٌ وباطلُ

حبائِلُه مبثوثةٌ بسبيـلهِ

ويَفْنَى اذا ما أخطأتْهُ الحبائِلُ

وتكثر فى الرثاء ألفاظ ، من مثل : (لا تبعد) ، تقول أخت قبيصة بن ضرار فى رثاء أخيها (٥) :

لا تبعدنَّ وكلُ شيءٍ ذاهبٌ

زينَ المجالس والنديٌّ قبيصا

ويقول تأبط شرا فى رثاء الشنفرى : (٦)

---

(٤) ديوان لبيد ص ٢٥٤ .
(٥) شرح الحماسة ـ المرزوقى ١٠٥٣/٣ .
(٦) الوحشيات ص ١٣٠ .

فلا يبعدنَّ الشَّنفرَى وسلاحُه الحـ
ديدُ وشدٌّ خطوهُ المتواتر

ويقول لبيد : (٧)

فلا تبعدنْ إنَّ المنيةَ موعدٌ
عليكَ فدانٍ للطلوعِ وطالعُ

ويكثر كذلك الدعاء بالسقيا لقبر الميت ، وكثيرا ما يجيء هذا الدعاء ختاما للقصيدة ، وان لم يكن ذلك شرطا ، يقول متمم فى رثاء أخيه مالك : (٨)

سقى اللهُ أرضاً حلَّها قبرُ مالكٍ
ذهاب الغَوادى المدجناتِ فأمرعا

وتقول الخنساء لاخيها صخر : (١)

---

(٧) ديوانه ص ١٧١ .
(٨) المفضليات ص ٢٦٨ وشعر مالك ومتمم ص ١١٢ .
(١) ديوان الخنساء ص ١٥ .

سقيا لقبرك من قبر ولا برحت

جود الرواعد تسقيه وتحتلب

وكذلك يقول المهلهل لاخيه كليب : (٢)

سقاك الغيث انك كنت غيثا

ويسرا حين يلتمس اليسار

والامثلة فى هذا أكثر من أن تحصى ٠

وقد لاحظوا فى قصائد الرثاء أنها قلما تبدأ بالغزل ، بل يشينها أن تبدأ به ، فمواضع الحزن لا يليق بها التفكر بالمرأة والتشبيب بها ، يقول ابن رشيق : « وليس من عادة الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء نسيبا كما يصنعون ذلك فى المدح والهجاء ، وقال ابن الكلبى ـ وكان علامة ـ لا أعلم مرثية أولها نسيب الا قصيدة دريد بن الصمة : (٣)

أرثَّ جديدُ الحبلِ من أم معبدِ

بعاقبة وأَخلفت كلَّ موعدِ

(٢) شعراء النصرانية ١/١٦٣ ٠

(٣) العمدة ٢/١٥١ والشعر فى الاصمعيات ص ١٠٦ ـ ١٠٨ ٠

وفى القصيدة يقول :

وبانت ولم أحمَدْ اليك جوارَها
ولم ترجُ فينا ردةَ اليوم أو غدِ
أعاذل ان الرزءَ في مثل خالدٍ
ولا رزءَ فيما أهلك المرءُ عن يد
تنادوا فقالوا أردت الخيلُ فارسا
فقلت أعبدُ الله ذلكم الردى
وان يكُ عبدُ الله خلى مكانَه
فما كان وقّافا ولا طائشَ اليدِ

وقد التمسوا لدريد عذرا بأنه قال قصيدته « بعد قتل أخيه بسنة وحين أخذ ثأره وأدرك طلبته » (٤) .

على أن ابن رشيق لم يكن دقيقا فى حكمه ، فقد سقطت فى الشعر الجاهلى أشعار مبدوءة بالغزل ، من ذلك قصيدة المرقش الاكبر الذى رثى ابن عمه ، وقد بدأها بذكر الديار والغزل بأسماء ، ثم انتقل الى الرثاء ، والقصيدة هى التى أولها : (٥)

---

(٤) العمدة ٢/١٥٢ .
(٥) المفضليات ص ٢٣٧ .

هل بالديار ان تُجيبَ صممْ

لو أن رسما ناطقـــا كلَّمْ

ومهد أبو ذؤيب الهذلى لرثاء نشيبة بن محرث بالغزل بأم عمرو فـى قصيدته التى أولها : (٦)

هل الدهرُ الا ليلةٌ ونهارُها

والا طلوعُ الشمس ثم غيارُها

وكذلك يبدأ لبيد رثاءه لاخيه أربد فى احدى قصائده بذكر المـرأة فيقول : (٧)

طَرِبَ الفؤادُ وليته لم يَطْربِ

وعناهُ ذِكرى خُـلَّةٍ لم تَصْقَبِ

ونلاحظ أن هذه القصائد جميعا تبدأ بالغزلْ وفيها ألم وشكوى وعتاب

---

(٦) ديوان الهذليين ١/٢١ ٠

(٧) ديوان لبيد ص ١٥٦ ٠ وكذلك بدأ ربيعة بن جحدر اللحيانى قصيدته فى رثاء أثيلة بن المتنخل بالغزل (شرح أشعار الهذليين ـ السكرى ٢/٦٤٤) وتغزل غوية بن سلمى بن ربيعة بأمامة فى قطعة يرثى بها قومه (شرح الحماسة ـ المرزوقى ١/١٠٠٢) ٠

وروح حزين ، كل ذلك يمهد للانتقال الى الرثاء ، أى أن الجو السائد فى القصائد هو جو حزين ، فيه ألم وشجا وحكمة وتفكر ، ولذلك ينتقل لبيد الى الرثاء بقوله : انه لم يطع العواذل وقد زجر قلبه عن الصبا والهوى ، وعدل عما هو فيه الى الرثاء فقال متعزيا : (١)

فتعزَّ عن هذا وقل في غيره

واذكر شمائِلَ من أخيك المُنْجِبِ

يا أربدَ الخيرِ الكريمَ جُدودُه

أفردتني أمشي بقَرْنٍ أعضَبِ

وكثيرا ما يكون حديث الشاعر مع المرأة فى القصيدة وسيلة الى ذكر الميت ، وانه لا يعنيه فراقها وصرمها ، فقد شغله أمر مفجع وخطب شديد ، كما فعل متمم بن نويرة ، الذى لا يبالى بفراق حبيبته ، بل قد سعى الى ذلك الفراق ، يقول : (٢)

صرمت زُنَيبَةُ حبلَ من لا يقطعُ

حبلَ الخليل ولَلأمانةَ تفجَعُ

---

(١) ديوانه ص ١٥٦ .
(٢) المفضليات ص ٤٨ ـ ٤٩ وشعر مالك ومتمم ص ٩٣ .

ولقد حرَصتُ على قليل مَتاعِها

يومَ الرحيل فدمعُها المستنفَعُ

جُذّي حبالَكِ يا زُنيبَ فانني

قد أستبدُّ بوصلِ من هو أقطعُ

والرثاء حزن وبكاء ولوعة وتفجع ، ولذلك كان طبيعيا أن يكثر فى هذا الشعر الحديث عن العين والدموع وغزارتها وحرقة العين واباءها الغمض والنوم ، فمتمم بن نويرة يصور غزارة دموعه بأن عينيه كأنهما دلو ممزق تجرى مياهه فتروى الديار والزروع (٣) ، وهذه الصورة ـ صورة القربة الممزقة ـ ترد فى شعر أبى ذؤيب الهذلى (٤) ، والخنساء (٥) ، ويقول عدى بن زيد العبادى فى رثاء نفسه : (٦)

ومــالي ناصرٌ الا نســـاء

أرامل قد هلكن من النحيبِ

يحدرن الدموعَ على عديٍ

كشنٍّ خانَه خرزُ الربيبِ

---

(٣) المفضليات ص ٢٧١ وشعر مالك ومتمم ص ١٠٢ .
(٤) ديوان الهذليين ١/٨٦ .
(٥) ديوانها ص ٢٥ .
(٦) ديوان عدى ص ٤٠ .

أما المتنخل الهذلى فقد زاد الصورة بأن جعل عينيه مكحولتين بالصاب فهما تجريان الدمع كما يجرى الماء من الدلو الممزق : (٧)

ما بالُ عينِك تبكي دمعُها خَضِل

كما وَهَيْ سَرِبُ الأخراتِ منبزِلُ

لا تفتأُ الدهرَ من سَحٍّ بأربعةٍ

كأنَّ إنسانَها بالصاب مكتحِلُ

وجعل أبو ذؤيب عينه لكثرة ما بكت ، كأنها سملت بالشوك فهى عور تبكى على أبنائه الخمسة : (٨)

فالعينُ بعدَهمُ كأن حِداقَها

سُمِلَتْ بشوكٍ فهي عُورٌ تدمعُ

أما الخنساء ففى عينها عوار ، وهــى كثـيرا ما تتحـدث عن عينيها وتناجيهما (٩) .

(٧) ديوان الهذليين ٢/٣٣ .
(٨) ديوان الهذليين ١/٣ .
(٩) ديوان الخنساء ص ٧٣ و٨٥ .

وقد أفتن شعراء الرثاء فى اظهار الصور واثارة المشاعر ، ولا شك أن أصدق الرثاء ما كان صادرا عن القلب ، وما كانت الفجيعة فيه أليمة شديدة ، وليس أشد من فجيعة رجل جاءه نعى أبنائه الخمسة الذين سقطوا واحدا بعد الاخر ، ففقدهم كلهم فى عام واحد ، ذلك هو أبو ذؤيب الهذلى ــ خويلد بن خالد ــ (١) فقد ذهب أولاده مع الجيش الفاتح لمصر ، فأصابهم الطاعون هناك والشاعر وان كان اسلاميا ، الا أنه عاش أكثر زمانه فى الجاهلية ، وأدرك الاسلام وأسلم وحسن اسلامه ، فشعره ــ كشعر أكثر المخضرمين من سكان البادية ــ ألصق بالشعر الجاهلى وصفاته وخصائصه ، وليس هناك قصيدة ــ فيما أحسب ــ تفوق هذه القصيدة بروعة معانيها وعمقها وانسانيتها وصدق عاطفتها ، ولذلك أوثر أن أختتم بمقطع منها الحديث عن فن الرثاء ، يقول أبو ذؤيب : (٢)

أمنَ المَنونِ وريبها تتوجعُ
والدهرُ ليس بمُعْتِبٍ من يجزعُ
قالت أُميمةُ ما لجسمكَ شاحبا
منذ ابتُذِلتَ ومثلُ مالكَ ينفعُ

---

(١) قال أبو عمرو بن العلاء : سئل حسان : من أشعر الناس ؟ قال حيا أو رجلا ؟ قال حيا ٠ قال : اشعر الناس حيا هذيل ، وأشعر هذيل غير مدافع أبو ذؤيب ٠ (طبقات الشعراء ص ١١٠) ٠

(٢) المفضليات ص ٤٢١ ــ ٤٢٢ والقصيدة طويلة فى ٦٥ بيتا ، يتحدث بعد هذه الابيات عن صراع حمار الوحش والثور مع الصائد وكلابه ، ومصرع البطل ليلتمس بذلك العزاء والسلوى من قوة الاقدار وهول الموت وحتميته ٠

أَم ما لجنبكَ لا يلائِمُ مضجعاً

الا أَقضَّ عليك ذاكَ المضجَـعُ

فأجبتُها أَمّـــا لجسمي أَنهُ

أَودَى بنيَّ من البلاد فودَّعُوا

أَودى بنيَّ وأَعقبوني غُصَّةً

بعدَ الرُقادِ وعَبْرةً لا تُقْلِـعُ

سبقوا هَوَيَّ وأَعنقُوا لهواهمُ

فتُخُـرِّموا ولكل جنب مصرعُ

فغبَرْتُ بعـدَهم بعيش ناصِبِ

واخـــال أني لاحـقٌ مستتْبَعُ

ولقد حَرِصتُ بأن أُدافعَ عنهم

فـــاذا المنيةُ أَقبلت لا تُدفَعُ

واذا المنيةُ أَنشبتْ أَظفـــارَها

أَلفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفـــعُ

فالعـــينُ بعدَهم كأن حِدَاقَها

سُمِلتْ بشوكٍ فهي عُورٌ تدمعُ

حتى كأني للحـــوادث مَرْوَةٌ

بصفا المُشَـرَّقِ كلَّ يومٍ تُقْرَعُ

وتجلُّدِي للشـــامتين أُرِيهُمُ

أني لريب الدهرِ لا أتضعضَعُ

والنفس راغبـــةٌ اذا رغَّبتَها

واذا تُرَدُّ الى قليـــلٍ تقنعُ

ولئِنَ بهم فجعَ الزمان وريبُه

إنّـي بأهـــل مَودّتي لمفجَّعُ

كم من جميعِ الشمل ملتئِم القُوَى

كانوا بعيشٍ قبلَنا فتصدَّعُوا

والدهرُ لا يبقَى على حـــدثانِه

جَوْنُ السَراةِ له جَدائِدُ أربَعُ

الهجاء

الهجاء تعبير عن عاطفة السخط والغضب تجاه شخص تبغضه او جماعة تنتقم منها ، والشاعر الهاجي ينفس بأهاجيه عما يعتلج فى صدره من ضغائن واحقاد ، ولذلك كان الهجاء سلاحا من أسلحة القتال ، يضعف الشاعر بـه معنوية خصومه ويرتبط بالوعيد والتهديد والانتقاص من أقدار الخصوم والبحث عن معايبهم •

ويرتبط الهجاء عادة بالحروب ويزدهر بازدهارها ، وكثيرا ما يسبقها ، فشأنه فى هذا شأن شعر الحماسة ، وكثيرا ما يختلط بالقصائد الحماسية ، وبخاصة الشعر الذى يتناول الهجاء القبلى •

والهجاء طبيعة فى النفس الانسانية ،جاء نتيجة تفاوت الناس فى حظوظهم من الرزق والجمال والجاه والسلطان ، والمنافسة عادة هى المحك الذى يدفع الناس الى الهجاء والتعبير عن شعورهم بالسخط تجاه الخصوم ، وقد كان الهجاء قديما أثرا من آثار حب الانتقام والتشفى والثأر وقد لازم الهجاء الانسان على مر العصور وان اختلفت وسائله وطرقه ، وكان الشعر وما زال الطريقة المثلى لفن الهجاء ، وكان النثر أقل صلاحا له ، وقد استعمل على نطاق ضيق ، كما

فى هجاء لبيد لبقلة تدعى التربة (١) ، وفى العصور المتأخرة استعمله الكتاب العباسيون على نطاق واسع ، مثلما فعل الجاحظ فى رسالة التربيع والتدوير(١) فى هجاء أحمد بن عبد الوهاب وقد تكفلت الصحافة فى العصر الحديث بهجاء المعارضين والخصوم ، كما أدخلت فن (الكاريكاتير) للسخرية بالخصم وتجسيد معايبه .

وقد كان هم الشعراء الهجائين الانتقاص والنيل من خصومهم واضحاك الناس منهم ، ولذلك كان جرير - وهو من أعلام الهجاء - يوصى بقوله : « اذا هجوت فأضحك » (٣) ، وقد برع فى هذه الناحية ابن الرومى فقد كان يصور خصومه بصور هازئة مضحكة كما فى تصويره البخيل الذى يتنفس لتقتيره من منخر واحد ، او وصفه الاحدب المصفوع ، او كقول جرير فى هوان تغلب : (٤)

لو أن تغلب جمّعت أحسابها

يوم التفاضل لم تزن مثقالا

ويقال ان بشارا كان يعد أشد ما هجى به قول حماد عجرد الذى عمد الى عنصر الاضحاك من المهجو : (٥)

---

(١) أمالى المرتضى ١/١٩٠ وينظر لبيد بن ربيعة ص ١٠٦ .
(٢) رسالة التربيع والتدوير تحقيق شارل بلات طبع المعهد الفرنسى دمشق ١٩٥٥ .
(٣) العمدة ٢/١٧٢ .
(٤) ديوان جرير .
(٥) الاغانى ١٤/٣٣٣ .

ويا أقبـــحَ من قردٍ

إذا مـــا عَمِيَ القـــردُ

ولا شك ان نشأة الهجاء كانت مرتبطة بالعصبيات القبلية ، وما تثيره من حروب وأحقاد ، فالشاعر لسان القبيلة الذى يذب عنها ويهجو خصومهـــا ، ولذلك تجد الهجاء مرتبطا بالفخر من ناحية وبالمديح من ناحية ثانية ، مرتبطا بالفخر حين يكون هجاء قبليا تحركه الحروب او رغبة فى الانتقام أو الثأر ، ومرتبطا بالمديح حين يتوجه الشاعر الى مديح شخص يرجو نوالـه فيعرض بخصم ممدوحه وينال منه ، فيقيم هجاءه على عنصر المفاضلة والمخايرة ، وهـذا أشد الهجاء وأقبحه ولذلك حين نهى عمر بن الخطاب الحطيئة عن الهجاء المقذع سأله الحطيئة: وما المقذع ؟ فأجاب: « أن تقول هؤلاء أفضل من هؤلاء وأشرف، وتبنى شعرا على مدح لقوم وذم لمن تعاديهم » . (١) وكان الحطيئة قـد مدح بغيضا وهجا الزبرقان بقوله : (٢)

ما كان ذنبُ بغيضٍ أن رأى رجلا

ذا فاقةٍ عاش في مستوعرٍ شاسِ

جارا لقومٍ أطالوا هُونَ منزلهِ

وغادروهُ مقيما بين أرمَاسِ

(١) العمدة ٢/١٧٠ .
(٢) ديوان الحطيئة ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ .

مَلّوا قِراهُ وهرَّتْهُ كلابُهم

وجرّحوه بأنياب وأضراسِ

وقد عزا العرب القدامى الاثر الذى يتركه الهجاء فى النفوس الى فعل السحر ، وقرنوا بين السحر والهجاء للغموض الذى يحيط بهما والرهبة التى يتركها السحر والهجاء فى النفوس ، ولذلك عزوا الهجاء الى ايحاء وعون الشياطين وزعموا ان لكل شاعر تابعا أو هاجسا من الجن ، فالشاعر حين يهجو يستعين بشيطانه لاستمطار اللعنات على خصومه ، كما يستعين الساحر بالارواح الشريرة على الحاق الاذى بمن يريد سحرهم ، وقد ذكر الشعراء أنفسهم أن لهم شياطين تعينهم على الشعر وسموا تلك الشياطين ، يقول الاعشى انه استعان بشيطانه (مسحل) على هجاء خصومه الذين دعوا شيطانهم (جهنام) : (٣)

فلما رأيت الناسَ للشر أقبلوا

وثابُوا الينا من فصيحٍ وأعجَمِ

دعوت خليلي مِسحَلا ودَعوا له

جَهنّامَ جدعا للهجين المذمّمِ

حباني أخي الجني نفسي فداؤه

بأفيح جيّاش من الصدر خضرم

---

(٣) ديوان الاعشى ص ٩٥ ـ ٩٦ ٠

وكذلك صور سويد بن أبى كاهل خصومته مع شاعر آخر فأعانه شيطانه وظهر على شيطان خصمه فجعله يولى هاربا : (٤)

فرَّ مني هـاربا شيطانُه
حيثُ لا يُعطى ولا شيئا منعْ

وأتاني صـاحبٌ ذو غَيِّثٍ
زَفَيانٌ عند انفادِ القُرَعْ

قـال لبَّيكَ وما استصرَختُه
حاقرا للناس قوَّالَ القَذَعْ

ذو عُبـاب زَبِـدٌ آذِيُّه
خَمِطُ التيّارِ يَرمي بالقِلَعْ

وقد افتخر أبو النجم العجلى فى مراجزة العجاج بان شيطانه ذكر وشيطان غيره أنثى : (٥)

---

(٤) المفضليات ص ٢٠١ ــ ٢٠٢ ·
(٥) الشعر والشعراء ص ٦٠٣ وينظر الحيوان ٢٢٩/٦ فيه أخبار واشعار عن شياطين الشعراء ·

انى وكلُ شـــاعرٍ من البشر

شيطا'نه انثى وشيطاني ذكرْ

ومن طريف ما يروى أن جريرا حين هجا الراعى وابنه بقصيدته التى يقول فيهـا : (٦)

فغض الطرفَ إنك من نُمَيرٍ

فلا كعباً بلغتَ ولا كِلابا

رحل الراعى وابنه فلما وصل الى قومه وجـــد الشعر قد سبقه اليهم ، ويقسم الراعى بالله ما بلغها انسى ، وان لجرير لاتباعا من الجن ، فتشاءمت به بنو نمير وسبوه وسبوا ابنه (١) ٠

ولصلة الشعر هــذه بالسحر ، نسبوا القوة الخفيــــة الى الشر فقالوا : (شيطان الشعر) ، ولم ينسبوها للخير فيقولوا : (ربة الشعر) كما كـــان اليونان يفعلون (٢) ٠ ولعل هذه الصلة ـ صلة الشعر بالسحر والشياطين ـ ان كان الشعراء عند الهجاء يلبسون أزياء غريبة ويمسخون هيئاتهم كما يفعل السحرة، وقدروى عن لبيد حين هاجى الربيع بن زياد فى مجلس النعمان ،

(٦) ديوان جرير ص ٨٢١ ٠
(١) خزانة الادب ١/٣٥ ٠
(٢) الهجاء والهجاؤون فى الجاهلية ص ٥٩ ٠

وكان الربيع يكيد لقومه الجعفريين من بنى عامر ، فأدخل لبيد على النعمان وقد حلقوا رأسه وتركوا له ذؤابتين ، وألبسوه حلة ، وقد دهن أحد شقى رأسه وأرخى ازاره وانتعل نعلا واحدة ثم صار يهجو خصمه ، ويقول المرتضى : « وكذلك كانت الشعراء تفعل فى الجاهلية اذا ارادت الهجاء » (٣) • ولهـذا كان العرب يخشون الهجاء لارتباطه بالسحر واللعنات ، ويرون ان شعر الهجاء يجلب النحس ويورث الشر والمرض ، وما الهجاء الا دعوة ساخطـة يدعوها ساخط او غاضب ، يروى أن قريشا حين أخذت خبيبا لتصلبه دعـا عليهم ، فألقى أبو سفيان ابنه معاوية أرضا خوفا من دعوة خبيب ، وكان خبيب قد قال : « اللهم احصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تغادر منهم احدا » وكانت العرب تزعم ان الرجل اذا دعى عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه (٤) وقد كانـوا اذا أسروا شاعرا شدوا لسانه لئلا يهجوهم ، كما فعلت تميم مـع عبد يغوث بن صلاءة الذى يقول : (٥)

أقول وقد شدُّوا لساني بِنِسْعَةٍ

أمعشرَ تَيْمٍ أطلقوا عن لسانيا

وكانت العرب تخشى الهجاء وتفرق منه وبخاصة الاشراف ، فقد كانوا يبكون بالدموع الغزار من وقع الهجاء ، كما بكى مخارق بن شهاب وعلقمـة ابن علاثة ، وكذلك عبد الله بن جدعان وكان هجاه خداش بن زهير (٦) •

(٣) أمالى المرتضى ١/١٩١ وتاريخ العرب الادبى ص ١٢٩ •
(٤) السيرة النبوية ٣/١٧٣ •
(٥) المفضليات ص ١٥٧ والبيان والتبيين ٤/٤٥ •
(٦) الحيوان ١/٣٦٤ •

وقد كان من خوفهم من الهجاء وأثره في نفوسهم انهم اذا هجاهم شاعر بسوءة – ولو كانت مفتراة – فانهم يتوارون منها خجلا ، لانها تلازمهم وتلصق بسمعتهم ، من ذلك ما كان من أمر بني العجلان الذين كانوا يباهون بلقب جدهم وهو عبد الله بن كعب العجلان ، سمي بذلك لتعجيله القرى للاضياف ، وظل هذا اللقب مصدر فخر وزهو لهم ، حتى هجاهم قيس بن عمرو النجاشي بقوله :

أولئك أخوالُ اللعين وأُسرةُ الـ
ـهجين ورهط الواهِن المتذلّلِ

وما سُمِّيَ العجلانَ الا لقولهم
خذ القَعْبَ واحلبْ أيها العبدُ واعجلِ

فصار هذا اللقب سوءة وسبة ، وكان أحدهم اذا سئل : ممن الرجل ؟ أجاب : كعبي ، أي من بني كعب متجاوزا عن العجلان (١) . وكذلك كان حال بني عبد المدان الذين بارك الله لهم بسعة الصدور وطول الاجسام وغلظها، فكانوا يفخرون بذلك على غيرهم حتى كسفهم حسان حين هجاهم بقوله : (٢)

لا بأْس بالقوم من طول ومن غِلَظٍ
جسم البغال وأَحلام العصافير

(١) زهر الآداب ١/١٩ .
(٢) ديوان حسان ص ٢١٤ والعقد الفريد ٥/٣٢٨ .

فصاروا يتوارون من الناس ويضائلون اجسامهم خجلاً من غلظها •

وقد بلغ من أثر الهجـــاء فى نفس النعمان بن المنذر ان طرد صاحبه ونديمه الربيع بن زياد لفرية افتراها لبيد ، فقد هجاه ورماه بالبرص حين كان الربيع يؤاكل النعمان ، قال : (٣)

مهلا أبيتَ اللعنَ لا تأكلْ معهْ
ان استَهُ من بَرَصٍ ملمَّعَهْ
وانه يُدخلُ فيها اصبعَهْ
يدخلُها حتى يوارى أشجَعَهْ
كأنه يطلب شيئا أودَعَهْ

فسخط النعمان ونفر من الربيع وأمره بالانصراف الى أهله ، ولم ينفعه بعد ذلك اعتذاره •

وكان أشراف الناس ووجوه القوم وذوو المكانة فيهم من القادة والرؤساء، هم أشد الناس خوفا من الهجاء وفرقا منه ، ولذلك يتصدى شعراء الهجـــاء لذوى الشرف والمكانة من الناس والقبائـل ويسلم مـن الهجـاء صغار القوم والقبائل الخاملة ، يقول الجاحظ : « واذا بلغ السيد فى السؤدد والكمال حسده

(٣) أمالى المرتضى ١/١٩١ ـ ١٩٣ وانظر لبيد بن ربيعة ص ١٠٦ •

من الاشراف من يظن أنه الاحق بـه ، وفخرت به عشيرته ، فلا يزال سفيه من شعراء تلك القبائل قد غاضه ارتفاعه على مرتبة سيد عشيرته فهجاه ، ومن طلب عيبا وجده ، فان لم يجد عيبا وجد بعض ما اذا ذكره وجد من يغلط فيه ويحمله عنه ، ولذلك هجى حصن بن حذيفـة ، وهجى زرارة بن عدس ، وهجى عبد الله بن جدعان ، وهجى حاجب بن زرارة » (٤) • ولهذا كانت القبائل تعتز بشعرائها الذين يذبون عنها وينوهون بشرفها ويردون خصومها ، وكانت منزلة الشاعر الذائذ عن حياض قبيلته رفيعة كريمة ، وكان يقدم على الخطيب، كما روى الجاحظ عن ابى عمرو بن العلاء : « كان الشاعر فى الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم الى الشعر الذى يقيد عليهم مائرهم ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم من غزاهم ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهـم » (٥) • وابـو عمرو هنا يبين وظيفة الشاعر في القبيلة ويحدد واجباته في الذب عن قومه ، ولذلك كان الشعر سلاحا من أسلحة الحرب ، ووسيلة من وسائل القتال فى الدفاع او الهجـــوم •

ولعل هدبة بن الخشرم أوضح من بين واجبه تجاه قبيلته وشحذ لسانه لهجاء من يعاديها وشهر شعره سلاحا للذود عنها ، يقول : (١)

انى من قضاعةَ من يكدْهَا

أكدْهُ وهي مني في أمانِ

---

(٤) الحيوان ٢/٩٣ •
(٥) البيان والتبيين ١/٢٤١ •
(١) شرح الحماسة ـ المرزوقى ١/٤٧٢ ـ ٤٧٣ •

ولستُ بشاعرِ السَفْسَافِ فيهم

ولكن مدره الحرب العَوان

سأهجو من هجاهم من سواهم

وأعرض منهم عمَّنْ هجاني

ويوضح حيان بن ربيعة كيف تتظافر السيوف والشعر عند استعار نار الحرب ، فيتناولون خصومهم بسلاح الشعر واسلحة الحديد : (٢)

لقد علم القبائلُ أن قومي

ذوو جدٍ اذا لُبِس الحديدُ

وأنّا نعم أحلاسُ القوافي

اذا استعر التنافرُ والنشيدُ

وأنّا نضرب الملحاءَ حتى

تولّى والسيوف لنا شهودُ

وقد صور جرير فى محاورة له مع الراعى كيف وظف لسانه فى خدمة

---

(٢) المصدر السابق ١/٢٨٨ ـ ٢٨٩ .

قبيلته ، فيشهر هجاءه بوجه من يتصدى لها ، ففى الاغاني: « لقي جرير الراعي فقال له : ان أهلك بعثوك مائرا ، وبئس والله المائر أنت ، وانما بعثني أهلي لاقعد لهم على قارعة هذا المربد فلا يسبهم أحد الا سببته ، فان على نذرا ان كحلت عيني بغمض حتى أخزيك » (٣) .

وقد نظر النقاد القدامى فى الهجاء ، فرأوا أن أشده وقعا فى النفوس وأكثره ايلاما ما كان صادقا عفيفا لا فحش فيه ولا اقذاع ، وقد كان أبو عمرو ابن العلاء يقول : « خير الهجاء ما تنشده العذراء فى خدرها فلا يقبح بمثلها ، نحو قول أوس :

اذا ناقةٌ شُدَّت برحل ونمرقٍ

الى حيكم بعدي فضلَّ ضلالُها (٤)

وكأنه نظر الى الهجاء المقذع على انه سباب وشتيمة يستطيع ان يتفوق فيهما عامة الناس ، والهجاء الذى يبقى عالقا فى النفوس هو الذى تكون صياغته جميلة ، ومعانيه عميقة ذات دلالة ، تنال من المهجو بأسلوب ذكى طريف ، كأن يتخذ طريقة الاستهانة بالخصم أو تجاهله او التشكيك به كما فعل زهير ابن أبى سلمى فى آل حصن اذ قال : (٥)

---

(٣) الاغاني ٢٠/١٧٠ ط بولاق .
(٤) العمدة ٢/١٧٠ وفي ديوانه ص ١٠٠ : الى حكم بعدى .
(٥) ديوان زهير ص ٧٣ ـ ٧٤ والعمدة ٢/١٧١ .

وما أدري وسوف أخالُ أدري

أقومٌ آلُ حصنٍ أم نساءُ

فان تكن النساءُ مخبّآتٍ

فحُقَّ لكل مُحْصنةٍ هِدَاءُ

وقد عد النقاد هذا الشعر من أشد الهجاء وأمضه ، مع أنه ترفع عن السباب والقذف والافحاش ويكون هـذا مصداقا لرأى الجرجانى فى جيد الهجاء : « فأما الهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت ، وما اعترض بين التصريح والتعريض ، وما قربت معانيه وسهل حفظه ، وأسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس ، فأما القذف والافحاش فسباب محض ، وليس للشاعر فيه الا اقامة الوزن وتصحيح النظم » (١) ، ولا شك ان عفة الهجاء وصدقه من أسباب نجاحه وسيرورته على الالسن ، لان الناس لا تصدق الكاذب المفترى المتحامل ، ولكن اذا رأت فى الهجاء شيئا من الحقيقة تميل مع الشاعر فى تصديقه فى كل ما يهجو به صاحبه ، وقد أدرك خلف الاحمر هـذه الحقيقة فقال : « أشد الهجاء ما عف لفظه وصدق معناه » (٢) .

وللشعراء فى هجائهم طرق وأساليب ، فمنهم الـذى يحتال فى اتخاذ الوسائل الهادئة الذكية الموجعة ، كأن يهزأ بخصمه او يسفه رأيه او يقارنه بغيره ويفضل عليه عن طريق التعريض والتلميح ، ومنهم الذى يهجم على خصمه فيذكره صراحة وينهال عليه تهديدا ووعيدا وانـذارا وشتيمة ، ولا

---

(١) الوساطة ص ٢٣ .
(٢) العمدة ٢ / ١٧١ .

شك ان الاسلوب الاول أحذق وأليق وأشد ذكاء وأكثر ايجاعا ، فهو فى هجائه يكسب السامع او القارىء ولا ينفره ، فى حين ان الثانى يبدأ بالخصومة ويجاهر بالعداوة فيميل السامع الى المهجو على انه مظلوم معتدى عليه .

وقد مر بنا كيف ان زهيرا حين هجا آل حصن شكك فيهم وتجاهل قدرهم ونال من خصومه بمنطق وحسن احتيال ، وهو بارع فى هجائه يتبع فى قصيدته اسلوب النصح وبيان العواقب واظهار السوآت، ويمزج كل ذلك بشىء من الانذار والتخويف ، يقول : (٣)

واما أن يقول بنو مَصَادِ
اليكم اننا قوم بَراء

واما أن يقولوا قد أبينا
وشرُّ مواطن الحَسَب الإباءُ

واما أن يقولوا قد وَفَينا
بذمتنا وعادتُنا الوفاء

فان الحق مقطعُه ثلاثٌ
يمينٌ أو نِفَارٌ أو جَلاءُ

(٣) ديوانه ص ٧٤ ـ ٧٥ و٨٤ ـ ٨٥ .

فمهلا آلَ عبد الله عَدُّوا

مخازيَ لا يُدبّ لها الضَّراءُ

أرونا سُنَّةً لا عيبَ فيها

يُسوَّى بيننا فيها السَّواءُ

فان تَدَعوا السَّواءَ فليس بيني

وبينكُم بني حِصنٍ بَقاءُ

ويبقى بينَنا قَذَعٌ وتُلْفَوا

إذاً قوما بانفسهم أساءُوا

وتوقدْ نارُكم شررا ويُرفع

لكم في كل مجمَعَةٍ لِواءُ

فنرى زهيرا اتبع اسلوب النصح ودعاهم الى الروية والتبصر بالعواقب وايثار القصد ، وحاجهم محاجة منطقية ، فان لم يلتزموا السبيل السوى فانه سوف ينالهم بلسان سليط وهجاء شديد ولا يلومون بعدها الا انفسهم • ويقال ان آل حصن جاءوا بعدهذه القصيدة الى زهير يعتذرون اليه •

ومن الشعراء من تناول خصمه بالهجاء الساخر ، فاستهزأ به وتجاهل قدره وحط من شأنه وانكر عليه فخره ، وسلبه كل مكرمة ، كما فعل الحطيئة

في هجاء قدامة العبسي وقومه : (١)

قدامةُ أمسى يَعْرُكَ الجهلُ أنفَهُ

بجدَّاءَ لم يُعْرَكْ بها أنفُ فاخرِ

فخرتم ولم نعلم بحادثِ مجدكم

فهاتِ هَلُمَّ بعدها للتنافرِ

ومن أنتم انّا نَسِينا من اَنتمُ

وريحُكم من أي ريحِ الأعاصرِ

فهذي التي تاتي على كلِ منهجٍ

تبوعُ أم القَعواءُ خلفَ الدوابرِ

متى جئتمُ إنَّا رأينا شخوصَكم

ضِئالا فما ان بيننا من تفاكُرِ

وأنتم أولي جئتم مع البَقْلِ والدَّبا

فطار وهذا شخصُكم غيرُ طائرِ

---

(١) ديوان الحطيئة ص ٣١٠ .

أريحوا البلادَ منكمُ ودَبيبكُمْ

باعراضنا فِعلُ الإماءِ العَواهِرِ

ومن أخبث الهجاء ذلك الذى يتخذ شكل المقارنة والمخايرة ، فيوازن الشاعر بين من يريد هجاءه وبين من يريد مدحه ، فيجعله أقل شأنا ، فيشعره بالضعة والحقارة والانحطاط ، وقد برع الحطيئة فى هذا الضرب من الهجاء أيضا ، فتراه يقول هاجيا الزبرقان بن بدر ، ومادحا بنى أنف الناقة : (٢)

ألم أكُ جارَكم فتركتموني

لكلبي في ديارِكُم عُوَاءُ

وآنيتُ العَشاءَ الى سُهيلٍ

أو الشِّعرى فطال بيَ الأَناءُ

فلما كنت جارَكُم أبيتم

وشرُّ مواطنِ الحَسبِ الإباءُ

ولما كنتُ جارَهم حَبوْنِي

وفيكم كان لو شئتم حِبَاءُ

(٢) ديوانه ص ٩٨ .

والهجاء بعامة يقوم على سلب المعانى الكريمة والمثل العليا ، فالشاعر انما يهجو خصمه بالغدر والخيانة والجبن والقعود عـن المكارم والهزيمـة واللؤم والبخل والنزق والطيش ، وما الى ذلك من الصفات التي يراها العربى عارا يبرأ منـه .

ويتميز الهجاء الجاهلى بخصائص ابرزها : قصر قصائد الهجاء ، فأكثره مقطعات وأبيات ، ويرون أن قصر الهجاء وعفته هما أول أسباب رواجه وشهرته، والعفة أمر ظاهر فى هـذا الشعر فلم ينحـدر الى الاقـذاع والشتم الواضح والفحش الا الحطيئة فى بعض أبياته ، وشعرهم أقرب الى اللوم والعتـاب منه الى البذاءة والاقذاع ، وقد كان النابغة بارعا فى هجائه العفيف الشديد الموجع ، فهو لا يغضب القبيلة حين يهجو فارسها ، وانمـا يحط مـن قدره بأن يقارنه بأعيان قومه فيمدحهم ويؤخره عنهم ، فيكون هجاؤه اياه أقسى من النيل منه صراحة ، يقول النابغة مجيبا عامر بن الطفيل بعد معركة حسى : [١]

ان يكُ عامرٌ قد قال جهلا

فان مظِنَّةَ الجهل الشبابُ

فانك سوف تحلم أو تناهى

اذا ما شِبْتَ أو شابَ الغُرابُ

فكن كابيكَ أو كابي براءٍ

توافقك الحكومةُ والصوابُ

(١) ديوان النابغة ص ١٥٥ ـ ١٥٦ .

التصريح ، فالتعريض يصحبه شيء من التشكيك والتحريض والاثارة •

وضرب آخر من الهجاء يتناول الخصم صراحة ويهاجمه مهاجمة سافرة ، فيوعد ويهدد وينذر ويقذف بالشتيمة الصريحة والسباب الواضح ، وقد يتناول هذا الضرب الاعراض والعورات ويجاهر بالفحش والاقذاع ، يقول أوس بن مغراء فى هجاء بنى عامر : (٥)

فلست بعافٍ عن شتيمةِ عامرٍ
ولا حابسي عما أقولُ وعيدُها

ترى اللؤمَ ما عاشوا جديدا عليهم
وأبقى ثيابَ اللابسين جديدُها

لعمرك ما تبلى سرابيلُ عامرٍ
من اللؤم ما دامت عليها جلودُها

وقد ينحدر بعض الشعراء نحو الافحاش والاقذاع ، وهذا قليـل فى الشعر الجاهلى ، نجد أبياتا منه فى شعر الحطيئة ، وقد بلغ هـذا الضرب على يدى جرير والفرزدق مبلغا من السوء والاقذاع على ما تصوره النقائض بين الشاعرين ، وبين جرير والاخطل كذلك •

---

(٥) نقد الشعر ص ٩٥ •

ومشهور قوله في مدح بني أنف الناقة والتعريض بقوم الزبرقان بن بدر : (٣)

قومٌ همُ الأنفُ والأذنابُ غيرُهم

ومن يسوّي بانفِ الناقة الذَنبا

او قول الشاعر ربيعة بن عبد الرحمن الرقي في المقارنة والتفضيل بين مهجوه وممدوحه : (٤)

لشتان ما بين اليزيدين في الندى

يزيدِ سُليم والأغرِ ابن حاتم

فهمُّ الفتى الأزدي اتلافُ مالِه

وهمُّ الفتى القيسي جمعُ الدراهمِ

فلا يحسَبُ التمتامُ أني هجوتُه

ولكنني فضلت أهلَ المكارمِ

ومن الشعراء من يعرض بمهجوه تعريضا ، وهذا أقسى واشد من

(٣) ديوانه ص ١٢٨ .
(٤) العمدة ٢/١٧٣ .

ولا تذهبْ بحلمك طافياتٌ
من الخُـيَلاء ليس لهن بابُ

فكان وقع هذا الهجاء الذى اتخذ طابع النصح والموعظة شديدا موجعا .

وقد كانت صور الهجاء مستمدة من البيئة الجاهلية ومن العرف السائد والمثل التى تعارف عليها الناس ، فالكرم مفخرة لدى العرب ، واللؤم والبخل أقسى ما يهجى به المرء ، ولذلك رأوا فى هجاء الاعشى لعلقمة بن علاثة وقومه بأنهم ينامون ملاء البطون وجاراتهم ساغبات يتضورن من شدة الجوع ، رأوا فى هجائه قذفا فاضحا وسبه شديدة ، جعلت علقمة بن علاثة يبكى حين سمع قولـه : (٢)

تبيتون في المشتَى مِلاءً بطونُكم
وجاراتُكم غَرثَى يبِتنَ خمائِصَا

وقال : أنحن نفعل هذا بجاراتنا ؟

ومن الشعراء من كان يترفع عن الهجاء ويراه ضعة ، فقد قيل لصخر بن عمرو عند رثاء أخيه معاوية : أهج قتلته ، فقال : ما بيننا أجل من القذع ولـو لم أكفف نفسى الا رغبة عن الخنا لفعلت ، وقال : (٣)

---

(٢) ديوان الاعشى ص ١٠٩ والاغانى ٩/١٢١ .
(٣) الاغانى ١٥/٩٩ .

وقد هيأته ظروفه وبيئته ونفسيته ليكون هجاء سليط اللسان .

وقد شاركت النساء فى هذاالفن بقدر يسير ، ففى شعر النساء قطع فيها هجاء وتعبير عن عواطف السخط والغضب ، نجد فى هجاء الخنساء لدريد بن الصمة حين خطبها فردته ، ثم هجاها فأجابته تهجوه بسوء الخلقة والبخل والفقر والجبن : (٤)

مَعاذَ اللهِ يرضعُني حَبَرْكَى

قصيرُ الشِّبْرِ من جُشَمِ بنِ بكرِ

يرى شرفا ومكرُمَةً أتاها

اذا أغذى الجليسَ جَرِيمَ تمرِ

لئن أصبحتُ في جُشَمٍ هديّاً

اذا أصبحت في ذُلٍّ وفقرِ

قُبيِّلةٌ اذا سمِعوا بذعرٍ

تخفى جمعُهم في كلِ جُحْرِ

وقد تضيق المرأة بزوجها فتتناوله بالهجاء والتقبيح وتدعو عليه بالفراق والهلاك

---

(٤) ديوان الخنساء ص ١٢٠ ـ ١٢١ والاغانى ١٥/٧٧ وفى روايته خلاف .

البساطة والوضوح ، فشعره وليد البديهة الحاضرة ، فاذا سئل عـــن التغلبى أجاب بديهة : (٢)

والتغلبيُ إذا تنحنحَ للقِرَى

حكَّ أستَهُ وتمثَّلَ الأمثالا

أما الاخطل ، فكان يجود فى هجائه ويتكلف ، فيخرج هجاؤه مصنوعا وليد الذهن المكدود والخاطر البطىء المتأمل ، فلا يفهم هجاؤه الا بعد اعـادة نظر ، وقد غلب جرير الفرزدق لان الفرزدق كان يعتمد الاقذاع والفحش ، وكان هجاؤه صريحا مكشوفا ، أما جرير فقد كان يعمـــد الى التلميح دون التصريح ، وهذا أشد وقعا وأبعد دلالة ، فهو حــين يرمى نساء بنى نمـير لا يصرح بأنهن يخرجن بالليل لفاحشة ، ولكنه يلمح الى ذلك بقوله : (٣)

اذا قامت لغير صلاةِ وتْرٍ

بُعَيدَ النوم أنبحتِ الكِلاَبا

أما الشعراء الذين برزوا فى هذا الفن ، وتميزوا عن غيرهم ، وأطالوا فيه وأكثروا ، فأشهرهم ثلاثة : الحطيئة والاعشى وحسان بن ثابت ، ولكـل منهم نهج خاص به ، وأسلوب تميز به عن غيره ٠ وكان الحطيئة أعلاهم صوتا ، وأخبثهم لسانا ، وأشدهم هجاء ، فلم ينازعه فى هذا الضرب منازع ، لانه نشأ

---

(٢) ديوان جرير ص ٣٦٢ ٠
(٣) ديوانه ص ٦٢ ٠

وعاذلةٍ هبّتْ بليلٍ تلومُني

ألا لا تلوميني كفي اللوم ما بِيا

تقول ألا تهجو فوارسَ هاشمٍ

وما لي اذ أهجوهمُ ثم ما ليا

أبى الشتم أنى قذ أصابوا كريمتي

وأن ليس إهداءُ الخَنا من شماليا

ومن طريف ما يروى فى هـذا ، ان حسان بن ثابت قـال للخنساء : « أهجى قيس بن الخطيم ، فقالت : لا أهجو أحدا أبدا حتى أراه ، قـال ، فجاءته يوما فوجدته فى مشرفة ملتفا فى كساء له ، فنخسته برجلها وقالت : قم ، فقام ، فقالت : أدبر ، فأدبر ، ثم قالت : أقبل ، فأقبل ، قال : والله لكأنها تعترض عبدا تشتريه ، ثم عاد الى حاله نائما ، فقالت : والله لا أهجو هذا أبدا » (١) ، فالخنساء رأت فى قيس بن الخطيم ما تراه فى الرجـل المهيب الكامل ، فلـم تستطع ان تكذب وتفترى فى هجائه .

وعماد أسلوب الهجاء الوضوح والبساطة وقلة الصنعة والتكلف ، لان الهجاء وليد الفطنة وسرعة الخاطر واللمحة الدالة ، وهذا يتجافى مع التقعر والتكلف واطالة التفكير ، ولذلـك يعزى تفوق جرير فى هجائه الى هـذه

(١) الاغانى ٣/١٠ .

وابداله بخير منه ، كما فعلت أم الصريح بنت أوس الكندية فى هجاء زوجها ابى الصريح الكليبى ، اذ تقول : (١)

كأن الدار يوم تكون فيها

علينا حفرة ملئت دخانا

فليتك في سَفين بني عباد

طريدا لا نراك ولا ترانا

وليتك غائبٌ بالهند عنا

وليت لنا صديقا فاقتنانا

ولو أن النذور تكف منه

لقد أهديتُها مائةً هِجَانا

وللخرنق قطع فى هجاء عبد عمرو بن بشر الذى وشى بأخيها طرفة الى الملك عمرو بن هند فقتله (٢) ، وكذلك هجت دختنوس النعمان بن قهوس التميمى الذى فر فى يوم شعب جبلة وترك أباها لقيط بن زرارة فقتل ، فكانت تهجوه وتعيره بالجبن والفرار (٣) .

---

(١) بلاغات النساء ص ١١٨ وينظر المرأة فى الشعر الجاهلى ص ٦٣٨ - ٦٣٩ .

(٢) ديوان الخرنق ضمن رياض الادب ص ٣٦ - ٣٧ . وجمهرة أشعار العرب ص ٧٧ .

(٣) الاغانى ١١/١٣٣ - ١٣٤ .

وهجاء النساء بعامة عفيف لا فحش فيه ، قصير فى أبيات او قطع ، وهو على العموم قليل ، وأكثره قيل بعد المعارك والحروب مرتبطا بالبكاء على القتلى والسخط على القاتلين .

وكان المؤمل أن يكثر الهجاء بين النساء الضرائر خاصة ، ولكن ما وصل من ذلك قليل ضئيل الشأن ، ويعلل الحوفى ذلك ، بأن المرأة كانت « تقنع بالكيد والاغارة والنظرات الشزر والكلمات المرة والحركات الساخرة ، ثم هى تأنف ان تسجل على نفسها أنها دون ضرتها وأن زوجها يؤثر ضرتها عليها » (٤) ومن صور ذلك قول امرأة تهجو زوجها وضرتها : (٥)

لا خَارَ ربي لابي الفصيل

ولا وقاه عَثرةَ الذَلُولِ

بَدَّل مني أخبثَ البديل

هوجاءَ مَقَّاءَ كشبه الغول

تحمل رِدْفاً واسع الفضول

مثل إهاب المِنْحَةِ المنجُولِ

يبيت فيه الذئب أو يقيل

---

(٤) المرأة فى الشعر الجاهلى ص ٦٣٧ .

(٥) بلاغات النساء عن المرأة فى الشعر الجاهلى ص ٦٣٨ .

الوصف

الوصف من الفنون البارزة التى برع فيهـــا الشعراء الجاهليون ، فقد نظروا فى الطبيعة الصحراوية ودققوا النظر ، فوصفوا كل ما وقعت عليـــه أعينهم ، وصفوا الطبيعة ممثلة فى حيوانها ورياضها ونباتها وديارها وأطلالها ، وتأملوا فى أمطارها وسحبها وبرقها ونورها وظلامها فرسموا من ذلك لوحات ناطقة بالفن الاصيل ، وقد اعتنوا بكل صغيرة وكبيرة من مشاهـد الصحراء ومنظر الحاضرة ومجالسها وأزيائها ، ولم يتركوا شيئا من ذلك الا سجلوه فى شعرهـم •

وكان للحيوان أكبر الاثر فى حياتهم، وهو أقرب الى نفوسهم وعواطفهم، ولذلك فقد اعتنوا به عناية خاصة ، وصفوا جسمه وقوته وصفاته وعاداتـــه وحركته وطباعه ، حتى عرف بعض الشعراء بالاجادة فى وصف حيوانٍ واحد والتدقيق فى وصفه ، فقد برز فى وصف الخيل : امرؤ القيس والطفيل الغنوى والنابغة الجعدى ، وفى وصف الناقة : طرفة بن العبد وأوس بن حجر ، وفى وصف الحمر الوحشية الشماخ وكذلك فى وصف القسى ، أما الاعشى فقد برع فى وصف الخمر وذكر مجالسها •

ولعل الناقة هى أبرز الحيوانات التى عنى بهـــا الشاعر الجاهلى ، فهى

مصدر الخير والرزق ورفيقة السفر الصبور على الاين ، تقطع الفيافي وتجتاب الفلوات دون كلل أو ملل ، وقد وقف الشعراء يتأملون فيها ، فوصفوا جسمها الضخم القوى ، وشبهوه بالعلاة وهي سندان الحداد والقصر قصر الهاجرى ، والقلعة الضخمة ، والصخرة الصلبة ، ودققوا فى أعضائها فلم يغادروا عرقا ولا عصبا الا وصفوه أدق وصف ، ونظروا فى أحوالها وسرعتها ونشاطها وعاطفتها وحنينها ، فعبروا عن أحساساتها ومشاعرها وأحوالها بعاطفة انسانية ومشاركة وجدانية لما يعانى هذا الحيوان •

وأوصاف الناقة لدى الشعراء تكاد تكون متشابهة ، فهى قوية متينة صلبة قبل السفر ، وهي نحيلة مهزولة بعد أن قطعت الفيافي وجابت الفلوات في حر الهواجر وقر الشتاء ، يعتنون بوصف شكلها ولونها وصفاتها ، ويشبهونها بالبقرة الوحشية والثور والحمار والاتان والظليم ، كما يشبهونها بالبناء الشامخ والسفينة والسيف والدلو والسحابة ، وفى كل تشبيه من هذه التشبيهات يصورون حالا من أحوالها وصفة من صفاتها ، وكأنهم اتخذوا ذكر الناقة وسيلة لوصف الحيوانات الاخرى وذكر قصصها عن طريق تشبيه الناقة بتلك الحيوانات فلا يكاد الشاعر يذكر الناقة حتى يأخذ بتشبيهها بالبقرة الوحشية او الثور او الحمار او الاتان او الظليم ، ثم يذهب يسرد قصة ذلك الحيوان وما كان من أمره مع الصياد وكلابه، حتى اذا انهى تلك القصة عاد الى ناقته فشبهها بحيوان آخر فيسرد قصة هذا الحيوان الاخر وهكذا ، فكان نصيب الناقة من القصائد الطوال نزرا ، ويتضح ذلك عند أكثر الشعراء مثل امرىء القيس والاعشى ولبيد وزهير والنابغة •

ولم يقف أحد عند وصف الناقة وقفة طويلة متأملة مثل طرفة في

معلقته ، فقد رصد لها ثمانية وعشرين بيتا على شاكلة قولـه : (١)

وإني لأمضِي الهمَّ عند احتضاره

بعوجاءَ مِرقال تروح وتغتدِي

أمونٍ كألواح الأران نسأْتها

على لاحب كأنه ظهرُ بُرْجدِ

تُباري عتاقا ناجياتٍ وأتبعت

وظيفا وظيفا فوق مَوْرٍ معبَّدِ

تربعت القُفَّينِ في الشَوْل ترتعي

حدائق مولىٌّ الأَسِرَّةِ أغيدِ

تريعُ الى صوت المُهيب وتتقِي

بذي خصَلٍ روعاتِ أكلفَ ملبدِ

كأن جناحَيْ مضرحيٍّ تكنَّفا

حِفافَيْه شُكّا في العسيب بمِسْرَدِ

(١) ديوان طرفة ص ١٠ ـ ١٣ .

فطورا به خلف الزَميلِ وتارةً

على حَشِفٍ كالشَّنِّ ذاوٍ مجدَّدِ

لها فخِذان أكمِل النحضُ فيهما

كأنهما بابا مُنيفٍ مُمَدَّدِ

فتراه يشبه عظامها العريضة بألواح الاران وهو تابوت السادة الاشراف ، وشبه طريقها بالكساء المخطط ، وشبهها بالنعامة فى عدوها وشبه فخذيها بمصراعى قصر ، ثم يتناول فقارها وعنقها وجمجمتها وخدها ومشفرها وعينيها وأنساعها وأعضادها ، كل ذلك بما اتفق له من بيئته من محسوسات ، حتى ينتهى به المطاف ان يقول : (١)

على مثلها أمضى إذا قال صاحبي

ألا ليتني أفديك منها وأفتدى

أما بقية الشعراء فقد وصفوا الناقة وصفا مباشرا ولكنهم لم يطيلوا فى وصفها ، آثروا ان يتحدثوا عن صفاتها وأحوالها النفسية عن طريق تشبيهها بالحيوانات الاخرى ، فأظهروا عواطفها من الخوف والفزع والحب والكره والجرأة وشدة الاحتمال فى قصص الحيوان كالبقرة المفجوعة بولدها الذى

(١) ديوان طرفة ص ٢٢ .

تحبه ، والتمسوا قوتها ونشاطها وسرعة حركتها فى حمار الوحش وأتانه وفى الثور ، ولكل قصة طريفة فيها حيوية ونشاط وقوة .

ولم يعن الجاهليون بحيوان عنايتهم بالخيل ، فهى حبيبة الى نفوسهم عزيزة عليهم ، يكرمونها ويؤثرونها بالطعام والشراب ، وهى زينة الفارس يمتطيها فى نزهه وصيده ، وتكون حصنه عند الغارة ، وسلاحه فى الكر ، ونجاته عند الفرار ، ولذلك خصوها بعناية فائقة ، وليس أكثر من أن تفدى بالانفس ويجاع لها العيال ولا تجاع كما يقول الشاعر : (٢)

مفـدّاة مكرّمة علينـا

يجاع لهـا العيالُ ولا تُجاع

وكانوا يقربونها عند بيوتهم ولا يرسلونها ترعى مع أنعامهم حبا فى المحافظة عليها ، يقول ربيعة بن مقروم : (٣)

وجُردا يقرّبنَ دون العِيال

خِلال البيوت يلُكْنَ الشّكِيما

وكانوا يحفظونها من البرد ويصنعون لها الاردية والاغطية لتقيها قسوة

---

(٢) شرح الحماسة ــ المرزوقى ١/٢١٠ .
(٣) المفضليات ص ١٨٥ .

البرد وشدة الحر ، يقول عنترة : (٤)

مقرّبة الشتـــاء ولا تراهـــا
وراءَ الحي يتبعهـــا المَهـــارُ
لها بالصيف أصـبِرةٌ وجُـــلٌ
ونيِبٌ من كرائمهـــا غِزَارُ

ويسقونها الماء الدافىء فى الشتاء ، ويسقونها اللبن ، يقول المتلمس : (٥)

أبقـــت لنـــا الأيامُ والـ
لمزباتْ والعاني المرهّقْ
جُردا باطناب البيـــو
ت تُعَلُّ من حَلَبٍ وتُغبقْ

وكانوا يصنعون لها النعال لتحفظ حوافرها من صلابة الارض وشدة الصخور ، يقول زهير : (٦)

---

(٤) ديوان عنترة ص ٣٠٩ .
(٥) ديوان المتلمس ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ .
(٦) ديوان زهير ص ١٥٦ .

تهوي على ربذاتٍ غير فائرة

تُحذى وتعقد في أرساغها الخدمُ

وقد حافظوا على كرمها وأصالتها ونقاء عنصرها، واهتموا بنسلها وأنسابها ونجابتها ، يفخر علقمة الفحل بنسب فرسه وأصالتها بقوله : (١)

وقد أَقود أَمام الحيِّ سهلْبةً

يهدى بها نسبٌ في الحىّ معلومُ

ولشدة عنايتهم بأنسابها وصفاتها وطباعها ، فقد ألفوا فى ذلك كتبا مثل : أنساب الخيل فى الجاهلية والاسلام لابن الكلبى (٢) ، والخيل للاصمعى (٣) ، والخيل لابى عبيدة (٤) ، وأسماء خيل العرب وفرسانها لابن الاعرابى (٥) ، ونخبة عقد الاجياد فى الصافنات الجياد لمحمد الجزائرى (٦) وغير ذلك (٧) .

وقد اختاروا لها أسماء وحفظوها ، ونسبوها الى فرسانها ، ونسبوا الفرسان اليها ، ففرس عامر بن الطفيل (المزنوق) وفرس والده الطفيل

(١) ديوان علقمة ص ٧٣ .
(٢) طبع دار الكتب ١٩٤٦ .
(٣) طبع فيينا ١٨٩٥ .
(٤) طبع الهند ١٣٥٨ .
(٥) طبع ليدن ١٩٢٨ .
(٦) طبع بيروت ١٣٦٦ .
(٧) وقد ذكروا ممن ألف فى الخيل أيضا : النضر بن شميل (ت ٢٠٤ هـ) وأبا عمرو الشيباني (ت ٢٠٦ هـ) وقطرب (ت٢٠٦ هـ) ، ينظر المعجم العربى ــ حسين نصار .

(قرزل) وفرس مالك بن نويرة (ذو الخمار) وفرس عنترة (جروة) وفرسا قيس بن زهير العبسي (داحس والغبراء) وفرسا حذيفة بن بدر الفزاري (الحنفاء والخطار) ومن خيل زيد الخيل (الهطـال والورد ودوول) وغـير ذلك (٨) •

وقد وصفوا الفرس وصفا دقيقا ، وصفوا جسمه وقوته وعظم هيكله ، ووصفوا سرعته ونشاطه وحمحمته ، ويتميز في وصفهم نوعان من الخيل ، او نوعان من الوصف ، نوع يمثل الفرس الذى يبكرون معه الى الصيد واللهو والطرب ، فهو يباكر الوحـوش ويقيدها ، كفرس امرىء القيس • وفرس يغدون عليه الى الحرب والقتال ، أعدوه للحرب والغارة والفروسية ، كفرس عنترة الذى يتسربل بالدم •

فأما فرس امرىء القيس الذى يبكر قبل استيقاظ الطير ، فهـو ضخم عظيم الجسم قصير الشعر سريع العدو ، يكر ويفر ويقبل ويدبر كأنه صخرة قذفها السيل من شاهـق ، كميت اللون يضرب الى الصفرة التى يخـالطهـا الاحمرار ، أملس الظهر صقيل المتن بحيث يزل عنه اللبد لنعومته وقوته ، وهو بعد ذلك كثير النشاط سريع الحركة له هباب وحمى عند نشاطه كالقدر حين يغلى ، ينصب في عدوه انصبابا لا تكاد حوافره تمس الارض فلا يثير غبارا كما تثير الجياد التى تضرب الارض ضربا ، لا يكاد الفارس المتمرس أن يثبت على صهوته ، ويقذف بالرجل الثقيل الشديد الذى قلت خبرته بركوب الخيل ، وهو في سرعته كأنه دوامة مما يلعب بها الصبيان حين يلفها بخيط على اصبعه ثم يديرها سريعا ، أما جسمه : فله خاصرتا ظبى ، وساقا نعامة ، وسرعة ذئب ، وقفز ثعلب صغير ، وهو قوى الاضلاع طويل شعر الذنب ، صلب الجسم كأنه

(٨) أنساب الخيل ـ ابن الكلبى في مواضع متفرقة •

صخرة من صخور العرائس التى تدق عليها الطيب أو حجر يسحق عليه الحنظل ، وقد أعد هذا الفرس للصيد ، فتجد دماء الطرائد تسيل على صدره وتصبغه فكأنه عصارة حناء خالطت شيبا قد سرح ورجل ، وعلى هذه الشاكلة يقدم امرؤ القيس صفات فرسه فيقول : (٩)

وقد أغتدى والطيرُ في وُكُناتها

بمنجردٍ قيدِ الأوابد هيكلِ

مِكَرٍ مفرٍ مقبل مدبر معــا

كجلمودِ صخرٍ حطَّهُ السيلُ من عَلِ

كُميت يزلُ اللَّبدُ عن حالِ متنه

كما زلّتِ الصَّفواء بالمتنزّلِ

مِسَحٍّ اذا ما السابحاتُ على الونى

أثرن غُبارا بالكديد المركّلِ

على العقب جيّاشٍ كأن اهتزامَهُ

اذا جاش فيه حَميُه غلىُ مِرجلِ

---

(٩) ديوان امرىء القيس ص ١٩ ـ ٢٣ .

يُطيرُ الغلامَ الخِفَ عن صهواته

وُيلوى بأثواب العنيفِ المثقَّلِ

دريرٍ كخُذرف الوليد أمرَّه

تقلّبُ كفّيه بخيطٍ موَّصلِ

له ايطلا ظبيٍ وساقا نعَامةٍ

وارخاءُ سرحانٍ وتقريبُ تتفُلِ

كأن على الكتفين منه اذا انتحى

مدَاكُ عروس أو صَرايةَ حنظَلِ

كأن دماء الهاديات بنحره

عُصارةُ حِناءٍ بشيبٍ مُرَجَّلِ

أما فرس عنترة فقد أعده للحرب والغارة ، فهو فرس أصيل صبور جرىء ، تحدث عنه فى معلقته عند الحديث عن فروسيته ، وقد وزع ذكره فى ثنايا المعلقة فلم يجمعه فى موضع واحد ، فهو يسائل عبلة ، ألم تسأل الخيل عنه وتستوضح أمر فرسانها ماذا كانت فعاله فى الحرب ، فقد كان على صهوة جواد سريع لين الجرى كأنه يسبح فى الهواء سباحة ، وهو ضخم مرتفع ، فى

صدره جروح من طعنات الفرسان وكذلك فى جسمه آثار مما خلفته الرماح والقسى ، على مثل هذا الفرس يغشى عنترة الحروب ويبلو البلاء الشديد ، فاذا ما كانت الغنائم فهو يعف منها وينصرف عنها ، ويسترسل فى حديثه عن الحرب وشدة بلائه ثم يعود الى ذكر فرسه الذى يكر عليه ويخوض غمار المعركة ، وتنهال عليه الرماح ، فهى فى صدر فرسه كأنها حبال مرسلة فى بئر، وتسيل الدماء على صدره غزيرة كأنها سربال غطى جسمه ، ويزور الفرس ويميل من شدة وقع الرماح وجراحها ، وتسيل دموعه فهو يصهل ويحمحم مما به من ألم ، ويتعاطف عنترة مع فرسه ، ويشعر بالامه ، فهو حيوان أعجم لو يستطيع الكلام لكلمه وحاوره وشكا اليه مما به ، ومع ذلك كله ففرسه بين هذه الخيل وسط غبار المعركة عابسا يخوض الغمرات .

وقد أوضح عنترة حال الحيوان وعاطفته وقوته وشدته ، ولم يقف عند جمال جسمه ووصف شياته وحسب ، وقد أظهر صورته وأحواله من خلال الحرب ووصف القتال ، يقول : (١)

هلاّ سألتِ الخيلَ يابنةَ مالك
ان كنت جاهلةً بما لم تعلمى

اذ لا أزال على رَحالةِ سابحٍ
نَهدٍ تعاوره الكُماةُ مُكَلَّمِ

طورا يعرّض للطعان وتارةً
يأوى الى حصد القسىّ عرمرم

(١) ديوان عنترة ص ٢٠٧ ــ ٢٠٩ و٢١٦ ــ ٢١٩ .

يُخبرك من شهد الوقيعةَ أنني

أغشى الوغى وأعفُّ عند المغنم

لمّا رأيت القومَ أقبل جمعُهم

يتذامرون كررتُ غيرَ مذمّمِ

يدعون عنترَ والرماحُ كأنها

أشطانُ بئرٍ في لَبَانِ الادهم

ما زلت أرميهم بثُغرةِ نَحره

ولبَانِه حتى تسربل بالدَّمِ

فازوَّر من وقْعِ القنا بلبَانِه

وشكا اليَّ بعَبْرةٍ وتحمحمِ

لو كان يدري ما المحاورةُ اشتكى

أو كان يدري ما جوابُ تكلمى

والخيلُ تقتحم الخبار عوابسا

ما بين شيظَمةٍ وأجردَ شيظَمِ

ولقد شفى نفسِي وأبرأ سقمها

قيلُ الفوارس وَيْكَ عنترَ قَدِّمِ

وقد وصف الخيل كثرة من الشعراء ، وشبهوها فى سرعتها بالظبى والنعامة والذئب وحمار الوحش والباز والعقاب والطير ، ولعل بيت النابغة فى هذا المجال من خير ما وصفت به سرعة الخيل ومرورها مرا سريعا عنيفا كالطير التى تهرب خفيفة نجاة من دفقة المطر القوية : (١)

والخيلُ تنزع غَرْبا في أعنَّتِها

كالطير تنجو من الشُؤبوب ذى البَرَدِ

وقريب من هذا تشبيه لبيد لكتيبة فيها خيل سريعة كالحمام تبارى الرماح عند العشى : (٢)

ومشعلة رهوا كأن جيادَها

حَمَامٌ تبارِي بالعشِيِّ سوافِلا

ووصفوا الثور والبقرة الوحشية ، وأكثر ما يرد ذكرهما فى سياق قصة من القصص ، يستطردون اليهما حين يتحدثون عن الناقة فيشبهونها بهذه

(١) ديوان النابغة ص ١٨ .
(٢) ديوان لبيد ص ٢٥٢ .

البقرة أو ذاك الثور الذى كان من أمره قصة يروونها تمثل صراع الثور مع كلاب الصيد أو البقرة التى افترس السبع ولدها ، فيروون قصتها الحزينة المؤثرة .

وأبرز من صور حزن البقرة على ولدها الذى أكلته السباع ، لبيد فى معلقته (٣) وكذلك فعل زهير وكذلك الاعشى الذى ساق قصة البقرة المسبوعة وصراعها مع كلاب الصيد الكاسرة ، ويتحدث الاعشى عن الوحوش التى تفترس ولد البقرة حين تواتيها الفرصة فى غفلة من أمه ، ثم يصور حال هذه البقرة التى كانت راتعة مع القطيع ، فلما امتلأ ضرعها باللبن طلبت فصيلها لترضعه فلم تجد منه غير مزق وبقايا عظام ودم مسفوح ، وباتت ليلتها حزينة نكلى ، حتى اذا ذر قرن الشمس صبحها صائد من بنى نبهان كأنه ذئب أغبر صحب كلابا ضارية فى أعناقها سيور ، فاذا عدت هذه الكلاب فهى سهام منطلقة، يقول الاعشى مصورا هذه القصة : (٤)

كأنها بعد ما افضى النِجادُ بها

بالشَّيطَين مَهاةٌ تبتغي ذَرَعا

أهوى لها ضابئٌ في الأرض مفتحِصٌ

للحم قِدما خفيّ الشخص قد خَشَعا

---

(٣) ديوانه ص ٣٠٧ ــ ٣١٢ .

(٤) ديوان الاعشى ص ٨٤ ــ ٨٥ .

فظل يخدُعها عن نفسِ واحدِها

في أرض فَيءِ بفعل مثلِه خَدعا

حـــانت ليفجعَها بابن وتطعمه

لحمـا فقد أطعمت لحما وقد فجعا

فظـل ياكلُ منها وهى راتعَةٌ

حَدَّ النهار تُراعِى ثِيرةً رُتَعا

حتى اذا فِيقةٌ فى ضرعها اجتمعتْ

جاءت لترضع شِقَّ النفس لو رَضعا

عَجِلا الى المعهد الأدنى ففاجأها

أقطاعُ مِسْكٍ وسافتْ من دَمٍ دُفَعَا

فانصرفت فاقِدا ثكلى على حَزَنٍ

كُلٌّ دهاها وكلٌّ عندها اجتمعا

وذاك إن غفلت عنه وما شعرت

أن المنيةَ يوما أَرسلت سَبُعا

حتى اذا ذرَّ قرنُ الشمس صبَّحها

ذوألُ نبهانَ يبغي صُحبه المتعا

باكلبٍ كسِراع النبل ضاريةٍ

ترى من القدّ في أعناقها قِطَعا

فتلك لم تتَّرِكْ من خلفها شَبَها

الا الدوابرَ والأظلافَ والزمعا

وقد تناول لبيد وصف الثور وصراعه مع كلاب الصيد التى تركها صريعة مضرجة بالدماء معفرة بالتراب ، يقول : (١)

حتى أُشِبَّ له ضِراء مكلَّب

يسعي بهن أقبُّ كالسرحان

فحمىٰ مقاتلَه وذاد بروقِه

حَمْىَ المحارب عَورةَ الصُحبانِ

---

(١) ديوان لبيد ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .

شزرا على نبض القلوب و مُقدِما

فكأنما يختلهـــا بسنـــان

حتى انجلت عنه عَماية نفْرِه

فكأنَّ صرعاها ظروفُ دِنَانِ

وقد تناول غير شاعر صورة الثور وصراعه مع كلاب الصيد ، وخروجه منتصرا ، كالنابغة في قصيدته الدالية (٢) ، وزهير فى قصيدته القافية (٣) ، وامرىء القيس فى قصيدته السينية (٤) ، وكذلـــك فعل أوس بن حجـر والمتلمس وغيرهم ، والملاحظ أن الثور يخرج من المعركة منتصرا مزهوا عند أكثر الشعراء ، الا شعراء هذيل فانهم يمكنون سهام الصائد من قلب الثـور ويمكنون الكلاب منه ، فتصرعه وترديه قتيلا ، وقد لاحظ الجاحظ أن الشعراء يجعلون كلاب الصيد هى التى تقتل بقر الوحش اذا كان الشعر فى مجـال الرثاء والموعظة ، أما اذا كان الشعر مديحا فتكون الكلاب هي المقتولة والثيران هى المنتصرة السالمة (٥) ·

ومثلما شبهوا الناقة بالبقرة والثور وساقوا لكل منهما قصة ، فقد شبهوا الناقة بحمار الوحش والاتان ، ويتخذون التشبيه وسيلة للحديث عن قصـة حمار الوحش مع كلاب الصيد ، أو مع أتانه التى تعاسره حينا فيطاردها ويعارك

---

(٢) ديوان النابغة ص ٧ ــ ١٢ ·
(٣) ديوان زهير ص ٤٢ ــ ٤٨ ·
(٤) ديوان امرىء القيس ص ١٠١ ــ ١٠٤ ·
(٥) الحيوان ٢/٢٠ ·

الفحول ويناضل الحمر الاخرى ليتفرد بالاتان ويدفعها أمامه ويخلو بها بعيدا وهى تستجيب له تارة وتتمرد عليه أخرى ، ويقضيان أشهر الشتاء راتعين يجترئان بالرطب عن الماء ، حتى اذا جاءت شهور الصيف انطلق بها يريد الماء ، وتعدو الاتان وهو يتبعها يعدو على جانب منها تارة ، ويرتقى النجاد والربايا يرقب الطريق تارة أخرى ، وهما فى هذا العدو يثيران غبارا كأنه غلالة رقيقة يتجاذبانها أو دخان نار العرفج الساطعة ، حتى اذا بلغا الماء شربا منه وخاضا فيه .

وقد تناول هذه القصة أكثر من شاعر ، كامرىء القيس والنابغة وزهير ، ولكنهم ـ فيما أحسب ـ لم يبدعوا فى هذا الوصف مثلما أبدع لبيد فى قصة الحمار والاتان ، فقد سرد قصتهما فى معلقته حيث يقول : (٦)

أو مُلمعٍ وسقتْ لأحقبَ لاَحهُ

طردُ الفحول وضربُها وكِدامُها

يعلو بها حَدبَ الإكام مُسَحَّجٌ

قد رابه عِصيانُها ووحامُها

باحزَّةِ الثَّلَبُوتِ يربأُ فوقَها

قفرَ المراقب خوفها آرامُها

(٦) ديوان لبيد ص ٣٠٤ ـ ٣٠٧ .

حتى اذا سلخا جُمادَى ستةً

جَزَءا فطال صِيامُه وصيامُها

رجعا بامرهما الى ذي مِرّةٍ

حَصِدٍ ونُجْحُ صَريمةٍ إبرامُها

ورمي دوابِرَها السَّفا وتهيَّجَتْ

ريحُ المصايف سَومُها وسِهامُها

فتنازعا سَبطا يطير ظلاله

كدُخانِ مُشْعَلَةٍ يُشَبُّ ضِرامُها

مشمولة غُلِثتْ بنابت عرفَجٍ

كدخان نارٍ ساطعٍ أسنامُها

فمضى وقدَّمها وكانت عادةً

منه اذا هي عَردَّت اقدامُها

فتوسطا عُرضَ السَّري وصدَّعا

مَسْجورةً متجاورا قُلاَّمُها

مَحفوفةً وسطَ اليراعِ يُظِلُها

منه مصرَّعُ غابةٍ وقيــامُها

وللحمار صفات وعلامات ذكروها ، فهو شتيم الوجه ، يسوق أُتنا سمانا، قد شبع حتى بشم ، ضخم غليظ سريع ، اذا عدا لا يكبو ولا يتعثر ، أسود اللون وقد يكون فى حقبيه بياض ، وهو كثير الشحيج ، جرىء ضامر البطن ، وقد يصفونه بصفات العقلاء ، فسحيله يشبه صوت الانسان حين يدعو صاحبه ، كما يقول زهير : (١)

كأن سحيلَه في كل فجرٍ

على أحســاءَ يمؤودٍ دُعاءُ

ويعيره لبيد صفة الانسان المفكر الذى يقلب الرأى على وجوهه ، ويمنحه من الانسان لهوه وطربه وغوايته ، فاذا نهق فهو سكير أخذت الخمر منه كل مأخذ : (٢)

يطَرِّبُ آناءَ النهــارِ كأنه

غَوىٌ سقاه في التِّجار نديمُ

(١) ديوان زهير ص ٧٠ .
(٢) ديوان لبيد ص ٩٦ - ٩٧ .

أميلتْ عليه قرقفٌ بابليةٌ

لها بعدَ كأسٍ في العظام هَميمُ

وقد تناول الشعراء الجاهليون كل ما وقعت أعينهم عليه من حيوان الصحراء ، فقد وصفوا الذئب والقطاة والباز والعقاب واللقوة والغراب والنعامة والظليم والافعى والوعول والظباء ، سواء أكان وصفهم لها مباشرا أم عن طريق التشبيه . فهم يشبهون المرأة الحبيبة بالظبية فى جمال عنقها وعينيها ، ويشبهون الاطفال بالغزلان ، يقول الحطيئة مشبها حبيبته بالظبية التي تتناول الغصن بظلفها اذا ارتفع عنها ، ويصفها بحسن الجيد تزجى غزالا وتتناول ثمر العضاه : (٣)

كعاطية من ظبــــاء السليل

حسّانةِ الجيد تُزجِي غزالا

تعاطى العِضاه اذا طالهـــا

وتقرو من النبت أرطى وضَالا

ولا يفوتنا هنا جيد حبيبة امرىء القيس الذى هو (كجيد الرئم ليس بفاحش اذا هى نصته ولا بمعطل) .

---

(٣) ديوان الحطيئة ص ٢١٤ .

وكثيرا ما يأتي وصفهم للحيوان مرتبطا بذكر الديار التي خلت فسكنتها الوحوش وأطفلت فيها بعد أن نزل المطر وأينع النبت ، فصارت مرتعا ومراحا ، يقول زهير في ديار حبيبته : (٤)

بها العِين والآرامُ يمشين خِلفة

وأطلاؤها ينهضن من كلِ مجثم

ويتناول لبيد هذه الصورة فيوضح معالمها ويجلو مفاتنها وما فيها من حياة وحركة : (٥)

فعلا فروعُ الأيهقان وأطفلتْ

بالجَلْهتين ظِباؤها ونعامُها

والعِين ساكنةٌ على أطلائِها

عُوذا تأجّل بالفَضاء بِهامُها

ولا بد أن يرتبط ذكر الحيوان بذكر الصيد ، فصراع كلاب الصيد مع البقرة أو الثور أو الحمار أو الاتان ، وخلفها الصائد يترصد بسهامه ، كل ذلك

---

(٤) ديوان زهير ص ٥ .
(٥) ديوان لبيد ص ٢٩٨ ــ ٢٩٩ .

يثير في نفس الشاعر شعورا بالمأساة والمغامرة ، فقد عنوا بهذه المشاهد عناية كبيرة ، تأملوا فيها ودققوا النظر في مشاهدها ، وكثير هم الشعراء الذين برعوا بوصف الصيد ، وكل له أسلوبه وصوره ولوحاته ، فمن أولئك زهير ، ولبيد ، والنابغة ، وامرؤ القيس ، وكان امرؤ القيس أكثر الجميع ذكرا للصيد ، لانه أعد فرسه للنزه ومطاردة الحيوان ، ومجالس اللهو التى تصيب نصيبها من لحوم الطرائد ، فنجده فى قصيدته البائية التى ذكر فيها أم جندب ، يصور قطيعا من النعاج ترعى في خميلة ، وهن لفتوتهن وصباهن كالعذارى اللواتى يمسن بملاء مهدب ، فينادى صحابه أن الجموا الفرس ، قبل أن تجفل النعاج فتهرب ، وحملوا غلامهم على فرس شديد المتن ، فانطلق كدفعة من مطـر العشى القوى المتدافع وخلف وراءه سحابة من غبار ، وراح الغلام يستحث فرسه ويزجره ويلذعه بساقه وسوطه ، فانطلق الفرس يجود بكل نشاطـه وسرعته ، حتى أدرك القطيع ، فأعمل فيه رمحه طعنا وضربا ، فصرع فريقـا ونجا فريق ، بفضل قرون حديدة كالمخرز .

وقد تهيأ للقوم طعام فنزلوا ونصبوا ثيابهم على أسنة الرماح تقيهم حر الشمس ، فطعموا ورموا عيون الوحش ، فبدت متناثرة حول رحالهم وأخبيتهم كأنها جزع لم يثقب ، لما فيه من سواد وبياض ناصعين ، وبعد أن طعمـوا وغادروا مجلسهم كانت مناديلهم أعراف الجياد يمسحون بها ما علق فى أيديهم من دسم ، وحملوا بقية الصيد على الخيول كأنها عدول التمر . وفى القصيدة تفصيل فنى كثير يوضح الصورة ويجلو مشاهدها ، يقول : (١)

فبينا نِعــاجٌ يرتعين خميلةً

كمشي العذارى في المُـلاء المهدَّبِ

(١) ديوان امرىء القيس ص ٥٠ ــ ٥٥ .

فكان تنادينا وعقدَ عِذارهِ

وقال صحابي قد شأونَكَ فاطلبِ

فلأيا بلأيٍ ما حملنا وليدَنا

على ظهرِ محبوكِ السَّراةِ محنبِ

وولّى كشؤبوبِ العَشيّ بوابلٍ

ويخرجنَ من جَعْدٍ ثَراه منصَّبِ

فللسوط ألهوبٌ وللساقِ دِرّةٌ

وللزجر منه وقعُ أهوجَ مِنْعَبِ

حتى اذا أدركهن صور مشهد القتال :

فعادَى عِداءً بين ثور ونعجةٍ

وبين شَبُوبٍ كالقَضيمة قَرْهَبِ

وظل لثيران الصَّريمِ غماغِمٌ

يداعِسُها بالسَّمهريِّ المعلبِ

فكَابٍ على حُرِّ الجبين ومُتَّقٍ

بمدريةٍ كأنها ذَلْقُ مِشْعَبِ

ثم يدعو صحابه الى النزول فقد وجبت الوليمة :

وقلنا لفتيانٍ كرام ألا انزلوا

فعالُوا علينا فضلَ ثوب مُطَنبِ

وأوتاده مــاذيّةٌ وعِمــادُه

رُدينيةٌ فيهــا أسِنَّةُ قَعْضَبِ

وأطنابُه أشطان خوصٍ نجائبٍ

وصهوتُه من أتحَمِيٍّ مُشَرْعَبِ

فلمّا دخلنــاه أضفنا ظهورَنا

الى كل حارِيٍ حديدٍ مُشَطَّبِ

كأن عيونَ الوحش حول خِبائنا

وأرحُلِنا الجَزْعُ الذي لم يُثقبِ

نَمُشُّ باعراف الجِيـــاد أكفَّنا

اذا نحن قمنا عن شِواء مُضَهَّبِ

ورحنا كانا جُوءائى عشيةً

نُعالى النِعاج بين عِدْلٍ و مُحْقَبِ

ولا يس بعد ذلك فرسه وما له من قوة ومكانة فى نفسه ونفس أصحابه ، وما له من بلاء عظيم فى الصيد بحيث تجد دماء الطرائد تسيل على صدره وتخالط لونه كأنها (عصارة حناء بشيب مخضب) .

وعلى الرغم من أن عناية الشاعر الجاهلى بالحيوان كانت شديدة فائقة ، فانه كان يربط ذكر الحيوان بما يحيط به من طبيعة ساكنة ، فلم ينس أن يتأمل فى الصحراء ورمالها وديارها وأطلالها وما يمر عليها من رياح أو سحب أو مطر ، ويتأمل كذلك فى السماء والنجوم ، وكان يشيم البرق ويستعلم الغمام ويذكر شدة الحر وقسوة البرد ، ولا ينسى حظه من مجالس يعقدونها للهو وشرب الخمر وسماع الغناء .

لقد تأمل الشعراء الجاهليون فى الليل وظلامه ونجومه المتلألئة وسحبه الداكنة والبرق الملتمع كأنه سيوف والمطر الهاطل الشديد ، فافتنوا فى كل ذلك ، ولعل أبرز شاعرين عرفا بوصف المطر والبرق والليل هما لبيد وامرؤ القيس ، فهما يقدمان لوحات رائعة مدهشة وبينهما شبه فى موضوعيهما ، فأما لبيد (١) فيوفر لصورته هذه كل أسباب الكمال ، فهو يحدد الزمن بعد هذه

---

(١) لبيد بن ربيعة للمؤلف ص ٢٦٥ .

من الليل حين نام أصحابه على شعب رحالهم ، فهم على هذا في قافلة راحلة ، وهو ينظر في جوف الليل وقد سهر لهذا البرق وصوبه نحو نجد ، ولبيد وصحبه فيما يبدو في تهامة من أرض الحجاز ، ويرسم لبيد صورة دقيقة رائعة حين يضيء البرق فيسطع ضوؤه على صفحة السحاب الاسود الكثيف المتدلى ، وكأن الرائى يرى أحباشا محاربين شديدى السواد شهروا حرابا بيض ساطعة، ويستعير الشاعر للرعد من الابل رغاءها حين تعزل عن صغارها وتمنع منها ، فتحن اليها هادرة مرزمة ، ويستعير من النساء النائحات نواحهن وندبهن وهن يحركن خرقا سود يندبن ويلوحن بها ، وقد لاحظ فى ذلك لون قطع السحب السود حين تتحرك فى كبد السماء ، ولا يترك لبيد هذه الصورة دون أن يحققها ويستكمل جوانبها ، فقد هطلت الامطار فى موضع من ديار بنى عامر من هذه السحب المتدلية التى يسطع فيها البرق فتبدو كأنها خيل فيها لونان : أسود وأبيض ، البياض فى بطون الخيل وصفاحها وهى ترمح عن صغارها ، وتجمعت الامطار فاذا هى سيول فى أرض شاسعة تمتد من جبل (دهر) حتى (أثال) وانحدر السيل فتدفق نحو (الملحين) فغطى جانبيه ، وقد ذعرت الوحوش فى جبل (صاحة) فانحطت هاربة مخافة أن يجرفها هذا السيل كما جرف أشجار الشث من أعلى الجبال ، ولبيد بعيد عن هذه الديار ، وهو على بعده يدعو لقومه بنى مجد ـ وفيهم أسماء حبيبته ـ أن يرعوا نبت السماء ربيعا وصيفا هانئين منعمين مبرأين من كل داء أو وباء . واقرأ قصيدة لبيد هذه ، وقارنها بقصيدة امرىء القيس فى وصف البرق والمطر الذى نزل الوحوش من أعاليها وأغرق الارض (٢) ، فستجد لوحتين رائعتين لكل منهما طعم ومذاق ولون ، يقول لبيد : (٣)

---

(٢) ديوان امرىء القيس ص ٢٤ ـ ٢٦ قوله :

أصاح ترى برقا ـ أريك وميضه   كلمح اليدين فى حبى مكلل

(٣) ديوان لبيد ص ٨٨ ـ ٩٣ .

أصاحِ تريٰ بريقاً هبَّ وَهْنَـاً

كمصباح الشَّــعيلةِ في الذُبالِ

أرِقتُ له وأنجــدَ بعد هَدءٍ

وأصحابي على شُعَبِ الرحـــال

يُضيءُ رَبابُه في المُزْنِ حُبْشَـا

قيــاماً بالحِراب وبالإلال

كأن مصفحــاتٍ في ذُراه

وأنواحــاً عليهن المَــآلِي

فافرعَ في الرباب يقود بُلْقَاً

مجوَّفـةً تـذب عن السِخَالِ

وأصبح راسيا بُرضَامِ دَهرٍ

وسال به الخمائلُ في الرمــال

وحطَّ وحوشَ صاحةَ من ذراها

كأن وعولَهـا رَمكُ الجمالِ

على الأعراض أيمنُ جانبيه

وأيسرُه على كُورَى أثالِ

وأردف مزنُه المِلحين وبلا

سريعا صوبُه سرب العَزالي

فبات السيلُ يركب جانبيه

من البقار كالعَمَدِ الثِقالِ

أقول وصوبُه مني بعيدٌ

يَحُطُّ الشَثَّ من قُلَلِ الجِبالِ

سقى قومي بني مَجْدٍ وأسقى

نُمَيرا والقبائلَ من هِلالِ

رَعوهُ مربَّعا وتصيَّفوهُ

بلا وَبأٍ سُمَيٍّ ولا وَبالِ

ويطول بنا الكلام اذا وقفنا عند معالم الصحراء وهي كثيرة ، فقد وصف الشعراء الجاهليون الرياض والديار والاطلال والدمن ، وارتبط كل هذا

بذكرياتهم وغزلهم ، كما وصفوا الغارة والحرب والاسلحة وما تخلفه الحرب من جرحى وقتلى ورؤوس مقطعة وأشلاء متناثرة فى حومة القتال •

أما مجالس اللهو وحانات الخمر وما فيها من قيان ورقص وغناء ، فقد وقفوا عندها وقفة هادئة متأملة فيها فن وابداع • وقد تناولوا الخمر ووصفوا مجالسها وأثرها في شاربيها (١) وذكروا لونها وصفاءها وطعمها وما تفعله في النفوس ، وكان لحبهم للخمر أن شبهوا ريق محبوباتهم بالخمر طيبا ونكهة ، يقول عبيد بن الابرص : (٢)

لِمَنْ جِمالٌ قُبيل الصبح مزمومه
ميمماتٌ بلادا غيرَ معلومه
فيهن هندٌ وقد هام الفؤادُ بها
بيضاءُ آنسةٌ بالحُسن موسومه
كأن ريقَتها بعد الكرى اغتبقت
صهباءَ صافيةً بالمِسْك مختومه

(١) للتوسع فى شعر الخمر ينظر : تطور الخمريات فى الشعر العربى ــ جميل سعيد ص ٣٤ وما بعدها وأساليب الصناعة فى شعر الخمر والناقة ــ محمد حسين ص ٣٦ وما بعدها ، والحياة العربية من الشعر الجاهلى ــ أحمد الحوفى ص ٣٤٥ وما بعدها ، وفن الشعر الخمرى وتطوره عند العرب ــ ايليا حاوى ص ١١ وما بعدها •
(٢) ديوانه ص ١٢٧ ــ ١٢٨ •

مما يغالي بها البياعُ عتّقَها

ذو شارب أصهب يُغلى بها السِيمه

وأكثر الشعراء الجاهليين ذكروا الخمر وافتخروا بشربها ، لأن شربها من علائم السخاء والاريحية والكرم وانها تبعث فى النفوس القوة والنشوة وتهز للكرم والعطاء ، يقول حسان بن ثابت : (٣)

ونشربها فتتركنا ملوكا

وأسدا مـا ينهنهنـا اللقاء

ويقول عمرو بن كلثوم : (٤)

تجورُ بذي اللبانةِ عن هواه

اذا ما ذاقهـا حتى يلينـا

ترى اللحِزَ الشحيحَ اذا أُمِرّتْ

عليه لمـاله فيه مُهينـا

(٣) ديوان حسان ص ٤ .
(٤) شرح المعلقات السبع ـ الزوزنى ص ١١٨ ـ ١١٩ .

وقد وصفوا سقاتها ولونها وطعمها قبل المزج وبعده ، وأعجبهم شكلها فى الكأس حين يطفو عليها الحبب : (١)

ثم نادوا على الصَّبُوح فقامت
قَينةٌ في يمينهـــا إبريقُ

قدّمته على عُقَارٍ كعين الديـ
ـك صفّي سُلافَها الراووق

مُزّة قبل مزجهـــا فاذا ما
مُزجت لذّ طعمُها من يذوق

وطفا فوقهـــا فقاقيعُ كالـ
ـياقوت حُمْرٌ يزينُها التصفيق

ولا نجد شاعرا جاهليا يخلو شعره من ذكر الخمر والتفاخر بشربها أو وصف مجالسها والسعى الى حانوتها وسبائها ، ولكن أشهر شاعر أحب الخمر وأشاد بذكرها ووصف مجالسها وأثرها فى النفوس هو الاعشى ، فهو شاعر الخمر غير منازع ، فهو يصور سعيه الى الحانوت ومعه صاحب خفيف سريع الى خدمته ، وينظم الى رفقة من الندمان من كرام القوم ، همهم أن ينالوا

---

(١) ديوان عدى بن زيد ص ٧٨ ٠

نصيبهم من ملاذ الحياة ، ويضمهم مجلس للشرب حافل بضروب من العطر والازاهير ، فشربوا خمرا مزة ، فغلبتهم وأسكرتهم ، ولا يكاد أحدهم يصحو من سكرته الا صاح طالبا المزيد ، ويطوف عليهم غلام يحمل كؤوس الخمر حاذق جيد الخدمة سريع الاجابة فى أذنه لؤلؤة قد شمر ثيابه ، ويستمعون فى هذا المجلس الى ألحان العود الذى يرافقه صوت الصنج على ترديد قينة تسمعهم الغناء ، وهى فى ثوب خفيف لا يكاد يستر جسمها ، وهكذا نجد الاعشى يتأنق فى وصف هذا المجلس فيقول : (٢)

وقد غدوت الى الحانوت يتبعني
شاوٍ مُشِلٌ شلولٌ شلشل شَوِلُ

في فتية كسيوف الهند قد علموا
أن ليس يدفع عن ذي الحيلة الحيلُ

نازعتهم قُضُبَ الرِيحان متكئا
وقهوةً مُزَّةً راووقها خَضِلُ

لا يستفيقون منها وهي راهِنةٌ
الا بهاتِ وان عَلوا وان نهلوا

---

(٢) ديوان الاعشى ص ٤٥ ـ ٤٦ .

يسعى بها ذو زجاجات له نطف

مقلّص أسفل السربال معتمل

ومستجيب تخال الصنج يسمعه

اذا ترجع فيه القَينةُ الفُضُلُ

ووصف هذه المجالس كثير فى شعر الاعشى ، وفى كل مجلس يعرض صورا ومشاهد جديدة بارعة رائعة ، ويلاحظ أن الاعشى يقرن بين هذه المجالس وبين ما يكون فيها من معابثة القيان ، ففى شعره أن القينة التى تعزف لهم وتطربهم ، تلبس ثوبا خفيفا معطرا بالمسك ملطخا بالزعفران ، وفيه فتق فى موضع كمها يتسع لايدى الشاربين وعبثهم بجسمها : (٣)

وقد أقطع اليومَ الطويل بفتية

مساميح تسقى والخباءُ مروق

ورادعة بالمِسك صفراء عندنا

لجسّ الندامى في يد الدرع مفتقُ

(٣) ديوان الاعشى ص ١٤٧ .

اذا قلت غنّى الشرب قامت بمزهر

يكاد اذا دارت له الكف ينطقُ

ويشير الى أنهم يشربون الخمر طيلة النهار ، حتى اذا جاء الليل آووا الى بيوت البغايا التى تكون قريبا من الحانات : (٤)

ثم راحوا مغربَ الشمس الى

قُطُفِ المشي قليلاتِ الحَزَنْ

وقد يصور الاعشى ما يكون بينه وبين البغايا من مجادلة ومساومة (١) ، وقد يصف ما يكون بينه وبين الخمار من مساومة لشراء الخمر الجيدة ، وحرص الخمار على فحص الدراهم وعلى الثمن الغالى الربيح • ولم يغادر الاعشى معنى من معانى الخمر أو صفة من صفاتها الا ذكرها وأفتن فى وصفها وقد أجاد فى تصوير أثرها فى الشاربين وفعلها فى الرؤوس والعظام والمفاصل : (٢)

وصهباء صرف كلون الفصوص

باكرت في الصبح سوّارَها

(٤) ديوان الاعشى ص ٢٢٨ •
(١) القصيدة ٧٨ ، البيت ٨ ـ ١٢ ص ٢٢٧ •
(٢) ديوان الاعشى ص ٢١٤ •

فطورا تميل بنـــا مـــرّة

وطورا نعـــالج امرارهـــا

تـــكاد تنشّى ولمـــا تذق

وتغشى المفـــاصل افتـــارها

تدب لهـــا فترة في العظـــام

وتغشى الذؤابـــة فوّارهـــا

تمززتهـــا في بني قابيـــا

وكنت على العلم مختارهـــا

واذا عدنا الى الوصف بعامة نلقى نظرة على صفاته وخصائصه ، فماذا نجد ؟ ان الشاعر الجاهلى كان يحيط بالصورة احاطة تامة ، فهو يستحضر دقائقها ، ويحصر أطرافها ، ويستقصى جوانبها مع دقة فى التعبير ومهارة وحذق وروية واجالة نظر ، والفن الجاهلى بسيط جميل من غير ضعف ولا تعقيد والبساطة مظهر من مظاهر البيئة ، فالبادية واضحة بسيطة بساطة الصحراء ووضوح الشمس ، لم تعقدها الحضارة ولم يفسدها الترف ، ومع البساطـة صدق فى التعبير عن المشاعر والاحساسات ، فالشاعر حين يصور عواطـف الحيوان ومشاعره يصف الحاضر المشاهد من خلال عواطفه واحساساته هو من غير غلو ولا مبالغة ولا اسراف •

والوصف الجاهلى لوحات كاملة يوفر لها الشاعر كل أسباب الصورة الموحية المؤثرة ، فيها الجو الملائم من المكان والزمان واللون والحركة وحتى الصوت فى بعض الاحايين • وقد صوروا عواطف الحيوان ومرحه ونشاطه وسرعته وخوفه ووساوسه وحذره وجرأته وشدة بطشه ، وقد أظهروا كل ذلك فى القصص التى يسردونها عن الثور والبقرة وحمار الوحش والاتان ، واتخذوا التشبيه وسيلة من وسائل الاداء وتقريب الصور البعيدة • ومن الشعراء من كان يعنى بوصف ضخامة الحيوان والعناية بأعضائه ويفصل فى وصف جوارحه وهيكله ولونه وحسن شياته ، وقد أكدوا كذلك على الخصال المعنوية والاحوال النفسية ، وقد ظهرت انسانيتهم من تعاطفهم مع الحيوان ، فقد أضفوا عليه من صفات الانسان وعواطفه وصفاته ، فعبروا عن محنة الثور ومخاوفه حين يغشاه الليل بظلامه وصمته فيلوذ بأرطاة وهو يرتجف من قرة ريح الشمال وشدة المطر ، ومن مظاهر تعاطف الشاعر مع الحيوان ان جعله منتصرا فى أكثر الاحوال فى صراعه مع كلاب الصيد ، فهو يجرحها ويصرعها •

وقد تتكرر الصور لدى الشعراء أو لدى الشاعر الواحد ، ومرجع ذلك الى البيئة المحدودة التى تتكرر فيها المشاهد وتتشابه فيها الصور ، وهذه الصور وان كانت متشابهة فى اطارها العام ، لكن لكل صورة معالجة معينة وتفصيلات خاصة بها • وعلى العموم فقد احتل فن الوصف مكانا بارزا ومساحة واسعة فى شعر الشعراء الجاهليين •



الحكمة

الحكمة الجاهلية دليل على رقى عقلية الشعراء وتفكيرهم وتأملهم فى قضايا الناس والحياة ، وهى ثمرة تجارب طويلة وفطنة ونظر ثاقب وبصيرة نافذة بالناس وأخلاقهم ، والماضين ومصائرهم ، وتأمل فى سعى الانسان وغـايته ونهايته ، ثم احساس دقيق بالحياة •

ولا أزعم أنها فلسفة ذات أصول أو تفكير منظم وفق علم مدروس ، بل هى الى الاحساس الذاتى والتأثر أقرب منها الى التفكير العلمى ، فهى نظرات وانطباعات وتأمل فى الحياة والموت ، ومحاولات لسن نظم خلقية يتبعها الناس فيما يرضونه من خصال وسلوك ، أو ما ينكرونه من أفعال وعادات ، ولذلك جاءت حكمتهم حقائق مجردة فى متناول الفطرة السليمة تمليها التجربـــة والمشاهدة وفق مثلهم العليا السائدة فى عصرهم ، وكانت أفكارهم صدى لهذه التأملات والمشاهدات ، تصاغ فى بيت شعر أو مثل أو عبارة أنيقة موجزة غزيرة المعنى ذات دلالات بعيدة ، تقع من النفس موقعها الاثير ، فيقبل عليها السامعون يروونها ويحفظونها ، وتغدو أمثالا تجرى على الالسنة على مر العصور ، وقد وجدوا لها فى أنفسهم أصداء فكتب للحكمة بذلك الدوام والبقاء •

وقد عرفت الحياة الجاهلية كثيرا من الحكماء ذاع صيتهم وعرفت حكمتهم ، مثل قس بن ساعدة وقصى بن كلاب ، ولقمان بن عاد ، ولقيم بن لقمان

وعامر بن الظرب ، ومجاشع بن دارم ، وأكثم بن صيفى ، وربيعة بن حذار ، وهرم بن قطبة (١) • وظهرت الحكمة فى شعر شعراء الجاهلية مثل لبيد بن ربيعة ، وزهير بن أبى سلمى ، وطرفة بن العبد ، وعبيد بن الابرص ، وعدى ابن زيد العبادى ، وأمية بن أبى الصلت ، وأوس بن حجر ، وذى الاصبع العدوانى ، وعلقمة بن عبدة ، والافوه الاودى ، وحاتم الطائى ، وغيرهم كثير •

وقد جاءت الحكمة الجاهلية على قدر كبير من النضج العقلى ، فقد أفادوا من خبرة الماضين وأخبار الملوك وقصص الامم البائدة • وشهد بعضهم حياة طويلة حافلة ، رأوا أجيالا تمضى وأخرى تنشأ ، وأصابوا من خير الحياة وشرها ، وذاقوا حلوها ومرها ، ففرحوا بما حبتهم ، وحزنوا بما رزأتهم به من فقد ولد أو ذهاب حبيب ، واعتبروا بكل ذلك ، وكان من هؤلاء الشعراء الجاهليين من نظر واعتبر بالماضين ، وتأمل فى مصير الناس وغاية الحياة ، ولجأوا أخيرا الى الله سبحانه ، كما فعل لبيد وزهير ، ومنهم من يصور ويخبر ويقص قصصا دينيا كأمية بن أبى الصلت ، ومنهم من يئس وتشاءم وهام وبكى كعدى ابن زيد ، ومنهم من انصرف الى الحياة يلهو بها ويعب من ملذاتها ويعيش ليومه بل لساعته كطرفة بن العبد •

فأما لبيد (٢) فحكمه منثورة فى قصائد كثيرة ، تأتى فى نغمة روحية صافية ، فى سياق تسبيح الله وذكر الدين ، وتأتى للعبرة والموعظة عند ذكر الماضين من الامم والملوك ، وتأتى فى ثوب حزين كئيب حين يرثى أخاه ويبكى موتاه ، وتأتى محملة بأثقال السنين فيها سأم وضجر من الحياة حين يتحدث عن

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٦٥ •
(٢) ينظر كتابنا لبيد بن ربيعة ص ٣٣٢ •

الشيخوخة وتطاول العمر .

ومن جياد قصائده فى الحكمة ، قصيدته فى رثاء أخيه أربد ، وليس من الغريب أن يرتبط الرثاء بالحكمة ، فالرثاء يدعو الى التفكير فى الحياة والموت والزمان ، وتذكر الماضين الذاهبين فالشاعر فى هذا يسجل تجاربه وخبراته فى حكم يسوقها وأمثال يضربها ، على شاكلة قوله : (١)

بُلينا وما تبلى النجومُ الطوالع

وتبقى الجبالُ بعدَنا والمصانعُ

وقد كنت في أكنافِ جارِ مَضِنةٍ

ففارقني جار بأربدَ نافعُ

فلا جَزِعٌ ان فرّق الدهرُ بيننا

وكلُ فتى يوما به الدهر فاجعُ

فلا أنا ياتيني طريفٌ بفرحة

ولا أنا مما أحدثَ الدهرُ جازعُ

---

(١) ديوان لبيد ص ١٦٨ ـ ١٧٠ .

وما الناس الا كالديارِ وأهلها

بها يومَ حلوها وغدواً بلاقعُ

وما المرءُ الا كالشهاب وضوئِه

يحور رمادا بعدُ إذ هو ساطعُ

وما البِرُ الا مضمراتٌ من التقَى

وما المالُ الا مُعْمَراتٌ ودائِعُ

وما المالُ والأهلونَ الا وديعة

ولا بد يوماً أن تردَّ الودائِعُ

فهو ينظر الى نفسه والى الناس ، كلهم أبنـــاء فناء صائرون الى بلى ، وتبقى حركة الزمان خالدة مستمرة ، فالنجوم طوالع ، والجبال والبيوت ثابتة ، ومن هؤلاء الذين أفناهم الدهر أخوه الذى يضن به ويحبه ، وهو مع ذلك لا ييأس ولا يجزع على فراق أحبته ما دامت هذه هى سنة الحياة ، لا يسلم من نوازل الدهر أحد ، فقد كتب على الناس العذاب ، ووقفت لهم المصائب فى كل مرصد فصار مستهينا بالدنيا ، لا يفرح بشىء من متاعها ، ولا يجزع أن ألمت به المصائب أو نزلت عليه الكوارث ، ويتأمل فى الموت وفناء الناس ، فيرى حالهم كهذه الديار التى تراها عامرة آهلة ، وما هى الا أيام حتى لا تجد منها غير رسوم مقفرة وآثار بالية تتناوح بها الرياح وتسفى عليها التراب ؛

والانسان في سرعة زواله وفنائه يشبه النار ما أن تراها ساطعة منيرة حتى تعود بعد لحظات رمادا باليا كابيا لا خير فيه ، والانسان في الحياة لا يملك شيئا فما بيده من مال ان هو الا وديعة سرعان ما تسترد ، وهو نفسه وديعة سيعود يوما الى بارئه ، ويمضى مع الناس حين يمضون زرافات الى وادى الفناء كأنهم ابل يزجرها راعيها ، يسوق ما تفرق منها ليضمه الى القطيع السائر ، وهو هنا يؤكد حقيقة كبرى ، هى ان الموت نصيب كل حى ولا ينجو منه أحد .

وأما زهير فقد نظر الى الحياة نظرة واقعية ، فقد خبرها وعرف شرورها ، وخبر أخلاق الناس ونوازعهم ، فتراه يسوق حكمه بأسلوب وعظى حسى ملموس ، يقدم بين يدى الناس نظرته الى الحياة ، فالموت نصيب الانسان ان لم يصبه اليوم فغدا ، وان أخطأه عاش دهرا فيهرم ثم يدركه الموت ، والمرء مجبر فى حياته ان يعاشر الناس ويصانعهم والا ظلموه وأذلوه ، أما المال فلا خير فيه اذا لم ينفق فى صالح القوم ويبذل دون الشرف ، والضعيف فى مجتمع القوة لا خير فيه فا نلم يقو فى حياته سحقه الاقوياء ، والجبان فى هذه الدنيا الخائف من منيته لا فرار له وهل يستطيع أن يتخذ له سلما فى السماء ؟ وعلى هذا النمط يعرض زهير أفكاره ويسوق مواعظه : (٢)

رأيت المنايا خبطَ عشواء من تُصِبْ

تُمِتْهُ ومن تُخْطِئْ يعمَّر فيهرمِ

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله

ولكنني عن علم ما في غد عمِ

---

(٢) ديوان زهير ص ٢٩ .

ومن لا يصانع في أمور كثيرةٍ

يضرَّسْ بانياب ويوطأْ بمنسِمِ

ومن يكُ ذا فضلٍ فيبخلْ بفضلِه

على قومه يُستَغنَ عنه ويُذمم

ومن يجعل المعروف من دون عرضه

يفِرْهُ ومن لا يتقِ الشتمَ يُشتَمِ

ومَن لا يذد عن حوضِه بسلاحِه

يُهدَّم ومن لا يظلم الناسَ يُظلم

ومن هاب أسبابَ المنايا ينلنَهُ

ولو نال أسبابَ السماء بسلمِ

واذا كانت هذه نظرة زهير الى الدنيا وقد رضى منها بهذا الواقع السيء ، فان من الشعراء من حاول الهروب من هذا الواقع والتمرد عليه فالتمس طريقا للهروب منه بأن اتخذ القوة والغارة والخمر واللهو واللذة والمجون سبيلا الى نسيان شبح الموت وبؤس الحياة ، وكانت هذه هى فلسفة طرفة بن العبد فى حياته ، أن يعيش لساعته ويغنم من ملذات حياته القصيرة : (١)

(١) ديوان طرفة ص ٢٧ .

وما زال تشرابي الخمورَ ولذتي

وبيعي وإنفاقي طريفي ومُتلَدي

الى أن تحامتني العشيرةُ كلها

وأُفردتُ إفرادَ البعير المعبَّدِ

وما دام الموت مترصدا له واذا استهدفه لا يخطئه ، فلم الحذر منه والخوف من لقائه ؟ وما دام الامر كذلك فقد رسم له نهجا فى الحياة أن يعب من لذاتها ما استطاع ، ولذلك يجيب اللائمين ويلخص لهم مذهبه فى الحياة : (٢)

ألا أيُهذا الزاجري أحضُر الوغى

وأن أشهد اللذاتِ هل أنت مخلدي

فان كنت لا تستطيعُ دفعَ منيتي

فذرني أبادرها بما ملكت يدي

فلولا ثلاثٌ هن من حاجة الفتى

وجدِّك لم أحفل متي قام عُوَّدِي

(٢) ديوانه ص ٢٧ ـ ٢٨ .

وتسأل عن هذه الثلاث فيجيبك ، انها الخمر والفروسية والغزل بالنساء ، ويذكرها على هذا النظام : (٣)

فمنهن سبقي العاذلات بشربةٍ

كُميتٍ متىٰ ما تُعْلَ بالماء تزْبِدِ

وكرى اذا نادى المضافُ محنباً

كسِيد الغضا نبَّهته المتوردِ

وتقصيرُ يوم الدَّجن والدُّجن معجِب

ببهكنة تحت الطِّراف المعمَّدِ

وقد يرى – من يرى – أن طرفة غوى ماجن ، دفعه طيش الشباب الى ركوب هذا المسلك الوعر ، ولكن طرفة يجيب هؤلاء بحكمة الشيوخ ويضعهم أمام صورة الموت وجها لوجه ، يمثله لهم ويحدثهم عن العمر الذى ينقص كل يوم ، الموت الذى يترصد بالناس ولا يخطىء منهم أحدا صغيرهم أو كبيرهم ، غنيهم أو فقيرهم ، فنصيب كل منهم جثوة من تراب ، لا فرق بين جثوة الغنى وجثوة الفقير فكلهم تراب فى تراب : (٤)

---

(٣) ديوانه ص ٢٩ .
(٤) ديوانه ص ٣١ – ٣٢ .

أرى قبرَ نحَّامٍ بخيلٍ بماله

كقبر غوى في البطالة مُفْسِدِ

ترى جُثوتين من تراب عليهما

صفائحُ صُم من صفيح منضَّدِ

أرى الموت يعتام الكِرام ويصطفى

عقيلةَ مالِ الفاحش المتشَدِّدِ

أرى المالَ كنزا ناقصاً كلَّ ليلةٍ

وما تنقُصِ الأيامُ والدهرُ ينفَدِ

لعمرُكَ ان الموتَ ما أخطا الفتى

لكالطِوَلِ المرَخىٰ وثِنيَاهُ باليدِ

أما عدى بن زيد فيتخذ من التاريخ دروسا وعظات ، يتفكر فى مصير الناس وفناء الماضين وزوال النعم ، وهو فى مواضع كثيرة من شعره يقص على الناس أخبار الملوك والجبابرة الذين أبادهم الدهر وأخنى عليهم الزمان ، ولذلك فلا مطمع فى الدنيا ولا مأمن من غدرها ، فالانسان ضيف فى هذه الدنيا مسافر

فى طريق الفناء ، فلا يغرنك ما تراه من رفاه الناس وما عليهم من نعمة وترف ، يقول : (١)

من رآنا فليحدِّثْ نفسَه
أنه مُوفٍ على قرن زَوالْ

وخطوب الدهر لا يبقى لها
ولما تاتي به صمٌّ الجبالْ

ربَّ ركبٍ قد أناخوا عندَنا
يشربون الخمرَ بالماء الزُلالْ

والأباريقُ عليهم فدم
وعِتاقُ الخيل تردى في الجلالْ

عمروا دهراً بعيش حسَنٍ
آمنى دهرهم غير عِجالْ

ثم أضحوا أخنعَ الدهرُ بهم
وكذاك الدهرُ يودي بالجِبالْ

(١) ديوان عدى ص ٨٢ ـ ٨٣ .

وكذاك الدهر يرمي بالفتى

في طِلابِ العيش حالا بعدَ حالْ

ومن الشعراء من يتجه فى نفسه وأفكاره الى الله ، مثل لبيد ، الذى كان فى جاهليته ـ ككثير من رجالها ـ يؤمن بالله وحده ولا يشرك به أحدا ، فهو يدرى ان كل شىء يؤول الى الله ، وان كل ما فى الدنيا هالك الا وجهه ، وان كل نعيم فى الحياة مصيره الزوال ، وان الناس يذلهم الموت ويفـرق شملهم ، وكل امرىء صائر الى يوم حساب ، يوم تكشف أعمال الناس فيعلم كل منهم ما قدمت يداه ويعرف حقيقة مسعاه : (٢)

أري الناس لا يدرون ما قدرُ أمرِهم

بلى : كلُ ذي لُبٍّ الى اللهِ واسلُ

ألا كلُ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ

وكلُ نعيمٍ لا محالةَ زائلُ

وكل أناسٍ سوف تدخل بينَهم

دويهيَّةٌ تصفرّ منها الأناملُ

---

(٢) ديوان لبيد ص ٢٥٥ .

وكل امرىءٍ يوماً سيُعلم سعيُه

اذا كُشّفتْ عند الاله المحاصلُ

هذا ضرب من الحكمة تناول القضايا الكبرى فى الحياة ، وهناك ضرب آخر اتجه الى الناس وأخلاقهم وطباعهم والشكوى من أذاهم وما جبلوا عليه من غدر وخديعة أو طمع وبخل وجبن ، فهذا أوس بن حجر يبصِّر بصنف من الناس : (٣) .

فإني رأيت الناسَ الا أقلهم

خفافَ العهودِ يكثرون التنقلا

بني أمّ ذي المال الكثير يرونه

وان كان عبداً سيدَ الأمر جحفلا

وهم لمقلّ المال أولادُ عِلَّةٍ

وان كان محضاً في العمومة مخولا

وليس أخوك الدائم العهد بالذي

يذمّك ان ولى ويُرضيك مقبلا

(٣) ديوان أوس بن حجر ص ٩١ ـ ٩٢ .

ولكن أخوك النائي ما دمت آمناً

وصاحبك الأدنى اذا الأمر أعضلا

أما علقمة بن عبدة فيبين طبيعة المرأة وما جبلت عليه من حب للشباب والغنى فيقول : (١)

فان تسألوني بالنساء فانني

بصيرٌ بأدواء النساء طبيبُ

اذا شاب رأسُ المرء أو قل مالُه

فليس له من ودهن نصيبُ

ويوجز زهير خبرته بالناس ويبصر بأخلاقهم ودخائل نفوسهم فيقول : (٢)

ومن يغترب يحسب عدوا صديقَه

ومن لا يكرِّمْ نفسَه لا يكرَّمِ

(١) ديوان علقمة بن عبدة ص ٣٥ ـ ٣٦ .
(٢) ديوان زهير ص ٣٢ والبيتان الاخيران من شرح المعلقات السبع ـ الزوزني ص ٨٩ .

ومهما تكن عند امرىءٍ من خليقةٍ

وان خالها تخفى على النَاس تعلمِ

وكائن ترى من صاحب لك معجبٍ

زيادتُه او نقصُه في التكلمِ

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه

فلم يبقَ الا صورةُ اللحم والدمِ

والملاحظ فى الحكمة أنها تلخص تجـــربة الشاعر ونظرته الى الحياة والناس ، وقد جاءت بعامتها فى أسلوب واضح سهل بعيد عن الغريب والتكلف، وقد تغلب على الحكمة مسحة من الحزن والعاطفة التى يشيع فيها الالم والحسرة والتشاؤم ، وذلك لارتباط الحكمة بالرثاء من ناحية ، وللتفكر بمصير الناس والموت والفناء من ناحية ثانية ، ويتضح فيها أثر السن وخبرة الايام ، ففيها تجارب ذاتية ، وفى بعضها وعظ وارشاد ونصح وهداية •

وأكثر شعر الحكمة جاء فى تضاعيف القصائد الطوال أو فى نهايتها ؛ ويكون الانتقال اليها من شعر الخمرة واللهو ، فهو صحوة بعد سكرة العبث ، أو مرتبطا بالرثاء لانه حديث عن الموت أو يكون متعلقا بالديار لانها تذكـر بالزوال والفناء ، أو ختاما لقصيدة يلخص فيها خبرته ونظرته فـى الناس

والحياة ، ولا نعدم أن نجد بعض القصائد تنفرد بموضوع الحكمة ولا تشرك به غيره ويكثر ذلك في شعر عدى بن زيد وأمية بن أبى الصلت ، ولا يخلو ديوان شاعر من الحكمة التى تفكر في الحياة ومصير الانسان والزمان واحداثه والدهر وتقلباته والناس وأخلاقهم وطباعهم والاقوام التى كانت والامم التى صارت أحاديث وذكريات •



مصادر البحث ومراجعه

إحياء علوم الدين ـ الغزالي : أبو حامد محمد بن أحمد (ت ٥٠٥ هـ) ط الحلبي ، مصر ١٩٣٩ م .
الأخبار الطوال ـ الدينوري : أبو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢ هـ) ط وزارة الارشاد القومي ، مصر .
أدب الكتاب ـ الصولي : أبو بكر محمد بن يحيى (ت ٣٣٥ هـ) تحقيق محمد بهجة الأثري ، ط مصر ١٣٤١ هـ .
الأزمنة والأمكنة ـ المرزوقي : أحمد بن محمد بن الحسن (ت ٤٢١ هـ) ط دائرة المعارف ، الهند ١٣٣٢ هـ .
أساليب الصناعة في شعر الخمر والناقة بين الأعشى والجاهليين ـ محمد محمد حسين ، ط دار نشر الثقافة ، الاسكندرية مصر ١٩٦٠ م .
أسباب نزول القرآن ـ الواحدي : علي بن أحمد النيسابوري .تحقيق أحمد صقر ، ط مصر .
الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ ابن عبد البر : يوسف بن عبدالله النمري (ت ٤٦٣ هـ) تحقيق محمد البجاوي ، ط نهضة مصر .
أسد الغابة في معرفة الصحابة ـ ابن الأثير : علي بن محمد بن الجزري (ت ٦٣٠ هـ) ط المكتبة الإسلامية ، طهران .
أسماء جبال تهامة وسكانها ـ عرام بن الأصبغ السلمي (ت القرن الثالث الهجري) تحقيق عبد السلام هارون ، ط سنة ١٣٧٣ هـ .

أسماء خيل العرب وفرسانها ـ ابن الاعرابي : محمد بن زياد (٢٣١ هـ)
تحقيق جرجي لوي دلا فيدا ، ط بريل ١٩٢٨ م .

الأصمعيات ـ الأصمعي : أبو سعيد عبد الملك بن قريب (ت ٢١٦ هـ)
تحقيق شاكر وهارون ، ط دار المعارف مصر ١٩٥٥ م .

الأصنام ـ ابن الكلبي : هشام بن محمد بن السائب (ت ٢٠٥ هـ) تحقيق
احمد زكي ، ط دار الكتب المصرية١٩٢٤ م .

اعجاز القرآن ـ الباقلاني : أبو بكر محمد بن الطيب (ت ٤٠٣ هـ) تحقيق
السيد أحمد صقر ، ط دار المعارف مصر ١٩٦٣ م .

أعجب العجب في شرح لامية العرب ـ الزمخشري : جار الله محمود بن عمر
(ت ٥٣٨ هـ) ط حجر ، مصر .

الأغاني ـ الأصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسين الأموي (٣٥٦ هـ) ط دار
الكتب وبولاق وليدن وساسي ، حسب ما يشار في الهامش .

الأمالي (وذيل الأمالي والنوادر) القالي : ابو علي اسماعيل بن القاسم البغدادي
(ت ٣٥٦ هـ) ، ط السعادة ، مصر ١٩٥٣ م .

الأمالي (غرر الفوائد ودرر القلائد) ـ الشريف المرتضى : علي بن الحسين
العلوي (ت ٤٣٦ هـ) . تحقيق أبي الفضل ابراهيم ، ط الحلبي مصر
١٩٥٤ م .

الانباه على قبائل الرواة ـ ابن عبد البر : يوسف بن عبد الله النمري (ت ٤٦٣ هـ)
ط القاهرة ١٣٥٠ هـ .

انباه الرواة على انباه النحاة ـ القفطي : جمال الدين علي بن يوسف (٦٤٦ هـ)
تحقيق أبي الفضل ابراهيم ، ط دار الكتب المصرية ٥٠ ـ ١٩٥٥ م .

أنساب الأشراف ـ البلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر (٢٧٩ هـ) الجزء
الأول ط دار المعارف والجزء الخامس ط القدس .

أنساب الخيل ـ ابن الكلبي : هشام بن محمد بن السائب (ت ٢٠٦ هـ) تحقيق
أحمد زكي ، ط دار الكتب المصرية ١٩٤٦ م .

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ـ السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر (ت ٩١١ هـ) . ط السعادة القاهرة ١٣٢٦ هـ .
بلاغات النساء ـ ابن طيفور : أحمد بن أبي طاهر طيفور الخراساني (ت ٢٨٠هـ) ط القاهرة ١٩٠٨ م .
بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ـ الآلوسي : محمود شكري ت ١٣٤٢ هـ) تحقيق الأثري ط سنة ١٩٢٤ م .
البيان والتبيين ـ الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) تحقيق عبد السلام هارون ، ط الحلبي مصر ١٩٤٥ ، وط لجنة التأليف سنة ١٩٤٨ م .
تاج العروس ـ الزبيدي : محمد مرتضى الحسيني (ت ١٢٠٥ هـ) ط الخيرية ، مصر ١٣٠٦ هـ .
تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر) ـ ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون المغربي (ت ٨٠٨ هـ) . ط دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٥٦ م .
تاريخ آداب العرب ـ الرافعي : مصطفى صادق (ت ١٩٣٢ م) ط الاستقامة ، القاهرة ١٩٤٠ م .
تاريخ آداب اللغة العربية ـ جرجي زيدان ، ط الهلال ، القاهرة ١٩٥٧ م .
تاريخ الأدب العربي ـ بروكلمان : كارل ، ترجمة عبد الحليم النجار ط دار المعارف ، مصر ١٩٦٠ م .
تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) ـ بلاشير : ريجيس ترجمة ابراهيم كيلاني ، ط دمشق ١٩٥٦ م .
تاريخ الجاهلية ـ عمر فروخ . ط بيروت ١٩٦٤ م .
تاريخ الشعر العربي ـ نجيب محمد البهبيتي ط دار الكتب المصرية ، مصر ١٩٥٠ م .
تاريخ الطبري ـ الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) ط أوربا وط الحسينية .

تاريخ العرب الأدبي ـ نيكلسون : رينولد ، ترجمة صفاء خلوصي ، ط دار المعارف ، بغداد ١٩٧٠ م .
تاريخ العرب قبل الاسلام ـ جواد علي ، ط المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٩٥٦ م .
تاريخ العرب (مطول) ـ فليب حتي وجرجي جبور ، ط الكشاف ، بيروت ١٩٥٢ م .
تاريخ اليعقوبي ـ اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر (ت ٢٨٢ هـ) ط الغري ، النجف ١٣٥٨ هـ .
تجارب الأمم ـ ابن مسكويه : أبو علي أحمد بن محمد (ت ٤٢١ هـ) نشر كايتاني ، ط ليدن ١٩٠٩ م .
تريين الأسواق بتفضيل أشواق العشاق ـ الأنطاكي : داود بن عمر (ت ١٠٠٨ هـ) ط مصر ١٢٩١ هـ .
تطور الخمريات في الشعر العربي ـ جميل سعيد ، ط الاعتماد ، مصر ١٩٤٥ م .
تفسير الكشاف ـ الزمخشري : محمود بن عمر (ت ٥٣٨ هـ) ط مصر .
التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه ـ البكري : عبدالله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ) ط السعادة ، مصر ١٩٥٤ م .
جزيرة العرب في القرن العشرين ـ حافظ وهبة ، ط القاهرة ١٩٤٦ م .
جمهرة أشعار العرب ـ القرشي : أبو زيد محمد بن أبي الخطاب ، ط بيروت ١٩٦٣ م .
جمهرة أنساب العرب ـ ابن حزم : علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (ت ٤٥٦هـ) تحقيق عبد السلام هارون ، ط دار المعارف مصر ١٩٦٢ م .
حديث الأربعاء ـ طه حسين ، ط الحلبي ، مصر ١٩٣٧ م .
حضارة العرب ـ جوستاف لوبون ، ط الحلبي ، مصر ١٩٢٥ م .
حماسة البحتري ـ البحتري : أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي (ت ٢٨٤ هـ) . تحقيق لويس شيخو ، ط الكاثوليكية بيروت ١٩١٠ م .

حماسة ابن الشجري ـ ابن الشجري : هبة الله علي بن حمزة العلوي (ت ٥٤٢هـ)
ط دائرة المعارف العثمانية . الهند ١٣٤٥ هـ وط دمشق ١٩٧٠ م .

الحماسة البصرية ـ البصري : صدر الدين بن أبي الفرج بن الحسين البصري
(ت ٦٥٩ هـ) تحقيق مختار الدين أحمد . ط الهند ١٩٦٤ م .

الحياة العربية في الشعر الجاهلي ـ أحمد محمد الحوفي . ط ٣ نهضة مصر ١٩٥٦
وط ٤ نهضة مصر ١٩٦٢ م .

الحيوان ـ الجاحظ : ابو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥ هـ) تحقيق عبد السلام
هارون ، ط الحلبي ١٩٤٥ م .

خزانة الأدب ـ البغدادي : عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣ هـ) ط بولاق
مصر ١٢٩٩ هـ .

الخصائص ـ ابن جني : أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ) ط دار الكتب
المصرية ٥٢ ـ ١٩٥٦ م .

الخيل ـ الأصمعي : أبو سعيد عبد الملك بن قريب (ت ٢١٦ هـ) تحقيق
هافنر . ط ڤيينا ١٨٨٥ م .

الخيل ـ أبو عبيدة : معمر بن المثنى (ت ٢١٠ هـ) . ط حيدر آباد ، الهند
١٣٥٨ هـ .

ديوان الأعشى ـ الأعشى : ميمون بن قيس (ت ٦٢٩ م) تحقيق رودلف جاير .
جاير . ط بيانة ١٩٢٧ م . وط محمد حسين ، مكتبة الجماميز

ديوان امرئ القيس ـ امرؤ القيس بن حجر الكندي . تحقيق أبو الفضل ابراهيم ،
ط دار المعارف مصر ١٩٥٨ م .

ديوان أوس بن حجر ـ تحقيق محمد يوسف نجم ، ط صادر بيروت ١٩٦٠ م .

ديوان جرير ـ جرير بن عطية بن الخطفى (ت ١١٠ هـ) تحقيق نعمان أمين
طه ، دار المعارف مصر ١٩٧١ م .

ديوان جميل ـ جميل بن معمر العذري (ت ٨٢ هـ) تحقيق حسين نصار .
ط مصر ١٩٦٧ م .

ديوان حاتم الطائي ـ حاتم بن عبدالله بن سعد الطائي (ت ٥٧٨ م) ط لندن ١٨٧٢ م .
ديوان حسان بن ثابت ـ حسان بن ثابت الأنصاري (ت ٥٤ هـ) ط ليدن ١٩١٠ م وط السعادة مصر بلا تاريخ .
ديوان الحطيئة ـ جرول بن أوس (ت ٣٠ هـ)تحقيق نعمان أمين طه . ط الحلبي مصر ١٩٥٨ م .
ديوان الخرنق ـ الخرنق بنت بدر بن هفان (ت ٥٧٤ م) ضمن رياض الأدب في مراثي شواعر العرب . جمع لويس شيخو . ط بيروت ١٨٩٧ م .
ديوان الخنساء ـ الخنساء : تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية (ت ٢٤ هـ) .
أنيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء . تحقيق لويس شيخو ، بيروت ١٨٩٦ م .
ديوان زهير ـ زهير بن أبي سلمى المزني الغطفاني (ت ٦٠٩ م) ط دار الكتب المصرية ١٩٤٤ م .
ديوان سراقة البارقي ـ سراقة بن مرداس البارقي الأزدي (ت ٧٩ هـ) تحقيق حسين نصار . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر ١٩٤٧ م .
ديوان السموأل ـ السموأل بن غريض بن عادياء الأزدي (ت ٥٦٠ م) تحقيق لويس شيخو ، ط الكاثوليكية بيروت ١٩٢٠ م .
ديوان الشنفرى ـ الشنفرى : عمرو بن مالك الأزدي (ت ٥٢٥ م) ضمن الطرائف الأدبية ، تحقيق عبد العزيز الميمني . ط القاهرة ١٩٣٧ م .
ديوان طرفة ـ طرفة بن العبد البكري (ت ٥٦٤ م) شرح الأعلم الشنتمري ، تحقيق مكس سلغون ، ط باريس ١٩٠٠ م .
ديوان طفيل الغنوي ـ طفيل بن عوف الغنوي (ت ٦١٠ م) ط لندن ١٩٢٧ م .
ديوان عبيد بن الأبرص ـ تحقيق لايل . ط دار المعارف مصر . بلا تاريخ . وط حسين نصار ١٩٥٧ م .
ديوان عدي بن زيد ـ عدي بن زيد العبادي (ت ٥٩٠ م) . تحقيق محمد جبار المعيبد ، ط بغداد ١٩٦٥ م .

ديوان عروة بن الورد ـ عروة بن الورد العبسي (ت ٥٩٤ م) ط ابن أبي شنب ، الجزائر ١٩٢٦ م وط دمشق ١٩٦٦ م .
ديوان علقمة الفحل ـ علقمة بن عبدة (ت ٦٠٣ م) ط لطفي الصقال ، حلب ١٩٦٩ م .
ديوان عمرو بن معديكرب ـ عمرو بن معديكرب الزبيدي (ت ٦٤٢ م) تحقيق هاشم الطعان ، ط بغداد ١٩٧٠ م .
ديوان عنترة ـ عنترة بن شداد العبسي (ت ٦٠٠ م) تحقيق محمد سعيد مولوي ، ط المكتب الإسلامي دمشق ١٩٧٠ م .
ديوان الفرزدق ـ همام بن غالب بن صعصعة (ت ١١٠ هـ) تحقيق الصاوي ، ط مصر ١٩٣٦ م .
ديوان لبيد ـ لبيد بن ربيعة العامري (ت ٤٠ هـ) تحقيق احسان عباس ، ط الكويت ١٩٦٢ م .
ديوان المتلمس ـ جرير بن عبد العزي الضبعي (ت ٥٦٩ م) تحقيق حسن كامل الصيرفي ، ط معهد المخطوطات العربية ١٩٧٠ م .
ديوان المثقب العبدي ـ العائذ بن محصن بن ثعلبة (ت ٥٨٨ م) تحقيق محمد حسن آل ياسين ، ط المعارف بغداد ١٩٥٦ م .
ديوان النابغة الذبياني ـ زياد بن معاوية (ت ٦٠٤ م) صنعة ابن السكيت ، تحقيق شكري فيصل ، ط بيروت ١٩٦٨ م .
ديوان الهذليين ـ ط دار الكتب المصرية ٤٥ ـ ١٩٥٠ م .
رسالة التربيع والتدوير ـ الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) تحقيق شارل بلا ، ط دمشق ١٩٥٥ م .
رياض الأدب في مراثي شواعر العرب ـ جمع وتحقيق لويس شيخو ، بيروت ١٨٩٧ م .
الروض الأنف ـ السهيلي : عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي (ت ٥٨١ هـ) ط سنة ١٩١٤ م .

زهر الآداب ـ الحصري : ابراهيم بن علي (ت ٤٥٣ هـ) تحقيق علي محمد البجاوي ، ط الحلبي مصر ١٩٥٣ م .

السيرة النبوية ـ ابن هشام : عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨ هـ) تحقيق السقا والأبياري وشلبي ، ط الحلبي مصر ١٩٥٥ م .

شرح أشعار الهذليين ـ السكري : أبو سعيد الحسن بن الحسين (ت ٢٧٥ هـ) تحقيق عبد الستار فراج ، ط المدني القاهرة ١٩٦٥ م .

شرح ديوان الحماسة ـ التبريزي : أبو زكريا يحيى بن علي (ت ٥٢٠ هـ) ط بولاق ١٢٩٦ هـ و ط السعادة مصر ١٣٤٦ هـ .

شرح ديوان الحماسة ـ المرزوقي : أبو علي أحمد بن محمد بن الحسين (ت ٤٢١ هـ) تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ، ط لجنة الترجمة والتأليف والنشر ١٩٥١ م .

شرح المعلقات العشر ـ التبريزي : يحيى بن علي (ت ٥٢٠ هـ) تحقيق فخر الدين قباوة ، ط حلب ١٩٦٩ م .

شرح المعلقات السبع الطوال الجاهليات ـ ابن الأنباري : أبو بكر محمد بن القاسم (٣٢٨ هـ) تحقيق عبد السلام هارون ، ط دار المعارف مصر ١٩٦٣م.

شرح المعلقات السبع ـ الزوزني : ابو عبدالله الحسين بن أحمد (ت ٤٨٦ هـ) ط صادر بيروت ١٩٥٨ م .

شرح المعلقات التسع ـ النحاس : ابو جعفر أحمد بن محمد بن اسماعيل النصري (ت ٣٣٨ هـ) مخطوط في دار الكتب المصرية رقم ٤٦٠ وطبع بتحقيق أحمد خطاب ، بغداد ١٩٧٣ م .

شعراء النصرانية ـ لويس شيخو اليسوعي (ت ١٩٢٧ م) ط الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٢٧ م .

الشعر الجاهلي ـ فؤاد افرام البستاني ـ سلسلة الروائع ، ط الكاثوليكية ، بيروت ١٩٢٧ وط الرابعة ١٩٥٨ م .

الشعر الجاهلي ـ محمد النويهي ط الدار القوميه ، القاهرة بدون تاريخ .

شعر مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي ـ ابتسام مرهون الصفار ، ط الارشاد ، بغداد ١٩٦٨ م .

شعر المخضرمين وأثر الاسلام فيه ـ يحيى الجبوري ، ط مكتبة النهضة بغداد ١٩٦٤ م .

الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة ابو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) تحقيق أحمد شاكر ، ط دار المعارف مصر ٦٦ ـ ١٩٦٧ م .

الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ـ يوسف خليف ، ط دار المعارف ، مصر ١٩٥٩ م .

شعر الوقوف على الأطلال ـ عزة حسن ، ط الترقي ، دمشق ١٩٦٨ م .

الشعر المفتعل الموضوع عند ابن سلام ـ علي جواد الطاهر ، بحث في مجلة الآداب عدد ١٢ كانون أول ١٩٦٥ بيروت .

الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) ـ الجوهري : أبو نصر اسماعيل بن حماد (ت ٣٦٨ هـ) تحقيق عبد الغفور عطار ، ط مصر ١٩٥٦ م .

صحيح البخاري ـ البخاري : أبو عبدالله محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦ هـ) ط أوربا .

صحيح مسلم ـ مسلم : أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١ هـ) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط مصر ١٩٥٥ م .

صفة جزيرة العرب ـ الهمداني : أبو محمد الحسن بن أحمد (ت ٣٣٤ هـ) نشر محمد النجدي ، ط السعادة مصر ١٩٥٣ م .

الصناعتين ـ العسكري : ابو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل (ت ٣٩٥ هـ) تحقيق البجاوي وابو الفضل ، ط الحلبي مصر ١٩٥٢ م .

طبقات الأمم ـ صاعد الأندلسي : القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد (ت ٤٦٢ هـ) ط السعادة مصر .

طبقات فحول الشعراء ـ الجمحي : محمد بن سلام (ت ٢٣١ هـ) تحقيق محمود شاكر ، ط دار المعارف مصر ١٩٥٢ م .
الطبقات الكبرى ـ ابن سعد : محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠ هـ) تحقيق سخو ، ط ليدن ١٣٢٢ هـ .
الطرائف الأدبية ـ تحقيق عبد العزيز الميمني . ط لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٣٧ م .
العرب قبل الإسلام ـ جرجي زيدان . ط بعناية حسين مؤنس . دار الهلال مصر .
العصر الجاهلي ـ شوقي ضيف . ط دار المعارف . مصر ١٩٦٠ م .
العقد الفريد ـ ابن عبد ربه : أحمد بن محمد الأندلسي (ت ٣٢٨ هـ) تحقيق أحمد أمين والزين والابياري . ط لجنة التأليف مصر ٤٨ ـ ١٩٥٠ م
العقد الثمين في دواوين الشعراء الستة الجاهليين ـ الوارد . ط ليدن .
العمدة ـ ابن رشيق : الحسن بن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦ هـ) نشر محيي الدين عبد الحميد ، ط السعادة مصر ١٩٥٥ م .
عيون الأخبار ـ ابن قتيبة : عبدالله بن مسلم الدينوري (٢٧٦ هـ) ط دار الكتب المصرية ١٩٢٥ م .
الغزل في العصر الجاهلي ـ أحمد محمد الحوفي . ط الثانية نهضة مصر ١٩٦١ م .
الفائق في غريب الحديث والأثر ـ الزمخشري : جار الله محمود بن عمر (ت ٥٣٨ هـ) تحقيق البجاوي وأبي الفضل ، ط القاهرة ١٩٤٥ م .
فتوح البلدان ـ البلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ) . ط المصرية ١٩٣٢ م .
فجر الإسلام ـ أحمد أمين . ط السابعة ، مط النهضة مصر .
فقه اللغة ـ الثعالبي : عبد الملك بن محمد بن اسماعيل (ت ٤٢٩ هـ) نشر سليجمان . ط اوربية .
فن الشعر الخمري وتطوره عند العرب ـ ايليا حاوي . ط دار الثقافة . بيروت بدون تاريخ .

الفهرست ـ ابن النديم : محمد بن اسحاق بن يعقوب (ت ٣٨٥ هـ) ط التجارية مصر ١٣٤٨ هـ . ط لايبزك ١٨٧١ م .
في الأدب الجاهلي ـ طه حسين . ط الحلبي مصر ١٩٣٧ م .
في الشعر العربي القديم ونقده ـ عبد الجبار المطلبي . بحث في مجلة كلية الآداب ، بغداد نيسان ١٩٦٤ م .
الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير : علي بن محمد بن الجزري (ت ٦٣٠ هـ) . ط المنيرية مصر ١٣٤٩ هـ .
الكامل في اللغة والأدب ـ المبرد : أبو العباس محمد بن يزيد الثمالي الأزدي (ت ٢٨٥ هـ) تحقيق زكي مبارك ثم أحمد شاكر . ط الحلبي مصر ١٩٣٧م.
كتاب المطر (ضمن البلغة في شذور اللغة) ـ ابو زيد الأنصاري : سعيد بن أوس بن ثابت (ت ٢١٥ هـ) . ط لويس شيخو ، بيروت ١٩٠٨ م .
القاموس المحيط ـ الفيروزابادي : محمد بن يعقوب (ت ٨١٦ هـ) ط الثانية ، مصر بدون تاريخ .
كتاب الأشربة ـ ابن قتيبة : عبدالله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) تحقيق محمد كرد علي . ط دمشق ١٩٤٧ م .
كتاب الأنواء في مواسم العرب ـ ابن قتيبة : تحقيق شارل بيلا . ط الهند ١٩٥٦م .
كشف الظنون ـ حاجي خليفة : مصطفى بن عبدالله كاتب جلبي (ت ١٠٦٦ هـ) ط مصر ١٢٧٤ هـ .
الكواكب السائرة ـ نجم الدين الغزي . ط بيروت ١٩٤٥ م .
لبيد بن ربيعة العامري ـ يحيى الجبوري . ط بيروت ١٩٧٠ م .
لسان العرب ـ ابن منظور : محمد بن المكرم الأنصاري (ت ٧١١ هـ) ط الأميرية بولاق ١٣٠٠ هـ .
المثل السائر ـ ابن الأثير : ضياء الدين نصر الله بن محمد الشيباني (ت ٦٣٧ هـ) . تحقيق الحوفي وطبانة ، ط نهضة مصر ١٩٦٢ م .
مجمع الأمثال ـ الميداني : أحمد بن محمد النيسابوري (ت ٥١٨ هـ) نشر محيي

الدين عبد الحميد . ط السعادة مصر ١٩٥٩ م .
محاضرات في تاريخ العرب ـ صالح احمد العلى . ط بغداد ١٩٦٤ م .
المحبر ـ محمد بن حبيب (ت ٢٤٥ هـ) . ط الهند ١٩٤٢ م .
مختصر الدول ـ ابن العبري : ابو الفرج غريغوريوس بن هارون المالطي (ت ٦٨٥ هـ) ط بيروت .
المختصر في أخبار البشر ـ ابو الفداء : عماد الدين اسماعيل صاحب حماة (ت ٧٣٢ هـ) ط الحسينية مصر .
مختصر كتاب البلدان ـ ابن الفقيه : احمد بن محمد الهمذاني (ت ٣٦٥ هـ) نشر دي غويه ، ط ليدن ١٨٨٥ م .
المرأة في الشعر الجاهلي ـ احمد محمد الحوفي ط نهضة مصر ١٩٥٤ م .
مراتب النحويين ـ ابو الطيب اللغوي : عبد الواحد بن علي الحلبي (ت ٣٥١ هـ) تحقيق أبي الفضل ابراهيم . ط نهضة مصر ١٩٥٥ م .
مروج الذهب ـ المسعودي : علي بن الحسين (ت ٣٤٥ هـ) ط محيي الدين عبد الحميد ، مصر .
المزهر ـ السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ) تحقيق جاد المولى والبجاوي وأبي الفضل . ط الحلبي بدون تاريخ .
مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ـ ناصر الدين الأسد . ط دار المعارف . مصر ١٩٥٦ م .
المعارف ـ ابن قتيبة : عبدالله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) ط دار الكتب المصرية ، مصر ١٩٦٠ م .
معلقات العرب ـ بدوي أحمد طبانة . ط الرسالة . مصر ١٩٥٨ م .
معجم الأدباء ـ ياقوت : ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي (ت ٦٢٦ هـ) تحقيق مرجليوث ، ط هندية مصر ٢٣ ـ ١٩٢٥ م .
معجم البلدان ـ ياقوت . ط لايبزك ١٨٦٦ م .

معجم الشعراء ـ المرزباني : ابو عبيد محمد بن عمران (ت ٣٨٤ هـ) تحقيق عبد الستار فراج ، ط مصر ١٩٦٠ م .
معجم ما استعجم ـ البكري : ابو عبيد عبدالله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧ هـ) تحقيق مصطفى السقا ، مصر ١٩٤٥ م .
معجم المطبوعات العربية والمعربة ـ سركيس : يوسف اليان . ط مصر ١٩٢٨ م .
المغازي (مغازي رسول الله) ـ الواقدي : محمد بن عمر (ت ٢٠٧ هـ) ط السعادة ، مصر ١٣٦٧ هـ .
المفضليات ـ الضبي : المفضل بن محمد (ت ١٧٨ هـ) تحقيق لايل ، ط أوكسفورد ١٩٢٠ م . وتحقيق شاكر وهارون . ط دار المعارف مصر ١٩٦٤ .
مقدمة ابن خلدون ـ عبد الرحمن بن خلدون المغربي (ت ٨٠٨ هـ) . ط مصطفى محمد بدون تاريخ .
الملل والنحل ـ الشهرستاني : محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨ هـ) نشر محمد بدران ، القاهرة ١٩٤٧ م .
المنتظم ـ ابن الجوزي : عبد الرحمن بن علي (ت ٥٦٧ هـ) . ط حيدر آباد ١٣٥٩ هـ .
المنصفات ـ جمع وتحقيق عبد المعين الملوحي . ط دمشق ١٩٦٧ م .
الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ـ المرزباني : أبو عبيد الله محمد بن عمران (ت ٣٨٤ هـ) تحقيق علي محمد البجاوي ، ط نهضة مصر ١٩٦٥ م .
نخبة عقد الأجياد في الصافنات الجياد ـ محمد الجزائري ، الأهلية . بيروت ١٣٢٦ هـ .
نزهة الألباء ـ ابن الأنباري : أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد (ت ٥٧٧ هـ) تحقيق ابراهيم السامرائي ، ط بيروت ١٩٧٠ م .
نسب قريش ـ المصعب الزبيري : أبو عبدالله المصعب بن عبدالله (ت ٢٣٦ هـ) تحقيق ليفي بروفنسال ، ط دار المعارف مصر ١٩٥٣ م .
نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي ـ عبد الحميد المسلوت . ط مصر بدون تاريخ .

النقائض ـ أبو عبيدة : معمر بن المثنى (ت ٢١٠ هـ) تحقيق بيفان ، ط ليدن ١٩٠٥ م .
نقد الشعر ـ قدامة بن جعفر (ت ٣١٠ هـ) نشر كمال مصطفى ، ط مصر ١٩٤٨ ، وط بريل .
نهاية الأرب ـ النويري : أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢ هـ) ط دار الكتب المصرية ، مصر ١٩٢٩ م .
النهاية في غريب الحديث والأثر ـ ابن الأثير : أبو السعادات المبارك بن محمد الشيباني الجزري (ت ٦٠٦ هـ) . ط حجر .
الوحشيات ـ أبـو تمام : حبيب بن أوس الطائي (ت ٢٣١ هـ) تحقيق عبد العزيز الميمني . ط دار المعارف ، مصر ١٩٦٣ م .
الوساطة بين المتنبي وخصومه ـ الجرجاني : علي بن عبد العزيز (ت ٣٦٦ هـ) ط دار إحياء الكتب العربية ، مصر ١٩٤٥ م .
وفيات الأعيان ـ ابن خلكان : أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١ هـ) تحقيق احسان عباس ، ط دار الثقافة بيروت .
الهجاء والهجاؤون في الجاهلية ـ محمد محمد حسين . ط الآداب . الإسكندرية ١٩٤٧ م .

Khuda Bukhsh : Contributions to the History of Islam Civilization. Calcutta. 1930.

Mohammad Ali : Mohammad the Prophet. Lahore. 1933.

Nicholson (R.A.) : A Literary History of the Arabs. London. 1941.

O'Leary (De Lacy) : Arabia before Mohammad. 1927.

R. Smith : Kinship and Marriage in old Arabia. London. 1907.

Sayce (A.H.) : Early Israel.

Von Kremer : Ueber die Cedichte Des Labyd.
Wien 1880.

Perceval (Coussin de) : Essai sur L'Histoire des Arabes. 1849.

Encyclopaedia of Islam.

فهارس الكتاب

١ ـ فهرس الشعر

٢ ـ فهرس الأعلام

[أ]

[ب]

[ح]

[خ]

[د]

[ذ]

[ر]

[ز]

[س]

[ش]

[ع]

[غ]

[ك]

[ل]

[م]

[ن]

[هـ]

[و]

[ي]

٣ ـ فهرس القبائل والجماعات

[أ]

[ب]

[ت]

[ح]

[خ]

[ذ]

[ر]

[س]

[ش]

[ص]

[ض]

[ط]

[ع]

[غ]

[ف]

[ق]

[ك]

[ل]

[م]

[هـ]

[و]

[ي]

٤ ـ فهرس المواضع والبلدان

[أ]

[ب]

[ت]

[ث]

[ج]

[ح]

[خ]

[د]

[ذ]

[ر]

[ط]

[ظ]

[ع]

[غ]

[ف]

[ق]

[ك]

[م]

[ن]

[هـ]

[و]

[ي]

٥ ـ فهرس الموضوعات

الصفحة

من كتب المؤلف

١ ـ الاسلام والشعر		بغداد ١٩٦٤
٢ ـ شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه	بغداد ١٩٦٤	،بيروت ١٩٨٠
٣ ـ ديوان العباس بن مرداس السلمي		بغداد ١٩٦٨
٤ ـ الجاهلية		بغداد ١٩٦٨
٥ ـ شعر النعمان بن بشير الأنصاري		بغداد ١٩٦٨
٦ ـ شعر عروة بن أذينة		بيروت ١٩٧٠
٧ ـ لبيد بن ربيعة العامري	بيروت ١٩٧٠	الكويت١٩٨٠
٨ ـ شعر المتوكل الليثي		بيروت ١٩٧١
٩ ـ شعر الحارث المخزومي		النجف ١٩٧٢
١٠ ـ الشعر الجاهلي: خصائصه وفنونه	بيروت ١٩٧٢ ،	١٩٨١.١٩٧٩
١١ ـ شعر عبدة بن الطبيب		بيروت ١٩٧٢
١٢ ـ شعر عبد الله بن الزبير الأسدي		بغداد ١٩٧٤
١٣ ـ شعر أبي حية النميري		دمشق ١٩٧٥
١٤ ـ شعر عمرو بن شأس الأسدي		النجف ١٩٧٦
١٥ ـ شعر عمر بن لجأ التيمي		بغداد ١٩٧٦
١٦ ـ الحيرة ومكة (ترجمة عن الانكليزية)		بغداد ١٩٧٦
١٧ ـ ديوان الطغرائي (بالاشتراك مع الدكتور علي جواد الطاهر)		بغداد ١٩٧٦
١٨ ـ شعر هدبة بن الخشرم العذري		دمشق ١٩٧٦
١٩ ـ أصول الشعر العربي (ترجمة عن الانكليزية ، بيروت ١٩٧٨ .		١٩٨٠
٢٠ ـ شعر عبدالله بن الزبعرى	القاهرة ١٩٧٨	بيروت ١٩٨١
٢١ ـ شعر خداش بن زهير		دمشق ١٩٨١
٢٢ ـ قصائد جاهلية نادرة		بيروت ١٩٨١


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com